
نساء
شيكسبير

نساء شيكسبير

دار شرقيات للنشر والتوزيع

نساء شيكسبير
رجاء النقاش

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي
الرقم البريدي ١١١١١
باب اللوق، القاهرة
ت ٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨
sharq_ca@yahoo.com

غلاف: طارق علي

رقم الإيداع ٢٠٧٨٨ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولي 977-283-173-2 ISBN

نساء شيكسبير

رجاء النقاش



دار شرقيات

هذا الكتاب

في يوم الثلاثاء الموافق ٢٣ إبريل سنة ١٦١٦ توفى الشاعر الإنجليزي العالمي وليم شيكسبير وهو في الثانية والخمسين من عمره حيث أنه مولود في ٢٣ إبريل سنة ١٥٦٤ وبذلك يكون شيكسبير من مواليد إبريل، ومن الذين انتهت حياتهم أيضاً هذا الشهر نفسه. ومن الشائع المعروف أن شهر إبريل هو الذي يستمتع فيه الناس بإطلاق بعض الأكاذيب البيضاء في اليوم الأول منه، وهى الأكاذيب التي تدخل جميعاً تحت عنوان واحد هو "كذبة إبريل". ويبدو أن ارتباط شيكسبير في وفاته وميلاده بشهر إبريل قد ترك بعض الظلال حول حياته وشخصيته وأدبه، فهناك بعض الباحثين والدارسين يقولون إن شيكسبير ما هو إلا كذبة جميلة تعيش بين الناس منذ حوالي خمسمائة سنة وحتى الآن. والسبب في مثل هذه الأقوال أن هناك كثيراً من الغموض يحيط بشخصية شيكسبير وبحقيقة حياته وأدبه وهناك رأى يقول إن الذي يحمل اسم شيكسبير لم يكن هو نفسه صاحب المسرحيات الرائعة المنسوبة إليه والمعروفة في الأدب الإنجليزي وفى كل الآداب العالمية الأخرى. وبعض أصحاب هذا الرأي يقولون إن هذه المسرحيات والقصائد كتبها شخص كان يخجل من أن يقال عنه إنه شاعر أو مؤلف للمسرح، فاتخذ من اسم شيكسبير ستاراً يختفي وراءه ليكتب ما يشاء في حرية وانطلاق ودون أن يحاسبه أحد على شيء من

ذلك، وهذا العبقري المختفي وراء ستار هو الفيلسوف الإنجليزي الكبير فرنسيس بيكون "١٥٦١ــ١٦٢٦".

مثل هذا الكلام يتردد أحياناً عند بعض الباحثين ولكن معظم الدراسات والآراء الأخرى تميل إلى الاعتقاد بأن شيكسبير كان له وجود حقيقي وأنه لم يكن أبداً قناعاً يستخدمه غيره، وأن المسرحيات والقصائد المنسوبة لشيكسبير هي فعلاً من أعماله التي كتبها وأبدعها بالصورة التي نعرفها الآن.

وإذا كان البعض يسمحون لأنفسهم بالشك في شخصية شيكسبير وفى حقيقة وجوده فهل يستطيع أحد أن يشك في أدب شيكسبير أو في قيمة هذا الأدب العظيم؟

إن هذا الأدب موجود بين أيدينا. ولم تعد هناك لغة من لغات العالم الحية إلا وفيها ترجمة كاملة لأعمال شيكسبير. ولا يمر عام واحد إلا وتصدر دراسات جديدة متنوعة عن أدب شيكسبير وشخصيته. وقد عرف العرب اسم شيكسبير في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وذلك منذ أن وقف الشيخ سلامة حجازي "١٨٥٢ــ١٩١٧" على خشبة المسرح ليقدم بصوته الساحر بعض أغاني مسرحية "شهداء الغرام" وهى المسرحية التي اقتبسها نجيب الحداد من مسرحية "روميو وجولييت" لشيكسبير. وقد اشتهرت "شهداء الغرام" بفضل الأغاني التي كان يؤديها الشيخ سلامة حجازي بصوته الرائع وألحانه البديعة، وهى الأغاني التي ما زلنا نسمع بعضها إلى الآن عن طريق تسجيلات قديمة تم إعدادها في أوائل القرن العشرين.

وفى القرن العشرين أيضاً بدأ العرب يعرفون أدب شيكسبير، وأصبحت أعماله كلها مترجمة إلى اللغة العربية، بل إن بعضها قد تمت

ترجمته عدة مرات، وهناك ترجمة كاملة لأعمال شيكسبير هي الترجمة التي أنفقت عليها الجامعة العربية في خمسينات القرن الماضي، وقد أشرف على إصدارها الدكتور طه حسين عند ما كان مستشاراً ثقافياً للجامعة، ونشرتها دار المعارف في القاهرة. ولا شك أن ما فعلته هو إنجاز ثقافي عظيم القيمة والأهمية.

وهذا الكتاب الذي أقدمه لك اليوم عزيزي القارئ هو رحلة في أدب شيكسبير هدفها التفكير والتأمل في النماذج المختلفة التي قدمها هذا الفنان الإنساني الكبير للمرأة. والحقيقة أن المرأة في أدب شيكسبير تحتل مكانة عالية جداً، ففي مسرحيات شيكسبير وقصائده نجد صوراً متعددة للمرأة تكاد تكون هي"كل" الصور المعروفة لها منذ أقدم عصور التاريخ إلى الآن. فهناك المرأة المحبة العاشقة، وهناك المرأة المتمردة، وهناك المرأة الطموح التي تحرض زوجها على السعي إلى مزيد من السطوة والسلطة، وهناك المرأة الملاك، والمرأة الشيطان، وغير ذلك من النماذج الإنسانية المتعددة للمرأة، والتي استطاع شيكسبير أن يقدمها لنا جميعها في عمق وجمال وصدق، بحيث نكاد ونحن نعيش مع نساء شيكسبير ننسى أننا نعيش في عالم فني خيالي، ونحس على العكس من ذلك أننا نعيش في واقع حي، وأننا نرى هذه النساء بعيوننا، ونشعر بهن يتحركن بيننا كما تتحرك الكائنات الحية. وهذا جانب من عظمة فن شيكسبير الذي يفيض بقوة الحياة ويكاد يخرج بالشخصيات التي يرسمها من صفحات المسرحيات لتمشى على الأرض وتعيش بين الناس وتتعامل معهم تعاملاً واقعياً لا خيال فيه.

على أنني في هذا الكتاب لم أتوقف أمام كل نساء شيكسبير، بل توقفت أمام عدد من الشخصيات النسائية الشهيرة في أدبه، وذلك لأن نساء شيكسبير كثيرات ومتنوعات بصورة غير معهودة، مما كان

يدفعني إلى اختيار عدد من هؤلاء النساء للقيام برحلتي معهن، ولعل الظروف تسمح بعد ذلك بأن تكون هناك رحلة أخرى مع نساء أخريات، فبحر شيكسبير واسع وعميق ورائع، والسباحة في هذا البحر من أوله إلى آخره مرة واحدة هو مطلب عسير، بل هو نوع من الجنون.

إن المرأة عند شيكسبير هي الحياة، وهي الطبيعة، ولا يمكن فهم شيء عن الحياة والطبيعة دون محاولة فهم المرأة ومعرفة أسرارها والاقتراب من العواطف المختلفة التي تحركها وتملأ قلبها وتتحكم في كل ما تقوم به من مواقف وتصرفات.

ولكن .. هل يمكن فهم المرأة بصورة كاملة أو معرفة أسرارها معرفة لا نقص فيها ولا خطأ؟ هذا أمر مستحيل، لأن المرأة هي صورة للحياة كلها، وفهم الحياة فهماً شاملاً كاملاً هو مطلب من المطالب العسيرة، والنماذج الرائعة التي قدمها شيكسبير للمرأة تعطينا الكثير من الإشارات الذكية المدهشة، ولكنها لا تقدم إلينا مفتاحاً سحرياً نستطيع أن نفتح به جميع الأبواب المغلقة في عالم المرأة ولم يستطع أحد منذ ظهور حواء إلى الآن أن يقول إنه عالم بكل أسرار المرأة، لأن سر الأسرار لا يملكه إلا الله، أما الفن، ولو كان فناً عظيماً مثل فن شيكسبير، فليس في استطاعته أن يلقى أمامنا بعض الأضواء هنا أو هناك، أما "مفتاح السر النهائي" فلا يملكه أحد على الأرض، ولو كان هذا "الأحد" في عبقرية شيكسبير وقدرته غير العادية على تصوير الشخصيات والمواقف في فنه الرائع العجيب.

هذه إذن رحلة مع نساء شيكسبير، أو مع بعض هؤلاء النساء اللواتي أصبحن يملكن من الشهرة ومعرفة الناس بأسمائهن أكثر مما تملكه

أي امرأة حقيقية، وبعض نساء شيكسبير مثل "كيلوبطرة" له وجود تاريخي، وبعض هؤلاء النساء مثل "جولييت" و"ديدمونة" له وجود في القصص والأساطير الشعبية، ولكن تصوير شيكسبير لهذه النماذج يعطيها من الجمال والسحر بما يجعل منهن "كائنات شيكسبيرية" أكثر جاذبية وسحراً من كائنات الحياة الطبيعية.

وبعد .. فإن وجدت في هذه الرحلة مع نساء شيكسبير جمالاً ومتعة، فالفضل في ذلك يعود إلى شيكسبير وعبقريته وأدبه وعالمه الفني المليء بالجلال والسحر والمتعة، أما إذا وجدت في هذه الرحلة سلبيات هنا أو هناك فذلك يعود إلى كاتب هذه السطور، الذي لعله يبقى له أنه كان صادقاً في محاولته للفهم والتذوق والاجتهاد في الدراسة والتفسير، أما التوفيق في شيء من ذلك كله فهو في جميع الأحوال من عند الله.

رجاء النقاش

القاهرة

أغسطس ٢٠٠٤



مع شيكسبير ... دليلي احتار

أهم الأسماء الواردة في هذا الفصل هي:

بيكون — فيلسوف ومفكر كبير معاصر لشيكسبير. ولد سنة ١٥٦١ وتوفى ١٦٢٦ أي أنه ولد قبل شيكسبير بثلاث سنوات ومات بعده بعشر سنوات.

آن هاتاوى — زوجة شيكسبير

سوزانا — ابنة شيكسبير

جودث — ابنة شيكسبير الثانية

لا أظن — في حدود معلوماتي — أن هناك فناناً عالمياً اهتم بالمرأة مثل شاعر الإنجليز الإنساني الكبير وليم شيكسبير (١٥٦٤—١٦١٦) ففي معظم مسرحيات شيكسبير نجد حديثاً ممتعاً وعميقاً عن أصناف وألوان متعددة من النساء. وكل المشاعر الإنسانية المرتبطة بالمرأة نجدها بصورة واضحة في أعمال شيكسبير والتي تصل إلى نحو أربعين مسرحية، وأقول "نحو" لأن تحديد عدد مسرحيات شيكسبير أمر صعب لم يتفق عليه النقاد والباحثون، فقد كان شيكسبير في بداية حياته يشترك مع غيره في كتابة بعض المسرحيات، ولذلك فإن أعماله الفنية المنسوبة لأدبه وحياته والتحديد الدقيق لعدد المسرحيات التي كتبها شيكسبير يبدو من الأمور الصعبة.

لهذا السبب، ومع ذلك فإن المسرحيات الشهيرة والأساسية المنسوبة إلى شيكسبير لا تتعرض للشك مثل مسرحيات أخرى كتبها في بداية حياته، ومن هذه المسرحيات التي تنخفض الشكوك حولها حتى تكاد تنعدم مسرحيات"روميو وجولييت"و"الملك لير"و"ماكبث"و"عطيل"و"هاملت"و"أنطونيو وكليوبطره" وهى أعظم مسرحيات شيكسبير وأكثرها جمالاً وعمقاً ، وهى المسرحيات التي تنطوي على تصوير لهموم الإنسان وعواطفه الأساسية. ففيها تصوير

للغيرة والخيانة والطموح والشكوك المختلفة التي تعصف بالنفوس الحساسة والعقول التي تعودت على البحث والتأمل. وفيها تصويرا للحسد والحقد والطموح والانتصار والهزيمة. وفيها إلى جانب ذلك كله تصوير لبعض العواطف النبيلة مثل الحب المثالي، والصداقة، والتضحية بالنفس، وغير ذلك مما يرفع قيمة الإنسان ويضعه في مترلة أعلى من غيره بين الكائنات. ولا تكاد توجد عاطفة من العواطف الإنسانية الكبرى إلا ونرى لها تصويراً بديعاً في أعمال شيكسبير المهمة، والتي ثبت لها ما يشبه الاتفاق بين الباحثين جميعاً على أنها من أعمال شيكسبير وحده دون أن يشاركه فيها أحد سواه.

ولعل من طرائف التاريخ أن "الشك" في أعمال شيكسبير قد امتد إلى الشك في شيكسبير نفسه، فقال بعض الباحثين: إن الشخص المعروف باسم شيكسبير لم يكن هو أبداً الفنان الكبير الذي كتب كل المسرحيات الرائعة المنسوبة إليه، و لم يكن اسم شيكسبير إلا قناعاً يختفي وراءه شخص آخر لعله الفيلسوف والمفكر الكبير"فرانسيس بيكون"(١٥٦١-١٦٢٦) فقد كان بيكون من كبار الأرستقراطيين الأثرياء في عصره الذي هو نفسه عصر شيكسبير و لم يكن "بيكون" يستطيع بسبب مركزه الاجتماعي الرفيع أن يعلن للناس في صراحة أنه كاتب مسرحيات يقدمها الممثلون لتسلية الناس والترفيه عنهم، فذلك أمر لم يكن مقبولاً فيما يبدو من "السادة" الكبار في عصر شيكسبير، وكان كفيلاً بأن يسقط بمقام"بيكون" من مترلته الاجتماعية العالية إلى مترلة أدنى وأقل شأناً وقيمة، ولذلك فإن "بيكون" كتب معظم هذه المسرحيات كما يقال، ولكنه نسبها إلى شيكسبير لكي يحمي نفسه ومكانته الأرستقراطية من أن ينالها أي سوء .. وهذا الكلام الذي يردده بعض الباحثين في أمر شيكسبير قد وجد من يرد عليه ويثبت أن

نسبة الخطأ فيه عالية، وأن شيكسبير كان له وجود واقعي وأنه هو نفسه كاتب المسرحيات الشهيرة المنسوبة إليه.

على أن من الطريف في هذا المجال أن الذين يشكون في أن شيكسبير كان له وجود حقيقي، وأنه إذا كان موجوداً بالفعل فإنه لم يكن كاتب المسرحيات المنسوبة إليه، يقولون إن التوقيعات الباقية لشيكسبير من عصره وبخط يده هي"ستة" توقيعات، كل توقيع منها يختلف عن الآخر في "هجاء الحروف" اختلافاً واضحاً، ولو كان شيكسبير شخصاً حقيقياً كما تقول هذه الحجة الطريفة لكان له توقيع واحد بحروف هجائية واحدة، لا يختلف فيها أحد التوقيعات عن الآخر.

وهذه الحجة الطريفة وجدت ردوداً كبيرة عليها، فاللغة الإنجليزية في عصر شيكسبير لم تكن قد استقرت في هجاء الكلمات ولا في قواعدها استقراراً كاملاً.

وقد ولد شيكسبير في ٢٣ إبريل سنة ١٥٦٤ وتوفى ـــ وهذا من العجائب ـــ في ٢٣ إبريل سنة ١٦١٦، أي أن شيكسبير قد عاش في النصف الثاني من القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن السابع عشر، وفى تلك الفترة كانت اللغة الإنجليزية المكتوبة لا تزال في دور التكوين أي أن هجاء الحروف وقواعد الإملاء وقواعد النحو أو "الجرامر"كما يسميها الإنجليز و"الأجرومية" كما يسميها العرب القدماء، وفى اللفظين"جرامر ـــ أجرومية " تشابه فيه بعض الطرافة .. كان هذا كله في اللغة الإنجليزية في ذلك العصر غير مستقر على قواعد راسخة وثابتة، ومن هنا يكون من المقبول أن يكون شيكسبير قد وقع باسمه ستة توقيعات باقية إلى الآن وكل منها يختلف في هجائه عن الآخر، ولأن هجاء الحروف في اللغة الإنجليزية لم يكن قد استقر بعد.

وعندما يغرق الإنسان في البحث عن حقيقة شيكسبير بين المراجع الكثيرة والمتنوعة، وبين الآراء المتعددة والمتناقضة حول شخصيته وفنه مثلما غرقت أنا عندما كنت أجمع مادة هذا الفصل سوف يصاب الإنسان بكثير من الحيرة والارتباط. هذا إذا كان يريد أن يصل إلى حقائق ثابتة لا يأتيها الشك من هنا أو هناك، فكل حجة ضد شيكسبير لها أدلة غير قليلة، وكل حجة لصالحه لها أدلة أخرى غير قليلة، فماذا نصدق وماذا نترك؟ إن "دليل" الإنسان لابد أن يختار في هذا العالم الواسع الصعب ولكنني أؤثر السلامة لنفسي ولكل قارئ من القراء الأعزاء وأخرج من هذه الغابة المتشابكة من المعلومات حول شيكسبير بما هو متفق عليه بين الجميع، سواء اعترف هؤلاء بوجود شيكسبير، أم قالوا إنه كان موجوداً ولكنه كان شخصاً تافهاً لا قيمة له، وأن شخصاً آخر عظيم الأهمية استخدم اسمه ليقدم تلك المسرحيات الرائعة المنسوبة (خطأ) إلى شيكسبير، فهذا كله إبحار في بحر من الظلمات وهي مسألة متروكة لأهل التخصص الدقيق الذين يبحثون في مثل هذه الأمور العلمية الخالصة. أما الذي يعنيني، وأظن أنه يعني القارئ العزيز، هو الجانب الإنساني في الأعمال الفنية الرائعة المنسوبة لشيكسبير.

وقد اخترت أن يكون حديثي هنا عن وجه واحد لهذا الجانب الإنساني وهو تصوير شيكسبير للمرأة ، ففي مسرحياته ألوان وأصناف عديدة متنوعة من النساء وكل واحدة من هؤلاء النساء اللواتي قام شيكسبير بتصويرهن أحسن تصوير وأعمقه وأكثره إثارة للمشاعر والعواطف والانفعالات .. كل واحدة من نساء شيكسبير تكشف عن وجه عجيب وأصيل في الطبيعة الإنسانية التي لا تتغير من مكان إلى مكان ولا من عصر إلى عصر، وهذا هو سر بقاء هذه الشخصيات في

ذاكرة الإنسان جيلاً بعد جيل، بل إن بعض هؤلاء النساء قد خرج من دائرة المهتمين بالشعر والمسرح وسائر الفنون إلى الدائرة الشعبية بين الناس في العالم كله، وعلى سبيل المثال فإن شخصية "جولييت" في مسرحية "روميو وجولييت" أصبحت معروفة لجميع الناس في جميع أنحاء الأرض، سواء أكانوا من المهتمين بالثقافة والفنون أم غير المهتمين، وسواء قرأوا مسرحية شيكسبير أم لم يقرأوها، فشخصية "جولييت" مع حبيبها "روميو" هما مثالان خالدان مشهوران للحب المشتعل الذي لا تنطفئ نيرانه أبداً، برغم أن هذه النيران قد قضت على حياة العاشقين الشهيرين، وانتهت بهما وهما في عز حبهما وشبابهما إلى الموت، ولكنهما بعد أن ماتا عاشا من جديد حياة أخرى لا ينالها الموت من قريب أو من بعيد، فهما يعيشان في كل القلوب رمزاً للحب النقي الخالص الذي يصل إلى حد "الاستشهاد" في سبيل تلك العاطفة النقية الجميلة من عواطف الإنسان. ونساء شيكسبير الأخريات، وإن كن أقل شهرة من "جولييت"، هن رموز قوية وحية جداً لعواطف الإنسانية وتسيطر عليها، ونستطيع أن نقول ــ بغير أن نختار ــ إن شيكسبير أو من يحمل هذا الاسم ويختفي وراءه قد استطاع أن يفسر لنا كثيراً من وجوه النفس الإنسانية من خلال المرأة. وهذا اختيار صحيح ودقيق، فالمرأة هي الحياة، وهي مصدر الحياة للبشر جميعاً، وفي أخلاقها وعواطفها كل ما في الحياة من غموض وأسرار، وكل ما فيها من بهجة وأفراح، وكل ما فيها أيضا من أحزان وأشجان، والمرأة هي "المحرك" والدافع للكثير من أحداث الحياة الأساسية، وكل مبدع في فن من الفنون لابد أن يكون للمرأة مكان مهم في فنه، ومن خلال المرأة فإنه يستطيع أن يعبر عن كل شيء آخر، أي أنه ببساطة يستطيع أن يتحدث من خلال الناس وأسفلهم على السواء. وهو فنان لا يشعرك في أي مسرحية من مسرحياته بأنه يهتم قليلاً أو كثيراً بفن الكتابة،

وذلك لأن هذا الفن كان موهبة طبيعية فيه، حتى أنه لم يكن يفكر فيه أبداً، بل لقد كانت الكتابة شيئاً يسيراً هيناً عليه، بحيث أنه لم يكن يحس أنه صاحب تلك العبقرية النادرة التي يملكها بالفعل. ونواصل قراءة بعض ما كتبه ذلك الناقد الأمريكي "برتون راسكو" عن شخصية شيكسبير حيث يقول: كان شيكسبير يحتفظ لنفسه بشئونه الشخصية، وكان يستمع فيحسن الاستماع، وكان صاحباً حسن الصحبة، وكان رجلاً حاذقاً ماهراً عملياً لا يدع صغيرة ولا كبيرة في الحرفة التي اختارها وهي حرفة المسرح إلا اجتهد في أن يتعلمها وأن يلم بها.

وإشارة الناقد الأمريكي إلى حرفة شيكسبير تقودنا إلى توضيح لابد منه فقد كان شيكسبير يحترف المسرح بكل معاني "الحرفة المسرحية الكاملة" فهو لم يكن كاتباً للمسرحيات فقط بل كان مخرجاً وممثلاً، وكان ممن يمتلكون المسارح والفرق المسرحية أيضاً، فقد عاش "حياة المسرح" بكل وجوه هذه الحياة وظل كذلك حتى توقف عن كل شيء عندما بلغ الخمسين من عمره، وأراد أن يستريح في منزله الكبير الذي اشتراه في بلدته "ستراتفورد" وأن ينفض يديه من كل أعباء الحياة، ليعيش هادئ البال غير مثقل بشيء، بعد أن جمع ثروة واشترى بيتاً وكتب عشرات المسرحيات وأخرجها وقام بتمثيل الأدوار الرئيسية فيها، ولكنه لم يسعد بحياته الهادئة طويلاً، فقد مات بعد عامين، وهو في الثانية والخمسين من عمره، ويقول المؤرخون لحياته: إنه مات بعد ليلة سهر فيها داخل بيته في بلدته "ستراتفورد" مع عدد من أصدقائه الذين جاءوا إلى زيارته من العاصمة لندن، وفي هذه الليلة شرب الأصدقاء كثيراً وشرب معهم شيكسبير أكثر مما يتحمل أو يتحمل عمره، فأصيب في اليوم التالي بالحمى التي قضت عليه خلال أيام قليلة، حيث توفى – كما أشرت من قبل – يوم الثلاثاء ٢٣

إبريل سنة ١٦١٦، وهو نفسه يوم ميلاده في ٢٣ إبريل سنة ١٥٦٤، ودفن يوم الخميس ٢٥ إبريل، أي بعد يومين من الوفاة، في كنيسة بلدته، تقديراً له من أهل بلدته واعتزازاً به وبمكانته. وهذه المعلومات التي يقدمها إلينا الناقد الأمريكي"برتون راسكو" عن شيكسبير وشخصيته وحياته لم أجد ما يخالفها في كل المصادر التي قرأتها عن شيكسبير، فهي معلومات عليها اتفاق واجتماع. ومن هذه المعلومات المتفق عليها نخرج بالإجابة عن السؤال الذي طرحناه حول "نساء شيكسبير" اللواتي قدمهن في مسرحياته الشهيرة، وهل هن من النساء اللواتي عرفهن في حياته الشخصية واللواتي كان له بهن علاقة خاصة، أو "نساء شيكسبير" كن نساء رسم شخصياتهن من خياله، للتعبير عن تصوره ورؤيته للحياة الإنسانية؟! والإجابة عن هذا السؤال أصبحت واضحة الآن، وهي أن شيكسبير لم يكن من الفنانين المشغولين بالكتابة عن حياتهم الخاصة وتجاربهم الشخصية، بل كان فناناً موضوعياً، أي أنه كان يفكر في الحياة والناس "خارج دائرة نفسه" تماماً ولذلك فإن كل نساء شيكسبير في مسرحياته هن نساء ليس لهن به علاقة شخصية أو تجارب خاصة، وهذا يجعل من هؤلاء النساء متحفاً عامراً بالحياة والأفكار والمشاعر الإنسانية المتعددة المتنوعة وهذا أيضاً ما يغريني بالقيام برحلة فيها شيء من التفصيل مع نساء شيكسبير فلا شك أن هذه الرحلة سوف تكون ممتعة، وسوف تكون مثيرة لكثير من الأفكار والتأملات في معاني الحياة وأحوالها المختلفة، ولعل الذين يطالعون هذا الكتاب يجدون في هذه الرحلة ما وجدته فيها من متعة.

ولكننا قبل أن نتحدث عن نساء شيكسبير في مسرحياته، أو عن أهم هؤلاء النساء، وأكثرهن إثارة للأفكار والمشاعر، فلابد أن نقف وقفة أخرى في الفصل القادم من هذا الكتاب أمام النساء في حياته الشخصية، أي زوجته "آن هاتاوى" وابنتيه "سوزانا" و"جودث"

فهؤلاء النساء الثلاث هن المعروفات في حياة شيكسبير الخاصة به، ولا توجد منهن واحدة تشبه النساء اللواتي تحدث عنهن شيكسبير وصورهن في مسرحياته الرائعة المعروفة، وفى هذا دليل قوى آخر على أن شيكسبير كان موضوعياً في فنه كما قال عنه الباحثون والنقاد، أي لم يكن من الذين يتخذون الفن وسيلة للحديث عن أنفسهم وتجاربهم الخاصة والشخصية، وهذا الموقف الموضوعي يرتقى بصاحبه وبفنه، ويفتح أمامه أفاقاً واسعة للفهم أو الرؤية العميقة للحياة والإنسان، وقد امتلك شيكسبير، أو من نسميه باسم شيكسبير، هذه العناصر القوية جميعاً، ولذلك كانت نساؤه في مسرحياته مليئات بالحياة الباقية، والتي تملك القدرة على البقاء .. ما بقى في الدنيا فن جميل.

❖

زواج سعيد بالإكراه

الاسم الرئيسي الذي يدور حوله هذا الفصل هو اسم "**آن هاثاوى**" زوجة شيكسبير.

هل يمكن أن يتزوج الإنسان رجلاً كان أو امرأة بالإكراه؟!
نعم يمكن أن يحدث ذلك، بل كثيراً ما يحدث، وأكثر الظروف التي يحدث فيها ذلك هي الظروف التي تكون فيها التقاليد مسيطرة على الناس بحيث تكون الحرية الشخصية محدودة مقيدة، ومثال ذلك ما كان يحدث في ريفنا المصري حتى وقت قريب. فقد كانت هناك تقاليد يراعيها الجميع بصورة دقيقة، ويفقدون أمامها قدرتهم على الاختيار، فعندما تكون العائلة لديها أرض تملكها، وتحرص على ألا تضيع منها يكون المفروض على الشباب أن يتزوجوا من قريباتهم حتى تبقى الأرض للعائلة ولا تخرج من يديها عن طريق الميراث، وذلك مثال واحد من قيود كثيرة تحكم الزواج في البيئات الريفية. وفي مثل هذه البيئات قد لا يكون الرجل حراً في اختيار زوجته إلا إذا كان فقيراً ليس لديه شيء، فالفقر على ما يسببه من تعاسة لكل من يتعرض له فيه جانب واحد إيجابي، لأنه يحرر صاحبه من قيد الاختيار لشريكة حياته، ويبقى بعد ذلك للفقر قيوده القاسية العنيفة في سائر مجالات الحياة الأخرى.

وعندما نتأمل حياة عبقرية الأدب الإنجليزي والإنساني وليم شيكسبير "١٥٦٤ــ١٦١٦" سوف نجد أنه قد تزوج "بالإكراه" أي

تحت ضغط تقاليد. لم يكن يملك أن يخرج عليها أو يثور ضدها، فبلدته التي ولد فيها وعاش فيها أيام شبابه قبل أن يرحل إلى لندن ليقدم فيها فنه العظيم ويصبح من نجومها اللامعة بل ويصبح من نجـوم التـاريخ الإنساني كله جيلاً بعد جيل.. بلدة "شيكسبير"هذه اسمها "ستراتفورد" وكانت في أيامه أشبه بقرية كبيرة فالناس جميعاً فيها يعرفون بعـضهم البعض ولا توجد أسرار مهمة يستطيع أحد أن يخفيها عن الآخرين من المواطنين وفى هذه البلدة تقاليد أخلاقية تحكم الجميع وهذه التقاليـد أقوى من كل القوانين المكتوبة وأشد بأساً منها ولا يـستطيع أحـد الخروج عليها إلا إذا كان يريد أن يكون ملعوناً من الجميع.

وقد وقع "شيكسبير" في قفص التقاليد التي تحيط به في بلدتـه وأرغمته هذه التقاليد على أن يتزوج من امرأة مجهولة لم يثبت أبداً أنه كان يبادلها الحب، لا من جانبه ولا من جانبها أيضاً، ولا شـك أن "شيكسبير" بالتحديد كانت لديه فرصة للهروب من قفص التقاليد، إذ كان يملك موهبة فنية إلهية نادرة، وكان باستطاعته أن "يفر" من بلدته الصغيرة، وأن "يتنكر" للمرأة المجهولة التي أضطر إلى الزواج منها، وأن يحتمي بالشهرة التي حققها لنفسه، وبالثروة التي تمكن من تكوينها بعد نجاحه الفني، وكان هذا كله قادراً على أن يحميه من سطوة التقاليد في بلدته الصغيرة، وكانت المرأة المجهولة التي تزوجها سوف تعجز عـن اتهامه بأي شيء، فسوف تبدو ضعيفة وكاذبة أمام الرجل الذي تتهمه، فهو رجل تحميه شهرته وترفعه ثروته، ويعطيه ذلك كله من القوة مـا يتيح له أن يقول عن هذه المرأة: إنها كاذبة، وسوف يصدقه الناس في هذه الحالة، لأن الناس تصدق الأقوياء حتى لو كان هـؤلاء الأقويـاء كاذبين ؛ فالقوة حق أكبر من أي حق آخر، وحتى الذين يكرهـون الأقوياء فإنهم في مثل هذه المواقف لا يستطيعون التأثير عليهم، فما هي

قيمة اتهام رجل في شهرة "شيكسبير" وثروته بأنه اعتدى على امـــرأة مجهولة أو أساء إليها؟ ليس لمثل هذا الاتهام إذا تردد أي قيمة أو تأثير.

وهكذا.. كان "شيكسبير" يستطيع أن ينفض يديه من تقاليـــد قريته، ويترك المرأة المجهولة تخبط رأسها في ألف حائط وحـــائط بـــلا جدوى ولا نتيجة ولكن "شيكسبير"كان صاحب نفس طيبة كريمة إلى أبعد الحدود، وكان يتعامل مع شهرته ونجاحه وثروته على أنها أشياء لا يجوز لها أن تتحكم فيه أو تؤدى إلى تغيير شعوره بنفسه وحياته، فقد ظل "شيكسبير" بعد أن أصبح نجماً ساطعاً كما كان، وهـــو رجـــل مجهول لا يعرفه أحد وكانت صفاته الأساسية هي التواضع الحقيقـــي الذي لا افتعال فيه فلم يتسرب إليه الغرور أبداً، ولم يتعامل مع الناس على أنه أحسن مما كان عليه، وهو فقير مجهول، ولعله الرجل الوحيد في التاريخ الذي لم يعرف ولم يعلن أبداً أنه صاحب عبقرية نـــادرة لا مثيل لها، وقد كان بالفعل كذلك، ولكنه لم يشعر بشيء مـــن هـــذا المعنى، ولم يتصرف أبداً على أساس أنه "متميز" عن غـــيره بـــصورة استثنائية وأغلب الظن أن "شيكسبير" قد مات وهو لا يدرك أنه أحد عباقرة الدنيا المعدودين القلائل، فقد ظل في حياته يتعامل مع نفـــسه ومع الناس جميعاً على أنه إنسان عادى جداً، وكان - مع الجميـــع - لطيفاً وديعاً مجاملاً يحرص على مشاعرهم، ويستمع إلـــيهم في مـــودة ولطف، ولا يتصرف معهم أبداً على أنه أفضل منهم، وأعلى منزلـــة، وهذه النفس الكريمة هي التي ألزمته ـــ قبل التقاليد والقوانين ـــ بـــأن يتعامل باحترام وأمانة مع المرأة المجهولة التي دخلت حياته، فلم ينـــدفع إلى التخلي عن هذه المرأة ولم يتجاهلها، ولكنه على العكس أعطاهـــا كل ما تحتاج إليه وما تستحقه من عناية واهتمام.

وقصة هذه المرأة المجهولة حدثت في حياة "شيكسبير" بسبب غلطة ارتكبها معها بعد أن تعرف عليها، وكان على شيكسبير "أن يصلح غلطته" كما تعودنا أن نقول في مثل هذه المواقف وكان "إصلاح الغلطة" هو الزواج من هذه المرأة، فليس هناك إصلاح لمثل هذه "الغلطة" إلا الزواج، ولم تكن الدنيا في عصر شيكسبير قد عرفت الأساليب الحديثة للتستر على مثل هذه "الأغلاط" وإخفائها، فلا الطب كان قادراً – كما هو الأمر الآن – على إعادة غشاء البكارة إلى وضعه الطبيعي بعد "فض" هذا الغشاء، ولا كانت هناك حبوب لمنع الحمل، ولا كان "الإجهاض" أمراً ممكناً أو مباحاً من الناحية الدينية والأخلاقية والاجتماعية. ولم يكن أمام شيكسبير سوى أن "يصلح غلطته" بالزواج، أو أن يترك المرأة التي ارتكب معها هذه الغلطة لتتعرض للفضيحة القاسية بين الناس، وقد كان شيكسبير من القادرين على تحمل المسئولية، وعدم التهرب منها، فاختار إصلاح غلطته بالزواج، ورفض الهروب والتخلي عن تلك المرأة التي دخلت حياته بالصدفة.

وقصة هذا الزواج لها تفاصيل كثيرة تساعدنا على فهمها وتفسيرها، فقد كان شيكسبير في الثامنة عشرة من عمره عندما تزوج من امرأة مجهولة اسمها "آن هاثاوي" وكان هذا الزواج غريباً في عدة أمور: الأمر الأول هو أن الزوجة آن كانت تكبر شيكسبير بثماني سنوات، فقد كانت في السادسة والعشرين من عمرها، بينما كان شيكسبير كما سبقت الإشارة – في الثامنة عشرة. والأمر الثاني هو أن الزوجة قد أنجبت ابنة شيكسبير الأولى "سوزان" أو " سوسانا" حسب هجاء الاسم المسجل لهذه الابنة في شهادة ميلادها الباقية إلى الآن وهو Susanna، وربما كان الأقرب إلى هذا الاسم هو "سوسن" هذه الابنة

الأولى ولدت في ٢٦ مايو سنة ١٥٨٣، بينما كان تاريخ زواج شيكسبير هو ٢٨ نوفمبر أي أن الابنة الأولى قد ولدت بعد ستة أشهر فقط من تاريخ الزواج، وهذا معناه أن شيكسبير قد بدأ علاقته مع زوجته قبل تاريخ الزواج الرسمي بثلاثة أشهر على الأقل، مما يدل على أن الزواج قد تم تحت تأثير ما يمكن أن نسميه بالغلطة التي وقع فيها شيكسبير. ومن الأمور الغريبة في هذا الزواج أيضاً أنه لا يوجد ما يثبت أن هذا الزواج قد تم برضاء الأهل..أهل شيكسبير أو أهل الزوجة، ومن علامات الاستفهام حول هذا الزواج كذلك أن الشاهدين عليه كانا اثنين من وجهاء الفلاحين في بلدة شيكسبير وهى "ستراتفورد" وهما: "ريتشاردسون" و"ساندلر" وقد جاء في وثيقة الزواج المحفوظة إلى الآن أن الشاهدين يتحملان أية مسئولية قد تقع على عاتق"القسيس" الذي عقد هذا الزواج، وأنهما مستعدان للدفاع عن"القسيس"وعن أفراد كنيسته إذا تعرضوا لأي نوع من المساءلة بسبب عقدهم لهذا الزواج، وهنا نتساءل نحن عن نوع المشكلة التي أدت إلى خوف "القسيس" ومساعديه من عقد هذا الزواج، وحرصهم على أن يكون هناك شاهدان لهما وزن في البلدة يوقعان على عقد الزواج ويتحملان أية مسئولية قد تترتب عليه، وفى حدود المعلومات المتاحة لابد أن يكون هذا الزواج محفوفاً بمشاكل من نوع عدم موافقة أهل الزوجين عليه،كما أن من الواضح أن ظهور علامات الحمل الأولى على الزوجة قبل تسجيل عقد الزواج كان مصدرا لمشكلة أخرى، ومن هنا كان شعور"القسيس" ومساعديه بضرورة "الحذر" وحرصهم على أن يكون هناك شاهدان قويان مسئولان يوقعان على العقد ويضمنان سلامته وصحته وعدم مخالفته لأي قوانين دينية أو مدنية.

وهذا كله يؤدى بنا إلى النتيجة التي لا يمكن الخروج بغيرهـا، وهى أن زواج شيكسبير كان نوعاً من الزواج "بـالإكراه" ولكنـه "إكراه" ارتضاه شيكسبير وسعى إليه ووجد أن الـشرف والرجولـة يقتضيان منه ألا يهرب من هذه المرأة بعد "غلطته" معها، والـتي أدت إلى حملها ابنته الأولى، فلم يتردد في الزواج بتلك المرأة، دون أن ينتظر موافقة أهلها أو رضا والديه، أو غير ذلك مما هو ضروري في مثل هذه الحالات، وخاصة في عصر شيكسبير ولعل شيكسبير كان على يقـين بأن الأهل لن يوافقوا على هذا الزواج، بسبب فارق السن بين زوجته وبينه على الأقل، ولذلك لم ينتظر شيكسبير موافقة الأهل وسـعى إلى عقد الزواج وتحمل مسئوليته بنفسه. أما الفلاحان الوجيهان اللـذان شهدا على العقد فلا شك أنهما لم يفعلا ذلك من باب الشهامة فقـط وإنما فعلاه لأنهما كانا يثقان بشيكسبير وأخلاقه ورجولته، وبأنه ليس من العابثين الذين يريدون التستر على"فضيحة"وقع فيها وأوقع معـه زوجته، بل هو شاب جاء يريد أن يتحمل المسئولية وألا يهرب منها، ولذلك رضي الشاهدان أن يساعداه ويقفا إلى جانبه، فتقدما في رضاء وحماس إلى التوقيع على عقد الزواج برغم أن "القسيس" فرض علـى الشاهدين أن ينصا على أنهما يتحملان أية مسئولية قد تنتج عن هـذا الزواج وتترتب عليه.

ولكن ما الذي حدث بعد هذا الزواج الذي تؤكد كل الدلائل على أنه قد تم بالإكراه؟ هل جلس شيكسبير يندب حظه، ويلعن الأيام ويعاقب زوجته ويسيء معاملتها بسبب ما حدث؟

لم يفعل شيكسبير شيئاً من ذلك، بـل حـاول أن ينظـر إلى الجانب الإيجابي في هذا الزواج، ورضي به تمام الرضا، و لم يفكر طوال حياته أن يرتبط بامرأة أخرى، و لم يسع إلى الطلاق من زوجتـه، و لم

يذكر أي مؤرخ اسم امرأة ثانية كان لها في حياته دور ظاهر أو خفي، فقد بقي شيكسبير متزوجا من تلك المرأة المجهولة "آن هاثاوي" حتى نهاية حياته، وأصبحت هذه المرأة بفضل ارتباطها بشيكسبير امرأة لها ذكر في التاريخ، فبيتها الذي كانت تملكه أصبح متحفاً يزوره السائحون من كل أنحاء الأرض وهو معروف باسم "كوخ آن هاثاوي" أي أن هذه المرأة المجهولة قد دخلت التاريخ لا لشيء إلا لأنها كانت "زوجة شيكسبير" ولو أن شيكسبير قد تمرد على هذا الزواج ونفض يده منه بصورة أو بأخرى، لكانت هذه المرأة الآن نسياً منسيا، ولكان التاريخ قد أهملها إهمالاً كاملاً.

وهناك دليل قوي آخر على أن شيكسبير قد حاول جهده أن يجعل من هذا الزواج الذي تم بالإكراه زواجاً عادياً طبيعياً خالياً من الندم والنكد، فهو أمر واقع في حياة شيكسبير، وهذا الفنان العبقري صاحب نفس راضية لا يبحث عن المستحيل ولا يحب معاندة الحياة، وهو ليس من النوع الذي يبكي على حظه، ويقول لنفسه: لقد كانت حياتي يمكن أن تكون أفضل وأسعد لو لم أتزوج هذه المرأة فقد "ادخر" شيكسبير كل ما يملك من قوة لفنه، ولم يجعل من هذه القوة مجرد خادمة لحياته الشخصية، مما كان يمكن أن يبدد جهده في أوهام لا تجدي ولا تفيد، فينفصل عن زوجته بالطلاق إن استطاع أن يحصل عليه، أو ينفصل عنها انفصالاً عملياً إن لم يستطع أن يحصل على الطلاق لصعوبته في المسيحية، ثم يبذل جهوداً للارتباط بامرأة أخرى بطريقة شرعية أو طريقة غير شرعية. وكل هذا سوف يستهلك طاقته وجهده وعصارة عقله وأعصابه وسنوات عمره، ثم تكون النتيجة أن يكتشف أن "تمرده على زوجته" لم يمنحه شيئاً ذا بال سوى الارتباط بامرأة أخرى، وقد يحس بمرور الوقت أنه ضاع جهده في تغيير حياته

الشخصية دون جدوى، في الوقت الذي هو فيه بحاجة إلى أن يصرف هذا الجهد في فنه وعمله، فلم يكن شيكسبير من الذين يخلقون لأنفسهم مشاكل ثانوية أو وهمية تشغلهم عن بذل جهدهم الأساسي فيما هم مؤهلون له من عمل، وقد كان شيكسبير مؤهلاً — بعبقريته للفن وكان من الذين يمتلكون نفسية واضحة مستقيمة، ولذلك فقد طرح وراء ظهره موضوع زواجه من تلك المرأة المجهولة، واعتبر هذا الزواج أمراً طبيعياً فيه كل ما في "الزواج" من "خير وشر" وإذا استطاع الإنسان أن يقتنع بذلك اقتناعاً صادقاً لا خداع فيه فإنه لن يثور على حياته الخاصة ولن يقع في أوهام تدفعه إلى تغييرها وتبديلها بحثاً عن سعادة خيالية ضائعة منه لأنه لو فعل ذلك فسوف يجرى ويلهث ثم ينتهي في آخر الأمر إلى الوضع الذي كان يهرب منه. ولم يكن شيكسبير من أصحاب هذه النفوس المرتبكة فقد كان يعطى للحياة الخاصة والشخصية حجمها الذي لا ينبغي أن تزيد عليه أو تتجاوزه وقد أتاح له ذلك أن يعطى جهده الأساسي لفنه الرائع ولذلك كان من أغزر الفنانين على مدى التاريخ كله إنتاجا فقد ترك وراءه حوالي أربعين مسرحية ويحددها البعض برقم ٣٨ أو ٣٧ مسرحية فقط، وهذه المسرحيات لا تزال في معظمها من الأعمال الفنية التي تشغل الناس بجمالها الشعري الفاتن وتصويرها العميق لصراعات الحياة والنفس الإنسانية. وإذا عرفنا أنه لم يبدأ كتابة مسرحياته إلا بعد أن وصل إلى الثلاثين من عمره تقريباً وأنه توقف عن الكتابة وهو في حوالي الخمسين ومات وهو في الثانية والخمسين فإن معنى ذلك كله أنه كتب حوالي أربعين مسرحية في حوالي عشرين سنة ولم تكن هذه المسرحيات متوسطة أو دون المتوسطة بل كانت مسرحيات من الدرجة العالية في فنها الجميل وفلسفتها العميقة وتصويرها البديع لأسرار النفس والحياة. وهى بالطبع مسرحيات تختلف في درجة قيمتها

وأهميتها ولكن ليس بينها مسرحيات تافهة أو سطحية أو صادرة عن ذهن مضطرب ونفس مشغولة بأمور ثانوية ومرتبكة ومليئة بالاضطراب والتشتت وهذا كله يعني أن شيكسبير كان يعطي جهده لأعماله الفنية ويقوم بالتركيز الشديد على هذه الأعمال دون أن يشغل نفسه بأمور ثانوية أخرى فجاءت أعماله فريدة ومثيرة للاهتمام من حيث الغزارة والكمية ومن حيث القيمة والأهمية ولا يمكن أن يتاح هذا التوفيق الكبير لشيكسبير أو لغير شيكسبير دون أن يكون هناك تركيز شديد على العمل الأساسي وليس على شيء سواه. فقد عاش شيكسبير حياته الخاصة في اعتدال وتقبل زواجه من امرأة مجهولة اضطر إلى الزواج منها بسبب غلطته في شبابه الأول معها وذلك دون أن يجعل من هذا الزواج مأساة ودون أن يفرض على نفسه خوض معركة ضد هذا الزواج تؤدي إلى "استهلاك" قوته الفنية والفكرية وتدفعه إلى تشتيت أفكاره ومشاعره بسبب مثل هذه المعركة التي لا جدوى منها ولا قيمة لها. لقد تقبل شيكسبير واقع حياته الشخصية ولم يتوقف طويلاً ليحسب نسبة النجاح فيها ونسبة الخيبة والإحباط واقتنع بأن حياته الزوجية وإن لم تحقق له السعادة المثالية فإن ما فيها من استقرار يكفيه لكي يتجه بكل نشاطه إلى فنه ليقدم أهم ما لديه ولعل شيكسبير كان مقتنعاً بما ينبغي أن يقتنع الناس جميعاً به وهو أن السعادة المثالية في الحب والزواج والعلاقات الأخرى من صداقة وعمل وغير ذلك .. هذه السعادة المثالية المطلقة النهائية التي ليس فيها خدش واحد هي وهم والذي يبحث عنها بهذه الصورة ويجري وراءها إنما يبحث عن سراب ويجري وراءه، أي أنه يطلب شيئاً لا يمكن أن يتحقق بهذه الصورة الكاملة. فالحياة نفسها ناقصة وغير كاملة فكيف نطلب الكمال مما تقدمه الحياة لنا في جوانبها المختلفة بعد ذلك؟

دخل شيكسبير دنيا الزواج "متورطاً" وتزوج من المرأة المجهولة "آن هاثاوى" التي تكبره بثماني سنوات وتزوجها بعد غلطتــه معهــا ودون أن يتردد في إصلاح هذه الغلطة وبعد ذلك كله أستقر في زواجه وأنجب من زواجه ابنتين وولداً، أما الابنتان فهما "سوزانا" التي أشرنا إليها ثم "جودث" أما الابن فهو "هامنت" على وزن "هاملت" ومعــنى إنجاب الأبناء الثلاثة من هذا الزواج إنه كان زواجاً يحمل نسبة معقولة من الاستقرار. صحيح أن المؤرخين يــسجلون أن حيــاة شيكــسبير الزوجية لم تكن تخلو من الخصومات والمشاحنات الحادة بينه وبــين زوجته وأن هذا التوتر الزوجي كان من أسباب اتجاه شيكسبير إلى السفر من بلدته "ستراتفورد" إلى العاصمة لندن ابتعاداً عن خــصوماته مع زوجته وبحثاً عن حظ أوسع في الحياة وعن ظروف أفضل للعمــل والنجاح. وقد ترك شيكسبير بلدته وسافر إلى لندن وهــو في الثانيــة والعشرين من عمره أي بعد أربع سنوات من الزواج وبرغم هذا فــإن تاريخ شيكسبير ليس فيه انفصال عن زوجته ولا ارتباط بامرأة أخرى معروفة وعلى العكس من ذلك ظل الزواج قائماً حتى وفاة شيكــسبير سنة ١٦١٦ وهو في الثانية والخمسين من عمــره وعــندما كــتب شيكسبير وصيته لم ينس زوجته فأوصى لها ببعض ما يملك كمــا أن هذه الزوجة التي توفيت بعد شيكسبير بسبعة أعوام أي سنة ١٦٢٣ قد ظلت تعيش في البيت الذي كان يملكه شيكسبير ويعيش فيه وعنــدما ماتت تم دفنها إلى جانب شيكسبير في نفس المقبرة وهذا كله فيه دليل على أن زواج شيكسبير قد استمر طبيعياً برغم ما كان فيه من مشاكل منذ البداية.

ومن الواضح أن الزوجــة "آن هاثــاوى" لم تكــن مهتمــة بشيكسبير كفنان عبقري نادر المثال بل كان اهتمامها محــصوراً فيــه

كرجل وزوج ووالد لأبنائها أي أن هذه الزوجة لم تكن مهتمة بفن زوجها و لم تكن مصدراً من مصادر إلهامه، على أن ذلك لم يزعج شيكسبير على الإطلاق و لم يثبت أنه اشتكى من ضعف الصلة بين زوجته وبين فنه. فهذا العبقري الفنان كان واقعياً جداً في نظرته إلى حياته الخاصة فهو يريدها أن تبقى في حدودها ويريدها أن تكون على ما هو عليه فهو في بيته زوج وأب وليس عبقريا يطلب في استبداد وطغيان وعصبية أن يكون موضع إعجاب الجميع وموضع مدحهم المستمر وتدليلهم الدائم له. فالذين يذهبون إلى بيوتهم ليجلسوا على عرش يدور حوله الجميع يخطئون ويفرضون على كل من هم حولهم فروض الطاعة والولاء بغير ضرورة ولا مبرر. كن عبقرياً في عملك أو شخصية مهمة هنا أو هناك بما تملك من ميزات وجهود تبذلها ولكن عندما تعود إلى بيتك وعائلتك فعليك أن تعيش كإنسان طبيعي يتعامل مع الذين حوله تعاملاً هادئاً يسيرا بسيطا لا تكلف فيه. وهكذا كان شيكسبير يتصرف كما أتصور فلا شيء في حياته يدل على أنه كان من أهل الغرور لا في البيت ولا مع أصدقائه وزملائه وسائر الناس الآخرين وفيها كثير من المعاني الطيبة التي تثبت أن هذا الفنان العبقري كان حريصاً على أن يعيش حياة عادية و لم يكن ينظر إلى نفسه على أنه استثناء بين الناس و لم يكن يطلب من أحد أن ينظر إليه هذه النظرة أي أن عبقرية شيكسبير لم تصنع أي نوع من "الاهتزاز" في شخصيته و لم تغير من رغبته في أن يبقى بين أهله وغير أهله إنسانا عادياً طبيعياً لا غرابة فيه ولا استثناء له.

على أننا سوف نجد في أدب شيكسبير ما يدل على أن قلبه كان قد مال إلى امرأة سمراء و لم يعرف المؤرخون شيئاً عن هذه المرأة السمراء و لم يجدوا دليلاً على هذا الحب سوى قصائد شيكسبير

المعروفة باسم "السونيتات" وهى الكلمة التي يترجمها الشاعر والأديب العربي الكبير الراحل عبد الرحمن صدقي بكلمة "الموشحات" لأن "سونيتات" شيكسبير قريبة في شكلها الفني من القصائد العربية الأندلسية المعروفة باسم "الموشحات" وقد أصبحت "المرأة السمراء" التي كان يتغزل بها شيكسبير في قصائده المسماة باسم "السونيتات" لغزاً من الألغاز الكثيرة المثيرة للحيرة في تاريخ شيكسبير وأدبه ولنا مع هذه "المرأة السمراء" حديث آخر إن شاء الله. ولا شك أن حكاية "المرأة السمراء" وغيرها من الحكايات المتصلة بشيكسبير تؤكد أن هذا الفنان العظيم العبقري كان يشبه الحياة نفسها فهو واضح ولكنه غامض وسهل ولكنه صعب وممتع ولكن فيه عذاباً لا شك فيه لأنه يكشف لنا أشياء ممتعة وأشياء قاسية وقد صدق الشاعر والناقد الإنجليزي الكبير "ماثيو أرنولد" "١٨٢٢-١٨٨٨" عندما قال في قصيدة له عنوانها "شيكسبير":

"هناك آخرون يجيبوننا حين نسأل

أما أنت فحر طليق

نسأل ونسأل

وتبتسم أنت وتظل صامتاً أيها المعرفة الشامخة"



عاشق المرأة السمراء

أهم الأسماء الواردة في هذا الفصل هي:

آن هاثاوي – زوجة شيكسبير

بيرون – بطل مسرحية شيكسبير "خاب سعى العشاق"

السيدة **"فيتون"** – وهي شخصية نسائية يقول بعض الباحثين إنها هي السيدة السمراء التي أحبها شيكسبير وعبر عن حبه لها في قصائده الغنائية المعروفة باسم "سونيتات" وقد ترجمها إلى العربية ترجمة كاملة وجميلة الشاعر بدر توفيق.



الحب هو فن الحياة فلولا الحب لكانت الحياة خالية من المتعة وأصبحت عملاً شاقاً متصلاً يقوم به الإنسان حتى يقطع الرحلة بين الميلاد والموت. وبدون الحب كان يمكن للإنسان أن يكون فيلسوفاً أو عالماً أو صانعاً أو زارعاً أو كائناً قادراً على الاختراع والاكتشاف، ولكن من الصعب أن نتصور-بغير الحب-وجود الموسيقى والرسم والشعر والغناء، فالنبع الأساسي لكل هذه الفنون هو الحب وعندما نتخيل صورة الحياة بغير الحب فإن هذه الحياة تكون مثل أوراق الخريف ذابلة وصفراء وعلى وشك السقوط فوق الأرض لكي تتلاشى وتموت.

وهناك تعريف مشهور للإنسان هو التعريف الذي حدده الفيلسوف اليوناني "أرسطو" حيث يقول: "إن الإنسان هو حيوان ناطق" أي أن "اللغة" عند هذا الفيلسوف الكبير هي التي حددت الفارق بين الإنسان والحيوان، ولولا اللغة لكان الإنسان حيواناً فقط، واللغة دون شك علامة مهمة من علامات الإنسانية وهى ميزة واضحة ترفع الإنسان على غيره من الكائنات ولكن أليس من الصحيح أيضاً أن نقول إن الحب هو علامة أساسية أخرى من علامات الوجود الإنساني بحيث نستطيع على ضوء هذه الحقيقة إن نقول أن الإنسان هو

"حيوان عاشق" كما قال أرسطو عنه "حيوان ناطق" ؟! لا شك أننا نستطيع أن نقول ذلك باطمئنان ! فالحب ظاهرة إنسانية أساسية ويندر أن يوجد على ظهر الأرض إنسان لم يعرف الحب وقد يخفي الإنسان حبه عن الناس ولا يبوح به لأحد وقد يتعامل الإنسان مع الحب تعامله مع سر من أسراره الخاصة التي لا يرضى بأن يكشفها لغيره ولكن أن يعيش الإنسان بغير "حب" فذلك أمر من الصعب أن يتصوره العقل وقد يحب الإنسان وهو لا يدرى أنه يحب فالبعض يتصورون أن عاطفة الحب حين تتحرك في قلوبهم إنما هي شفقة على الآخرين أو هي رغبة في حمايتهم أو هي ميل إليهم نتيجة الألفة والعادة ولكن ذلك كله هو في أصله حب و إن أخذ على لسان صاحبه أو على لسان الناس أسماء أخرى مختلفة.

ولا شك أن هناك نوعاً من الناس استطاع أن يفرض على نفسه الامتناع عن الحب وهذا الموقف ليس إلا صورة من صور "الإضراب" عن تلك العاطفة التي لا غنى عنها ولا معنى للحياة بدونها ، والمضربون عن الحب ليسوا دليلاً على عدم وجود الحب بل هم دليل على الخوف من الحب والإحساس بأنه متعة فيها عذاب وقلق. وهؤلاء المضربون عن الحب يشبهون الزاهدين والمتصوفين الذين نفضوا أيديهم عن أمور الدنيا الواقعية وعكفوا؛ على الأمور الروحانية لأنهم يجدون فيها الراحة والسعادة والخلاص من متاعب الحياة فهم يرفضون الحياة خوفاً على صفاء أرواحهم من الاشتباك في معارك مختلفة لا تتحملها تلك الأرواح الصافية. فالإضراب عن الحب لا يعنى إنكار وجوده بل هو يعنى مقاومة الحب والمحاولة القوية للابتعاد عما قد يترتب عليه من عناء وعذاب.

ومصدر الحب في الحياة وفى النفس الإنسانية هــو الجمــال. والجمال موجود في الدنيا على نطاق واسع ولكن الجمــال لا يمكــن تحديده بأوصاف واحدة تنطبق على كل ما هو جميل وذلك لأن العيون والأذواق والبيئات والظروف تختلف عن بعضها البعض فلكل عــين "جمالها" الخاص بها حسب ذوقها وتربيتها وما تعودت عليه من أحوال الحياة المختلفة. والجمال في الإنسان يرتبط في أكثر جوانبــه ومعانيــه بالمرأة ، والمرأة هي موضوع الجمال في معظم الأحوال وهــي أصــل الحب الذي يملأ القلوب وتعبر عنه الفنون المختلفة مــن الموسيقى والرسم والشعر وغير ذلك وليس معنى هذا أنه ليس هنــاك "جمــال رجالي" فالرجال أيضاً لهم "جمال" خاص بهم ولكن الإنسان منذ ظهر إلى الآن خلق لنفسه تقليداً لم يتغير إلا في أضيق الحدود وهو أن يكون الرجل هو الذي يستطيع التعبير في صراحة عن حبه وإعجابه بالجمال أما المرأة فتكتم عواطفها ولا تبوح بها في شكل صريح وعلني . ففــي قوانين الحياة التي هي سر من أسرار الطبيعة تكون المرأة هي المطلوبــة وعلى الرجل أن يسعى وراءها ويعلن عن عواطفه نحوها وبذلك يمكن الوصول في النهاية إلى تلك اللحظة التي تقول فيها المرأة نعم لمن يطلبها ويتغنى بها ويسعى إليها . فكأن المرأة قد وضعتها الطبيعة في موضــع "الجائزة" لمن يجتهد من الرجال في فهمها واكتشاف أســرار جمالهــا. فالمرأة لا ترضى أبداً أن تعطى قلبها إلا إذا كانت واثقة أن عواطــف الرجل نحوها صادقة ولهذا كله كان الكتمان عند المرأة هــو فــضيلة أساسية بينما أصبح التصريح بعاطفة الحب مباحاً للرجل ومــن هنــا كانت فنون الإنسان في معظمها هي فنون يبدعها الرجال وإن كانت المرأة تقوم فيها بدور البطولة دائماً.

وفى رحلتنا التي بدأناها مع الشاعر الانجليزي العــالمي ولــيم شيكسبير ودور المرأة في حياته وأدبه تناولنا قصة زواجــه مــن "آن

هاثاواي" في فصل سابق من الكتاب. فهل كانت هذه الزوجة هي المرأة الوحيدة في حياته؟ ذلك سؤال يطرحه الباحثون حول شيكسبير ومثل الكثير من الأمثلة المطروحة حول هذه العبقرية العجيبة فإن الإجابة تبدو غامضة وبعيدة عن الوضوح. والعديد من الأسئلة التي تدور حول شيكسبير لا تجد لها إجابة دقيقة قائمة على أدلة ثابتة . فكثير من أمور شيكسبير الخاصة به تبدو غامضة يلتف حولها ضباب كثيف والشيء الوحيد الواضح في حياته هو أعماله المسرحية المليئة بالفهم العميق للصراعات الإنسانية المختلفة ثم قصائده المعروفة باسم "السونيتات" أو "الموشحات" كما يحب الأستاذ العقاد أن يسميها في كتابه الجميل الذي يحمل عنوان "التعريف بشيكسبير".

وشيكسبير في كل ما كتبه عن الحب يثبت انه يعرف الكثير من أسرار هذه العاطفة الإنسانية الخالدة فهل يمكن أن تكون هذه المعرفة الواسعة صادرة عن قلب هذا العبقري وعقله دون أن يكون هو نفسه قد عرف لهيب الحب واكتوى بناره ؟

إن علاقته بزوجته تؤكد في كل تفاصيلها المتاحة لنا أنها كانت علاقة غير قائمة على حب كبير ولكن هذه العلاقة كانت علاقة زوجية عادية وباردة وتقليدية وليس وراءها عاطفة مشتعلة ، وقد تزوج شيكسبير وهو في الثامنة عشرة من عمره وبقى مرتبطاً بزوجته حتى انتهت حياته وهو في الثانية والخمسين، وكانت الزوجة تكبره بثماني سنوات و لم تنعكس علاقته بزوجته على أي مسرحية من مسرحياته ولا أي قصيدة من قصائده. فلابد إذن أن يكون هناك سر آخر من أسرار قلب شيكسبير قد أنعكس على فنه وساعده على أن يكتب عن الحب بهذا العمق الذي نجده في كثير من أعماله فإذا بحثنا في سيرة حياة شيكسبير فإننا لا نجد ما يساعدنا على اكتشاف هذا السر

الجميل ولكن الباحثين يقفون أمام "المرأة السمراء" التي وردت الإشارة إليها مراراً في قصائد شيكسبير المعروفة باسم "السونيتات" أو "الموشحات" وقبل أن نتحدث عن هذه المرأة السمراء فإننا لا بد أن نتوقف عند إعجاب شيكسبير باللون الأسمر ففي عدد من مسرحياته نجد أنه يربط بين هذا اللون وبين جمال المرأة فهو يعبر عما يكشفه هذا اللون من الجمال النسائي إلى حد قد يساعدنا على القول بأن "المرأة السمراء" هي المثل الأعلى في الجمال عند شيكسبير ففي مسرحيته "خاب سعي العشاق" يتحدث أحد أشخاص المسرحية وأسمه "بيرون" عن "حبيبته السمراء" حديث العاشق الولهان المفتون باللون الأسمر دون سواه فهو يقول عن هذه المحبوبة "من ترجمة الدكتور لويس عوض للمسرحية صفحة ٧ وما بعدها": "إن محبوبتي فوق كل مديح وكل مديح يسيء إليها لأنه يبدو أقل قيمة من جمالها الكامل ولو "أن ناسكاً زاهداً إلى عامه المائة تطلع إلى عينيها لارتد إلى عامه الخمسين. فرؤية الجمال تجدد العمر وترد الشيخ طفلاً وليداً بل وتجعل اللحد مهداً جديداً. إن محبوبتي هي الشمس التي يستمد منها كل شيء نوره.

هذا هو ما يقوله العاشق "بيرون" عن حبيبته في مسرحية "خاب سعي العشاق" و"بيرون" في المسرحية هو أحد الأشراف الذين يعيشون في بلاط ملك اسمه "فرديناند" وعندما يستمع الملك إلى قول العاشق في وصف حبيبته يقول الملك مندهشاً ومستنكراً: "قسماً بالله إن حبيبتك هذه سمراء مثل الأبنوس!" والأبنوس كما هو معروف لونه أسمر ومن الواضح أن الملك "فرديناند" هنا يستنكر على الشريف "بيرون" الذي يعمل في بلاطه أن يقع في حب امرأة سمراء مثل الأبنوس وهنا يرد العاشق "بيرون" على الملك في حماس عاطفي واضح فيقول :

"هل الأبنوس مثل حبيبتي ؟ إذاً فالأبنوس خشب مقدس. إن زوجة من "الأبنوس" هي السعادة بعينها! وأقسم أن أي حسناء سوف تكون عاطلة من أي جمال إذا هي لم تتعلم من محبوبتي كيف تسبل جفونها لتصرع الرجال وما من وجه يتحلى بالجمال إلا إذا كان في لونها الأسمر" .

هذا نموذج مما جاء من إشارات عديدة إلى "اللون الأسمر" والإعجاب به إلى حد الفتنة في عدد من أعمال شيكسبير الفنية ولكن الإشارة الأساسية إلى "المرأة السمراء" جاءت في قصائد شيكسبير المعروفة باسم "السونيتات"ويلخص لنا الباحث الناقد الفلسطيني "جريس القسوس" في دراسته القيمة التي تحمل عنوان "عبقرية شيكسبير" كل ما جاء على لسان الباحثين عن شيكسبير حول هذه السيدة السمراء فيقول "صفحة ٢٠٨":

"يعتقد طائفة من مؤرخي الأدب أن شيكسبير قد تقابل في حياته مع سيدة سمراء ووقع في حبها ويرى البعض أن هذه السيدة السمراء اسمها "ماري فيتون" والدليل على ذلك أن الصفات التي ينسبها شيكسبير في قصائده إلى الحبيبة السمراء كانت كلها معروفة عن السيدة "فيتون" هذه ومن بين هذه الصفات الذكاء النادر وسرعة البديهة والثقافة الفنية العالية وصفة أخرى عجيبة هي الأنوثة المسترجلة!!.

ثم يقول الباحث بعد ذلك :"إن طائفة أخرى من النقاد والدارسين تنفي أن تكون السيدة "فيتون" هي الحبيبة السمراء التي تغنى بها شيكسبير وكشف عن مشاعر الحب لها والإعجاب بها في قصائده المعروفة باسم "السونيتات" فالتاريخ والرواة لا يذكرون أن هذه السيدة

المعروفة في عصرها كانت على علاقة مع شيكسبير وهم يعللون حديث شيكسبير عن المرأة السمراء بأنه كان يميل إلى اللون الأسمر في النساء ويفضله على غيره كما تدل على ذلك إشاراته الكثيرة في بعض مسرحياته فلا عجب أن يتردد هذا الميل نفسه في قصائده العاطفية أو السونيتات أيضاً".

هذا ما يقوله مؤلف "عبقرية شيكسبير" عن علاقة شيكسبير بالمرأة السمراء وهو خلاصة لما قاله الباحثون عن هذه العلاقة فما هي الحقيقة ؟

لقد كان شيكسبير في قصائده العاطفية أو "السونيتات" يعبر عن حب مشتعل لامرأة سمراء ولكنه لا يشير في هذه القصائد إلى تفاصيل واقعية مثل اللقاءات بينه وبين حبيبته أو غير ذلك فهذه القصائد كلها قصائد غنائية أي أنها قصائد قائمة على تصوير المشاعر والتعبير عنها وليس فيها أحداث مثلما نجد في مسرحيات شيكسبير المعروفة ويمكننا أن نتصور هنا احتمالا بأن يكون شيكسبير قد أحب هذه "المرأة السمراء" من جانبه وحده دون أن تكون بينه وبينها علاقة واقعية لها أحداث وتفاصيل ، والباحثون الذين يقولون أن "المرأة السمراء" التي يتحدث شيكسبير عن حبه لها في قصائده هي السيدة "فيتون" يقولون لنا أيضاً إن هذه السيدة كانت على علاقة بأحد كبار النبلاء في عصر شيكسبير وأسمه "بمبروك" ولم تكن هذه المرأة متزوجة من النبيل الانجليزي بل كانت بمثابة عشيقة له!

وكان النبيل "بمبروك" من بين الشخصيات المهمة التي ترعى شيكسبير وتقدم له العون والمساندة ومن هنا يمكننا أن نتصور أن شيكسبير قد رأى هذه السيدة وأعجب بها وأحبها وتحدث معها خلال

حفلة من الحفلات التي كان يقيمها النبيل "بمبروك" وقد كانت هذه المرأة كما وصفها أهل عصرها امرأة اجتماعية ذكية حلوة الأحاديث على معرفة واسعة بالفنون.

على أننا نجد في حديث شيكسبير عن المرأة السمراء التي أحبها وصفاً ملفتاً للنظر حيث يقول إنها "امرأة مسترجلة" فماذا يمكن أن يكون معنى "الاسترجال" عند المرأة في عصر شيكسبير إلا أن تكون هذه المرأة محبة للاختلاط بالرجال وتبادل الأحاديث معهم والمشاركة في الحفلات المختلفة التي كانت تقام في ذلك العصر وخاصة في قصور الأمراء والنبلاء والأشراف؟! ومثل هذا السلوك في العصر الحديث لا يجعل أحداً يصف المرأة بأنها "مسترجلة" فقد حققت المرأة خطوات واسعة على طريق المساواة بينها وبين الرجل خاصة في البيئات العصرية المتحضرة، أما في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر أي في عصر شيكسبير فقد كانت مثل هذه المرأة تبدو امرأة جريئة غير تقليدية ويمكن وصفها بأنها امرأة مسترجلة ولاشك أن مثل هذه المرأة في البيئة المحافظة التي كانت تعيش فيها إنجلترا في عصر شيكسبير كانت تبدو امرأة جذابة فاتنة خاصة إذا كانت تتميز بالثقافة والقدرة العالية على الاختلاط بعالم الرجال وتبادل الأحاديث معهم على أساس من الفهم والمشاركة والمساواة ودون أي شعور منها بالنقص أو بأنها من الضروري أن تعتمد على "أنوثتها" فقط في جذب انتباه الرجال.

يضاف إلى ذلك أن عصر شيكسبير يمكن القول عنه بأن المرأة المسترجلة يمكن أن تكون مثلاً أعلى للنساء ذلك لأن شيكسبير كان يعيش في عصر الملكة "إليزابيث" "١٥٣٣-١٦٠٣".

وكانت الملكة إليزابيث شخصية قوية تسيطر على الرجال وكانت تملك وتحكم معاً أي أنها كانت صاحبة الكلمة الأولى

والأخيرة في البلاد وقد رفضت هذه المرأة القوية أن تتزوج وعاشت حتى نهاية حياتها متفرغة للحكم والسياسة وقيادة بلادها في مختلف المجالات أي أن هذه الملكة كانت نموذجاً للمرأة "المسترجلة" التي كانت تعيش بين الرجال وتقودهم وتتحكم فيهم دون أن تعطى قلبها لأحد منهم فليس بعيداً إذن أن يكون نموذج "المرأة المسترجلة" نموذجاً سائداً في انجلترا في عصر شيكسبير الذي هو عصر الملكة إليزابيث أيضا وبالطبع فإن نموذج المرأة المسترجلة في هذا العصر كان يمكن أن يكون مقبولاً في أوساط الطبقات الاجتماعية العليا وليس في الطبقات المتوسطة أو الشعبية وكانت المرأة التي يقال إن شيكسبير كان يعنيها وهو يكتب قصائده العاطفية وهى السيدة "فيتون" تعيش في هذه الأوساط الارستقراطية عن طريق علاقتها بالنبيل الانجليزي "بمبروك"، ولعل شيكسبير يكون قد عرف هذه المرأة من خلال صداقته مع النبيل "بمبروك" الذي كان يحب شيكسبير ويشمله برعايته.

وإذا كان وصف المرأة المسترجلة يمكن أن ينطبق على السيدة "فيتون" فإن وصفها بأنها "سمراء" لا ينطبق عليها لأنها كانت شقراء كما تدل على ذلك اللوحات المرسومة لها والباقية إلى الآن ولكن مؤرخاً كبيراً هو "ويل ديورانت" يرد على ذلك في موسوعته الكبيرة "قصة الحضارة" فيقول ما معناه : إن السيدة "فيتون" ربما كانت سمراء في الحقيقة وأن ظهورها بمظهر الشقراء كان بسبب "الماكياج" الثقيل الذي كانت تستخدمه فتبدو عند النظر إليها وقد اختفى لونها الأسمر تحت الأصباغ الكثيفة.

على أن الحب الذي يعبر عنه شيكسبير في قصائده العاطفية لتلك المرأة السمراء لم يكن حباً ناجحاً ومتبادلاً بينه وبين هذه السيدة بل من الواضح أنه كان حباً من جانب شيكسبير وحده وقد عبر

شيكسبير عن ذلك حين أشار إلى أن المرأة السمراء التي مال قلبه إليها لم تكن تبادله الحب وأنها كانت تصده عن هواها ولا تتجاوب مع مشاعره ومن خلال هذا الموقف أستطاع شيكسبير أن يصور عذاب الحب الذي يعانيه خير تصوير وأجمله.

وإذا كانت قصائد شيكسبير العاطفية واضحة ومثيرة لأجمل المشاعر المتصلة بالحب فإن التجربة الواقعية التي استمد منها شيكسبير هذه القصائد ليست واضحة وليس عليها اتفاق وربما تكون المسألة في آخر الأمر هي أن شيكسبير لم يكن يتحدث عن أي حب واقعي عاشه وذاق ما فيه من عذوبة وعذاب ولكنه كان يعتمد في حديثه عن الحب على خيالات تحرك قلبه وتثير موهبته وتدفعه إلى الغناء العاطفي. فقلوب الشعراء يمكن أن تقترب من أسرار الحب دون أن تكون هناك تجربة واقعية يستمدون منها مشاعرهم التي يعبرون عنها وشيكسبير على وجه التحديد ليس من الفنانين الذين يعتمدون في فنهم على تجاربهم الشخصية فهو فنان موضوعي إذا صح التعبير أي انه كان يفكر في تجارب الحياة وصراعات النفس الإنسانية ويتخذ من ذلك كله مادة لفنه يستخلصها من التاريخ أو من القصص الشعبية أو من الأحداث الأخرى الجارية في الحياة الواقعية العامة ومن العسير جداً اعتبار أي مسرحية أو قصيدة كتبها شيكسبير تصويراً لتجاربه الخاصة فشيكسبير لا يكتب عن نفسه وإنما يكتب عن الحياة والعالم والإنسان ومثل هذا الفنان الجبار الذي جعل فنه مرآة للدنيا وأحوالها المختلفة ليس من الصعب أن يكتب عن عاطفة الحب وهى عاطفة إنسانية بالغة الأهمية والتأثير وحين يكتب مثل هذا الشاعر عن الحب ليس من الضروري أن يكون قد وقع فيه.

ورغم ذلك فإن شيكسبير عندما يكتب عن الحب أو عن أي شيء آخر لابد أن يتسرب من بين يديه بعض ما يدل عليه أي على ذوقه وميوله وما يفضله من ألوان الجمال وألوان العواطف الإنسانية المختلفة فإذا تحدث عن المرأة السمراء وتغنى مراراً بهذا النموذج من النساء فإن ذلك ولا شك يعكس ما بنفسه من تفضيل لهذا اللون على غيره من النساء. ومن هنا وردت الإشارات المختلفة في أعماله إلى "اللون الأسمر" وتفضيله لهذا اللون على غيره من الألوان فهو -يميل بمزاجه الشخصي- إلى لون "الأبنوس" في النساء ويجذبه هذا اللون ويثير مشاعره وليس من الضروري أبداً أن تكون في حياته "امرأة سمراء" حقيقية بلون الأبنوس حتى يكتب قصائد يعبر فيها عن حبه لهذا اللون في النساء أو لهذا اللون من النساء.

وهكذا تبدو المرأة السمراء في حياة شيكسبير وقصائده غامضة مثل كثير مما يتصل بهذا الشاعر العبقري الكبير في حياته الشخصية وتاريخه الخاص به ! فالبعض يقولون إن هناك امرأة سمراء في حياته العاطفية والبعض الآخر يقولون إن مثل هذه المرأة لا وجود لها وإنما هي خيالات شاعر انعكست على قصائده العاطفية ومعظم ما يتصل بحياة هذا الشاعر لا يقين فيه وليس هناك ما يثبته أو ينفيه بصورة قاطعة ولعل ذلك كان نعمة على الإنسانية كلها ! فالشاعر الكبير لا يعطينا إجابات دقيقة فيما يتصل بحياته ولا يشغلنا بذلك ولكنه يعطينا فناً لا يشك أحد في جماله وروعته وتأثيره . فالذي يريد أن يقرأ ويستمتع ويتعمق في أسرار الحياة والنفس الإنسانية سوف يجد الأبواب أمامه مفتوحة من خلال أعمال شيكسبير العديدة المتنوعة الرائعة. أما شيكسبير نفسه فهو شخصية "مختصرة جداً" يمكن تلخيصها كلها في صفحات قليلة فيها وضوح أما باقي الصفحات المتصلة بالحياة الشخصية لهذه العبقرية فهي غارقة في الغموض ومليئة بعلامات

الاستفهام والأسئلة الحائرة .. والباقي منه هو أعظم ما يبقى من أي فنان .. أي فنه.

وفن شيكسبير يتجدد بسحره مع الأيام ويرتفع بأصالته فوق ما يحدث للناس والدنيا من تغيرات كبيرة من عصر إلى عصر. وخلاصة شيكسبير أنه فنان عبقري نادر المثال أعطانا فنه المليء بالخصوبة والثراء وأخفى عنا شخصيته المليئة بالغموض والضباب!

❖

يا حبيبي لماذا تهرب مني؟!

الأسماء الرئيسية في هذا الفصل هي:

١ - **فينوس** ـــ ملكـــة الجمـــال في الأساطير الرومانية.

٢- **أدونيس** ـــ المثل الأعلى للشاب الجميل الذي وقعت" فينوس" في حبه.



أول امرأة ظهرت في أدب شيكسبير كله هي امرأة أسطورية وليست امرأة واقعية أي أن هذه المرأة مستمدة من الأساطير الأوروبية القديمة، وهذه المرأة هي فينوس ملكة جمال الإنسانية كما صورتها الأساطير الرومانية .وحديث شيكسبير عن فينوس لم يظهر في عمل من أعماله المسرحية ولكنه ظهر في "قصيدة قصصية طويلة" كتبها شيكسبير في بداية حياته الفنية وقد نشرها شيكسبير سنة ١٥٩٣ أي وهو في التاسعة والعشرين من عمره فشيكسبير من مواليد ١٥٦٤ وقد نجحت هذه القصيدة القصصية عند طبعها لأول مرة نجاحاً كبيراً حتى استطاع ناشرها وكان أسمه "ريتشارد فيلد" أن يطبعها عشر مرات في عشر سنوات متتاليات وكان لهذه القصيدة القصصية فضل كبير على شيكسبير إذ أن نجاحها بهذه الصورة كان تمهيداً قوياً لنجاحه بعد ذلك وارتفاع اسمه في عصره وبعد عصره إلى قمة الشهرة والمجد الأدبي والفني.

وقصيدة شيكسبير القصصية الأولى تكشف عن اهتمام شيكسبير المبكر بموضوع الحب الذي عالجه بعد ذلك في العديد من مسرحياته المشهورة والمهمة والحب -كما هو طبيعي- تكون البطولة الأساسية فيه للمرأة سواء أكان هذا الحب نابعاً منها وصادراً من قلبها أو موجهاً إليها من قلب رجل يحبها ويميل إليها بهذا الحب. وقد حاول

شيكسبير دائماً أن يصور الحياة الإنسانية بعمق وصدق وأجمع الباحثون والنقاد على أن شيكسبير لم يكن يصور في أدبه حياته الشخصية وإنما كان يصور حياة الإنسانية و لم يكن يصور عصراً محدداً من عصور التاريخ بل كان يصور الإنسان في كل العصور ومثل هذا الموقف عند شيكسبير كان لابد أن يدفعك إلى الاهتمام بتصوير "المرأة" فالتأمل في المرأة ومشاعرها وأحوالها المختلفة ومدى تأثيرها على الرجال والحياة كلها كان يتيح لشيكسبير أن يرى كل وجوه الحياة المتعددة. فالمرأة في حقيقة الأمر هي الحياة عندما تتجسد في كائن إنساني. والمرأة هي وسيلة الحياة الإنسانية إلى الاستمرار جيلاً بعد جيل كما أن المرأة هي الهدف الذي يسعى الرجل إليه بكفاحه واجتهاده وإظهار أفضل ما فيه وبذلك يستطيع الوصول إلى قلب المرأة والاحتفاظ به والمرأة – أولاً وأخيراً – هي المحرك الأساسي لكثير من المشاعر التي تتحكم في السلوك الإنساني وسواء أكانت المرأة مشاركة للرجال في الحياة العملية أو بعيدة عن هذه المشاركة فإن تأثيرها موجود ولاشك فيه فما من رجل يعمل ويتحرك ويخوض تجارب الحياة إلا وإلى جانبه في أغلب الحالات امرأة تثير فيه مشاعر محددة وتمنحه العواطف التي يحتاج إليها لكي يخوض معارك الحياة المختلفة. ولذلك جاءت صور المرأة عند شيكسبير متنوعة متعددة بمقدار ما في الحياة من تنوع وتعدد وعندما نتوقف عند نساء شيكسبير فسوف نكتشف في آخر الأمر أننا أمام صورة لكل ما في الحياة الإنسانية من عواطف وأفكار وآمال وآلام فالمرأة – حقاً – هي الحياة نفسها عند شيكسبير ولو أن شيكسبير أقتصر على تصوير أثر المرأة في حياته الشخصية الخاصة به وحده أو تصوير مشاعره التي أحس بها تجاه بعض النساء في عصره لجاء فنه أقل قيمة بكثير مما هو عليه وكانت اللوحة الكبيرة الممتدة الواسعة التي رسمها في أدبه لوحة صغيرة محدودة القيمة والتأثير حتى لو كانت بالغة

الجمال من حيث الفن والتعبير. فالحقيقة أن الحياة الإنسانية تبدو أمامنا واضحة في كل تقلباتها من خلال الصور المتعددة الكثيرة للمرأة في أدب شيكسبير، وهذه النظرة الحية الشاملة عند شيكسبير هي من أكبر عناصر عبقريته الفنية الخالدة فهو لا يصور فرداً واحداً أو مجموعة بعينها ولكنه يصور الإنسانية كلها.

من أين جاء شيكسبير بالمرأة الأولى التي ظهرت في أدبه وهي "فينوس"؟ وما الذي كان يقصده بتصوير هذه المرأة وما هي المعاني التي وقف أمامها وعبر عنها في هذا اللقاء الفني الأول بينه وبين المرأة مثل "فينوس"؟!

هي بطلة من أبطال الأساطير الرومانية القديمة فقد كان الرومان وثنيين قبل أن يؤمنوا بالمسيحية ويتحولوا إليها تحولاً كاملاً في عهد الإمبراطور "قسطنطين الكبير" وكان ذلك سنة ٣١٣ ميلادية. وقبل المسيحية كان الرومان لهم أساطير وآلهة وكان من بين هذه الآلهة "فينوس" آلهة الجمال والأساطير الرومانية التي جمعها شاعر من أعظم شعراء الرومان هو أوفيد "٤٣ قبل الميلاد – ١٨ ميلادية" في كتاب شهير له هو "التحولات" والذي ترجمه إلى العربية الدكتور ثروت عكاشة تحت اسم "مسخ الكائنات" وقد كتب "أوفيد" الأساطير الرومانية بأسلوبه الشعري الرائع الذي جعل له في تاريخ الأدب العالمي مكاناً خالداً بين أعظم شعراء الإنسانية ومن كتاب "أوفيد" امتدت يد شيكسبير لتجعل من أسطورة "فينوس" مادة لقصيدته القصصية الأولى التي كانت البداية الجميلة الناجحة لشهرته وحب الناس لأدبه ، وهي القصيدة التي مهدت الطريق أمام شيكسبير ليتربع بعد ذلك على عرش "المسرح الشعري" في الأدب الإنساني كله لا في الأدب الانجليزي وحده.

وبذلك يكون شيكسبير قد بدأ حياته بالالتفات إلى التـــراث الأوروبي والاستفادة منه و لم يبدأ بإعلان ثورة على هـــذا التـــراث أو رفضه له أو تنصله منه وفى هذا الموقف "الشيكسبيرى" ما يعلمنا شيئاً نافعاً ومهماً وهو أن الشاعر العظيم من أمثال شيكسبير لا يظهر مـــن فراغ أو في فراغ بل لابد أن يكون بينه وبين تراثه خيط سحري يربطه بهذا التراث قبل أن يقدم ما يحمله من جديد إلى الأدب والإنـــسانية. فالشاعر العظيم يبنى على أساس سابق عليه ولا يبنى في الهواء أو فوق الرمال دون أن تكون له جذور ممتدة في الأرض وهذا ما فعله "أوفيد" شاعر الرومان قبل شيكسبير عندما جمع "أوفيد" أساطير بلاده وكتبها شعراً في ملحمته الكبرى "التحولات" أو "مسخ الكائنـــات" كمـــا يسميها الدكتور ثروت عكاشة في ترجمته لها .

وقد اختار شيكسبير لقصيدته القصصية أن تـــروى أســـطورة العلاقة بين "فينوس وأدونيس" فهذه الأسطورة هي موضوع قـــصيدته القصصية الأولى ذلك لأن "فينوس" لها قصص أخرى متعـــددة مـــع "جوبتر" كبير الآلهة ومع ابنها "كيوبيد" إله الحب ولكـــن شيكـــسبير توقف عند صفحة من حياة "فينوس" الأسطورية وهى صفحة حبـــها لأدونيس وقد أشرنا إلى أن "فينوس" كانت آلهة الجمال عند الرومـــان فمن يكون "أدونيس" ؟ إن "أدونيس" هو المثل الأعلى للشاب الجميل الذي يسحر النساء بجماله وهو الشاب الذي وقعت "فينوس" في حبه وامتلأ قلبها بهذا الحب حتى وصلت إلى درجة "العشق المجنون" وكان "أدونيس" هذا الشاب الجميل الفاتن محباً للصيد إلى حد شغله عن كل ما في الحياة من متع أخرى وقد حذرته "فينوس" بعد أن رأته وأحبتـــه من الاندفاع في الصيد وقالت له كما جاء في كتاب الشاعر "أوفيـــد" من ترجمة الدكتور ثروت عكاشة صفحة ٢٩٨ - الطبعـــة الأولى – هيئة الكتاب – سنة ١٩٧٢ ":

"كن جسوراً حين تلقى الفريسة التي تفر منـك، ولا تـأمن الحيوانات التي تتصدى لك ولا تكن طائشاً حتى "لا أفقدك" وأعـيش تعسة بعدك يا فتاي الحبيب لا تتعرض للحيوانات التي زودها الطبيعـة بأسلحة حتى لا أدفع أنا غالياً ثمن مجدك الذي تبلغه فليس لشبابك وجمالك وسحرك وكل ما فتنني فيك من أثر على الأسود والخنازير البرية فهذه الأسود والخنازير لا تخاف الوحوش ولا تشعر بالذعر منها ثم إن الخنزير البرى كالبرق في انقضاضه بمخالبه أما الأسد – إذا أثير – فإنه يتوثب للهجوم لشد ما أمقت كل هذه الحيوانات".

على أن "ادونيس" لم يستمع لنصائح "فينوس" آلهة الجمال التي أحبته فقد دفعه عشقه للصيد إلى مطاردة خنزير بـرى استطاع أن ينقض على "ادونيس" ويقتله ولكن "أدونيس" لا يموت كما يموت البشر العاديون ويتم دفنهم في التراب فللأساطير عالمها الخاص الذي يختلف عن عالمنا الإنساني الواقعي ولعل الأساطير في الأصل كانت مجموعة من الأحلام ابتكرها خيال الإنسان ليحقق عن طريقها ما لم يستطع تحقيقه في الحياة . فالإنسان في واقعه لم يستطع أبداً أن ينتصر على الموت ولكنه في خياله يحلم بهذا الانتصار ويتمنى دائماً أن يحتفظ بحياته وحياة أحبائه بعيداً عن يد الموت القاسية وقد جاءت الأساطير لتحقق حلم الإنسان الذي عجز عن تحقيقه في حياته الواقعية . فالكل يموت والأحباء يذهبون ولا يعودون ولا نستطيع أن نفعل شيئاً أمام سلطان الموت .. هذا في الواقع .. أما في الأساطير فالموت "مقدور عليه" وهكذا تقول لنا الأسطورة إن "أدونيس" بعد موته تحول إلى زهرة بيضاء نقية صافية تعلوها نقطة حمراء. إن أدونيس الجميل قد مات فإذا به قد عاد إلى الحياة على شكل وردة والإنسان الذي لم يستطع أن يقهر الموت في حياته استطاع أن يقهره في أحلامه وأمنياته أي في الأساطير .

هذه هي القصة التي استمدها شيكسبير من الشاعر "أوفيد" ومن الأساطير الرومانية القديمة، ولكن هل أبقى شيكسبير على القصة كما جاءت في الأساطير؟ وهل كان كل جهده أن يكتب القصة شعراً جميلاً دون أن يقدم فيها ما يعبر عن تفسيره لأحداثها، وعن المعاني التي خلفتها هذه القصة الأسطورية في نفسه؟!.

لو فعل شيكسبير لما كان أكثر من ناقل لأصل موجود لا فضل له فيه، وربما بقى له في مثل هذه الحالة قيمة الجمال الفني الذي يتميز به شعره، أما الأحداث و الشخصيات والأفكار والعواطف فلا يكون له فيها أي فضل لأنها موجودة كلها في الأسطورة الأصلية، ولكن عبقرية شيكسبير أكبر من أن تقف به عند حدود النقل الحرفي من أصل سابق عليه ، بحيث لا يبذل أي جهد آخر إلا في الصياغة الشعرية الجميلة لهذا الأصل كما جاء في الأساطير القديمة، لهذا فقد تناول شيكسبير الأسطورة وعالجها بنظرته الخاصة، وأعطى فيها إشارات جديدة مختلفة عما توحي به القصة الأصلية، فقد عالج شيكسبير الأسطورة بطريقة "إنسانية" أي أنه نزع الكثير من القوى الخارقة التي تتحكم في الأسطورة وفى شخصياتها وأحداثها المختلفة وصورها على أنها قصة حب بين امرأة جميلة اسمها "فينوس" وشاب جميل اسمه "أدونيس" ثم حاول شيكسبير في نعومه شديدة أن يشير إشارة الفنان المفكر صاحب البصيرة النافذة إلى السبب أو الأسباب الذي أدت إلى عدم نجاح الحب المشتعل بين جميلة جميلات النساء أو المثل الأعلى لجمال المرأة وهى "فينوس" وبين الشاب الرائع الذي خطف قلب "فينوس" فهامت به عشقاً.

وقصيدة شيكسبير القصصية عن "فينوس وأدونيس" قد تحولت إلى مسرحية على يد الكاتب الفرنسي المعاصر "اندريه أوبيه" الذي لم

يتصرف في قصيدة شيكسبير بالإضافة أو التعديل، وحرص على أن تبقى القصيدة في مضمونها وحوارها كما هي عند شيكسبير وإن كان الكاتب قد حول هذا كله إلى نص مسرحي والنص المسرحي لقصيدة شيكسبير مترجم إلى العربية بقلم الأستاذ محمود صابر، وعلى هذا النص الدقيق نعتمد على هذه الدراسة لأول امرأة كتب عنها شيكسبير وهي"فينوس".

يرى شيكسبير في قصيدته القصصية أن الحياة ترفض "التطرف" فالتطرف دائماً يؤدى إلى كارثة أو نتيجة سلبية والتطرف الأساسي الذي عبر عنه شيكسبير في قصيدته هو "تطرف" "فينوس" في حبها لأدو نيس ، فالمرأة حين تتطرف في الحب تنسى كل شيء وتصبح ضعيفة تماماً أمام من تحب وهذا ما حدث تماماً للجميلة"فينوس"عندما رأت "أدونيس" لأول مرة فبهرها جماله وشبابه واندفعت في عاطفتها نحوه دون أي حسابات أو تحفظات وقد كان على "فينوس" أن تتحكم في عواطفها، ولا تعلن عنها بصورة فجائية عنيفة، وكان عليها أن تمهد لحبها عند حبيبها، فتعرف شيئاً واضحاً عن شخصيته وتكوينه الفكري والنفسي قبل أن تندفع في حبه بهذه الطريقة العنيفة المتطرفة فلابد من "توازن" بين عاطفة الحب وبين الأسلوب الذي تعبر به هذه العاطفة عن نفسها وبدون هذا التوازن يحدث اختلال شديد وينتهي الأمر إلى أن يضيع الحب من يد أي عاشق متطرف في حبه ، فالتطرف العاطفي يجعل العاشق غير قادر على تهيئة الأجواء الصحيحة للحب الناجح الذي يحقق أهدافه البعيدة.

إن شيكسبير في تصويره لشخصية"فينوس"يعطينا صورة حية للإنسان الذي يقع في المتاعب عندما يتطرف حتى لو كان هذا التطرف.. تطرفاً في الحب.

والتطرف أو المبالغة أو عدم النظر بعين فاحصة للأمور هي كلها أفكار عالجها شيكسبير بعد ذلك في مسرحياته الشعرية المعروفة،فقد كان "التطرف" العاطفي من الأسباب التي تمهد وتؤدى في النهاية إلى المآسي التي يتعرض لها الإنسان،فكأن القصيدة القصصية عن"فينوس وادونيس"عند شيكسبير كانت فاتحة لطريق سار فيه بعد ذلك بصورة أعمق وأقوى وأشد إثارة،ولكن هذا الطريق كان دائماً واضحاً أمام شيكسبير،وهو طريق التوازن والسيطرة على مشاعر الإنسان حتى لا تفلت منه الأمور . أما الاندفاع فهو يجعل الإنسان أشبه بالمحارب الذي ليس لديه خريطة دقيقة لميدان المعركة ولا معرفة سليمة بالطرف الآخر في هذه المعركة فحتى لو كان المحارب يملك الشجاعة ويملك كل الأسلحة الصالحة لتحقيق النصر فهو بحاجة إلى شيء من البصيرة والدراسة ومعرفة أجواء المعركة وظروفها قبل أن يخوضها وهذه هي ضمانات النصر،والحياة كلها،وليس الحب فقط، هي معركة كبيرة على الإنسان الذي يخوضها أن يعرف الكثير عنها قبل أن يبدأ القتال ، وحتى في أثناء القتال نفسه فلا يجوز أن تسيطر"حمى" المعركة على الإنسان فيفقد وعيه بما يدور حوله،لأن هذا الوضع لابد أن يؤدى إلى الهزيمة.

على أن التطرف ليس هو الجانب الوحيد الذي انتهى بجميلة الجميلات"فينوس" إلى أن تخسر معركتها في حب "فينوس" برغم أن "فينوس" كانت تملك كل أسلحة الانتصار ومنها الجمال الساحر،والفتنة التي جعلت منها امرأة يطلبها الكثيرون ويستسلمون لها، وكانت تملك أعلى درجة من الجاذبية بين كل نساء الأرض، حتى أصبح وصف أية جميلة بأنها"فينوس"يعنى أنها قد بلغت قمة الجمال الذي ليس بعده جمال آخر يدانيه.

وتطرف "فينوس" في إعلان حبها لذلك الشاب الجميل الذي سرق قلبها وهو "أدونيس" كان يقف إلى جانبه شيء آخر ساعد على خسارة "المعركة العاطفية" بالنسبة للجميلة "فينوس" فقد كانت فينوس القصصية تعتمد على جمالها وحده، لشدة ثقتها بهذا الجمال واعتقادها أنه يكفي لكي لا يقاومها أحد .. ومعنى ذلك أن "فينوس" اعتقدت أن إثارة اشتهاء الشاب الجميل أدونيس لها تكفي لاجتذابه إليها وسيطرتها عليه وانتصارها في حبها له. وهذا خطأ آخر يقف إلى جانب التطرف والاندفاع في الحب دون تمهيد ودون أية عناية بدراسة الطرف الآخر في العلاقة العاطفية.

فالجمال المادي وحده مهما كان فاتناً للعيون ومثيراً لأعمق غرائز الإنسان لا يكفي للسيطرة على القلوب، لأن القلوب تحتاج إلى لغة أخرى غير تلك اللغة المادية وما فيها من جاذبية.

لقد وقعت "فينوس" في خطأ الاعتماد فقط على فتنة جمالها وجسدها الساحر المليء بالأنوثة الناضجة المتفجرة .. ولعل اعتماد "فينوس" على هذا الجانب المادي فيها يكشف عن وجه آخر للمسألة هذا الوجه هو أن "فينوس" نفسها كانت تشعر نحو "أدونيس" بما يمكن أن نسميه باسم "الاشتهاء" والميل الجسدي إلى حبيبها الشاب الجميل وهذا أمر طبيعي، فكل حب لا يخلو من هذا العنصر الإنساني الذي لا يمكن ــ ولا يجدي ــ الإنكار له ولكن الاستسلام لهذا العنصر القائم على الاشتهاء وحده قد يكون دليلاً على ضعف الجانب العاطفي في الحب فالإنسان عندما يطلق العنان لاشتهائه فإن العواطف تكون غائبة عن الوعي أو تكون أحيانا غير موجودة والفرق كبير بين العاطفة والرغبة ، فالرغبة تزول بعد أن تتحقق أما العاطفة فتبقى وتعيش ولا تتغير وخاصة إذا كانت عاطفة عميقة وصادقة.

وهكذا نخرج من قصيدة شيكسبير القصصية بأن المرأة المتطرفة في الحب والتي تعتمد في حبها على الاشتهاء لا تستطيع أن تبنى عشاً يأوي إليه الحب آمنا سعيداً وعلى العكس من ذلك فإن التطرف والاشتهاء وحدهما يضعان نهاية سلبية حزينة لأية علاقة عاطفية.

وهذا ما حدث للجميلة "فينوس" التي لم تستطع أن تكسب قلب حبيبها "أدونيس" المولع بالصيد والذي لم تستطع "فينوس" أن تشعل في قلبه عاطفة الحب الصادقة،ولذلك فهو يقول:"الحب؟كم حدثوني عنه حياة من العذاب والهوان تبكيها همسة وتضحكها همسة أخرى .. رحماك ياربي لا أريد هذا الحب.

وعندما تحاول "فينوس" بكل اندفاع وقوة أن تقترب منه وتقبله وتحتضنه يقول لها:"أنت تؤلميني"فتقول له : "فلأمت قبل أن يسبب لك حبي ذرة من الألم" فيرد الشاب الجميل "أدونيس" عليها قائلاً: "كفى هذا الحديث التافه .. هذه الألفاظ الجوفاء الحب الحب لا لا علم لي به ولا أود أن يكون لي به علم أبداً".

وعندما أدركت "فينوس" أنها غير قادرة على الوصول إلى قلب فتاها الجميل أخذت تقول: "ما أشقاني هذا العذاب الذي أشرب كأسه الآن كم من المرات شربه الآخرون بسببي ؟! من يقول إني أنا التي كان الجميع يتوسلون إليّ ويسعون إلى رضائي أجد نفسي الآن..وأنا أرجو وأتوسل.

وتقول"فينوس"أيضاً: "لو أنني كنت دميمة، بشعة، طاعنة في السن، وجهي مليء بالتجاعيد ، مشوهة العين، صوتي مبحوح، نحيلة، هزيلة ولكنى أتحداه. أتحداه أن يجد في جبيني تجعيدة واحدة عيناي زرقاوان تفيضان بالحياة، بشرتي بضة بيضاء ناعمة الملمس، يدي رقيقة

لو أنه شد عليها لذابت تحت أصابعه ليأذن لي أن أتحدث إليه مرة واحدة إذن لاستولت عليه أحاديثي بما فيها من سحر .... ليأمر .. فإذا بي ماثلة أمامه كعروس من الجن ذات ضفائر طويلة أرقص على الرمال بخطوات لا يكاد أحد يراها.. رباه .. أهذا الحب الناعم الخفيف يمكن أن يكون ثقيل الوطأة عليه إلى هذا الحد"؟!!

وتقول "فينوس" أيضاً:

" أتمنى أن تلتقي شفتاه الجميلتان بشفتي ولو في مس خفيف، فلينظر في عيني، وسيرى فيهما حسنه وجماله، وإذا ما التقت العين بالعين ألا تلتقي الشفاه بالشفاه؟!"

ولكن "أدونيس" يرفض ذلك كله ويمضي إلى عالمه الذي يحبه ويهواه، وهو عالم الصيد الذي انتهى به إلى أن يقتله خنزير بري فتنتهي حياته وينفطر قلب حبيبته "فينوس" عليه.

تلك هي قصة أول امرأة ظهرت في أدب شيكسبير وهي "فينوس" الجميلة، أستمدها شيكسبير من الأساطير الرومانية، ولكنه أعطاها طابعاً إنسانياً، وجعل منها نموذجاً حياً للعاطفة المتطرفة التي تقوم على الاشتهاء فينتهي الأمر بها إلى أن تقضي على الحب نفسه بإغراقه في بحر التطرف العاطفي والرغبة الجامحة.

هكذا يمكننا أن نفهم قصيدة شيكسبير القصصية "فينوس وأدونيس" وهي أول عمل قدمه شيكسبير إلى الناس فمس قلوبهم وأسعدهم بأول ثمار عبقريته الفنية، على أن شيكسبير نفسه لم يقل لنا في قصيدته القصصية إنه ضد التطرف العاطفي والرغبة الجامحة، فهو فنان يصور الحياة، ولا يشرح الصورة التي يقدمها، ولا يقدم أي نوع من أنواع التعليق عليها أو الإشارة إلى معانيها الفلسفية والأخلاقية،

فالحياة في فنه تمضي على نفس الطريقة التي توجد بها في الواقع، أي أنها حياة مليئة بالصراع والتناقضات العجيبة، ومنها هذا التناقض الذي تمثله "فينوس" فهي جميلة والجميع يخطبون ودها، ولكن قلبها يميل بعنف إلى شاب جميل لا يميل إليها ولا يبادلها نفس العواطف، فهي شخصية مختلفة عن شخصية حبيبها "أدونيس" ولهذا الحبيب اهتمامات أخرى في الحياة تجعله يبتعد عن طريق المرأة الجميلة الساحرة التي أحبته بعنف ورغبت فيه بقوة ... وتلك هي الحياة في كثير من الأحوال، مالا يطلبه الإنسان يجده بين يديه وما يجري وراءه يفر منه، وهذا هو المعنى الإنساني الكبير الذي نجده في هذه القصيدة "الشيكسبيرية" الجميلة، وهو معنى لا يمكن الاختلاف عليه، وإن كان باب الاجتهاد بعد ذلك مفتوحاً لتفسيرات أخرى مثل التفسير الذي قدمناه، وهو عجز الحب المتطرف والرغبة الجامحة عن تحقيق النجاح العاطفي والوصول به إلى عشه الهادئ الجميل، إذ أن التطرف والجموح قاتلان لكل ما يسعيان إلى تحقيقه والوصول إليه، في الحب وفي أي شيء آخر.

❖

مراهنة على الخيانة الزوجية

أهم الأسماء الواردة في هذا الفصل:

١- **لوكريس** ـــ الزوجـــة الوفيـــة للضابط الروماني " كولاتان "

٢- **كولاتان** ـــ زوج " لوكريس "

٣-" **تاركان** " ـــ ولي عهد رومـــا وضابط في الجيش الروماني وهو الذي قام باغتصاب "لـــوكريس" وهـــذا الاغتصاب وما صاحبه مـــن آثـــار وردود فعل هو موضوع هذا الفصل.

المرأة في أدب شيكسبير بصورة عامة، وفي معظم أعماله الفنية، هي امرأة لا تعرف ما نسميه باسم "الخيانة الزوجية" فمعظم النساء عند شيكسبير وفيات لأزواجهن، ومعظم الحبيبات وفيات أيضاً لعشاقهن، وحتى الزوجات اللواتي تمتلئ نفوسهن بالشر في أغلب الأحوال لا يكون "الزوج" موضوعاً له، بل إن مثل هذه الزوجة الشريرة تحاول أن تدفع زوجها إلى الشر لتحقيق طموح تسعى إليه، ولكنها لا تدبر الشر لزوجها الذي ترتبط به وتحرص عليه، ولعل حالة "الخيانة" الزوجية الوحيدة الأساسية المعروفة في أدب شيكسبير هي حالة "جرترود" ملكة "الدانمرك" في مسرحية "هاملت" فهذه الملكة متهمة بأنها شاركت في مؤامرة لقتل زوجها الملك للزواج من شقيقه الذي اشترك معها في تدبير الجريمة وتنفيذها، وكثير من الأدلة والبراهين والشواهد في مسرحية "هاملت" تميل بنا إلى الاعتقاد بأن "جرترود" قد خانت زوجها الملك وتآمرت عليه.

أما في معظم مسرحيات شيكسبير الأخرى، وعددها ثمان وثلاثون مسرحية في رأي أكثر الدارسين لأدبه، فإن المرأة في هذه المسرحيات جميعاً تبدو بعيدة عن الخيانة الزوجية تماماً، وفي هذا الموقف ما يدل على أن شيكسبير لم يكن مشغولاً بموضوع "الخيانة الزوجية" ولم يكن هذا الموضوع من الموضوعات القريبة إلى عقله وقلبه وتجاربه،

ولم يكن ضمن الجوانب الأخلاقية الضعيفة في الإنسان وهي الجوانب التي اهتم شيكسبير بالحديث عنها وتصويرها وفي عمق وأصالة وفـن بديع.

وفي هذه "القصة الشعرية" التي كتبها شيكسبير سـنة ١٥٩٤، وهي قصة "اغتصاب لوكريس" نجد أن شيكسبير يعـالج موضـوع "الخيانة الزوجية" من زاوية عكسية أي أنه في هذه القصة يقدم إلينـا نموذجاً للمرأة الشريفة العفيفة الطاهرة الوفية أشد الوفاء لزوجها والتي تدافع عن شرفها ووفائها إلى حد أدى بها إلى المأساة وهـذه القـصة الشعرية أو القصيدة القصصية ليست مسرحية، ولكنها حكاية يرويها شيكسبير في قصيدة وقد استمد شيكسبير هذه الحكاية من الكتـاب الشهير الذي كتبه الشاعر الروماني أوفيد "٤٣ ق.م -١٨ ميلاديـة" وهو كتاب "التحولات" أو "مسخ الكائنات" كما اختـار الـدكتور ثروت عكاشة أن يسميه -عندما قام بجهد رائع لترجمة نـص هـذا الكتاب إلى اللغة العربية. وكتاب "التحولات" هـو مجموعـة مـن الأساطير والقصص الرومانية وقد جمعها الشاعر"أوفيد" في كتابه فكان بمثابة "إلياذة" رومانية خالدة إلى جانب "إلياذة" هوميروس اليونانيـة الخالدة أيضاً.

وقد تحولت قصيدة شيكسبير القصصية هذه إلى مسرحية على يد الكاتب الفرنسي المعاصر "أندريه أوبي" وترجم المسرحية إلى اللغـة العربية الأستاذ محمود صابر الذي حافظ في ترجمته على اسمها الأصلي وهو "اغتصاب لوكريس" و"لوكريس" هي بطلة قـصيدة شيكـسبير وهي نفسها بطلة المسرحية المعتمدة على قصة شيكسبير، ولـوكريس هي أيضاً الزوجة الجميلة الوفية والتي تعرضت للاغتصاب ودافعت عن شرفها وعفافها إلى حد التضحية بحياتها.

وخلاصة القصيدة القصصية التي كتبها شيكسبير أن مجموعة من الضباط في الجيش الروماني جلسوا ذات مساء في أحد المعسكرات التي تجمعوا فيها استعدادا لمعركة لابد أن يخوضوها ضد عدو لهم يهدد بلدهم روما ويريد أن يغزوها ويسيطر عليها، وفي هذه السهرة شرب هؤلاء الضباط حتى أوصلهم سكرهم إلى درجة عالية من النشوة، وهنا اقترح أحدهم وهو الضابط الأمير "تاركان" ولي العهد أن يدخلوا في رهان حول سلوك زوجاتهم في غيابهم لكي يعرفوا مدى وفاء هؤلاء الزوجات لأزواجهن الغائبين في معسكرات الجيش الروماني، فعاد هؤلاء الضباط إلى بيوتهم فجأة ودون سابق إنذار كأنهم يقومون بغارة عسكرية وذلك لكي يفاجئوا زوجاتهم ويعرفوا ماذا تفعل هؤلاء الزوجات في غياب الأزواج، مع ثقة هؤلاء الزوجات بأن الأزواج لا يمكنهم العودة إلى بيوتهم وهم مشغولون بالاستعداد للقتال في معسكرات الجيش.

وقد فوجئ هؤلاء الأزواج بما لا يحبون فوجد كل منهم زوجته في حالة لا ترضيه على الإطلاق وهي ليست حالة خيانة صريحة ولكنها حالة تثير الشكوك، فزوجة اسمها "كورنيليا" كانت تقيم في بيتها حفلة عشاء دعت إليها عدداً من الضيوف، وزوجها بالطبع لا يعلم شيئاً من أمر هذه الحفلة، وواحدة اسمها "ليجيا" كانت خارج بيتها لأنها تلقت دعوة لحضور حفلة راقصة فاستجابت للدعوة دون علم زوجها، وزوجة ثالثة اسمها "كالفورنيا" كانت تنام في سريرها عارية تماماً، وصحيح أن ذلك كان في بيتها ولكن عريها الكامل ونومها الخامل وهي عارية على سريرها هو أمر "غير ظريف" بالنسبة لزوجها عندما فاجأها ووجدها على هذه الصورة التي أثارت ريبته وشكوكه في سلوكها وفيما كانت تخفيه من نواياها أو تستعد له من تصرفات ، وهكذا خسر هؤلاء الضباط الرومان رهانهم الذي أعلنوه

في بداية هذه المغامرة وهي أنهم سوف يجدون زوجاتهم في انتظارهم وأنهن لا يفكرن في أي شيء آخر غير الأزواج الغائبين، وأحس هؤلاء الشبان العسكريين بخيبة الأمل وبأن الزوجات لسن فوق الشبهات.

تلك كانت هي الحالة العمومية من خيبة الأمل في الزوجات اللواتي حاولن أن يملأن فراغهن بالتسلية والبحث عن شيء ينسيهن غياب أزواجهن دون مراعاة لمبدأ الوفاء الخالص لهؤلاء الأزواج . وفي هذا الجو من الإحباط العاطفي كانت هناك زوجة واحدة أثبتت أنها شديدة الوفاء لزوجها بصورة كاملة وقوية ومثيرة للإعجاب، هذه الزوجة هي "لوكريس" زوجة الضابط "كولاتان" إذ وجدوها جالسة بين وصيفاتها عاكفة على غزل الصوف، وبذلك يكون الضابط "كولاتان" هو الوحيد الذي كسب الرهان من بين جميع زملائه الضباط الرومان الذين لم يجد أحد منهم زوجته إلا وهي تبحث عن تسلية لها ناسية زوجها، مطمئنة إلى أنه لن يعرف شيئاً عما تفعله مادام بعيداً عنها، يعيش في معسكر من معسكرات القتال، ويعلق أحد هؤلاء الضباط واسمه "بروتس" على ما رآه وشاهده بنفسه فيقول عن"لوكريس" زوجة صديقه "كولاتان" الوفية بقوله: لم تقع عيناي من قبل علي ما هو أجمل وأنبل وأهدأ وأهدى من "لوكريس" لقد رأيت فيها حقاً مشهداً رومانياً يزدان بالشرف، لا أنا أخطأت بل هو مشهد يزدان بالجلال والبساطة والرجل الذي يترك وراءه عفة مصونة وعرضاً سليماً كما هو الأمر مع هذه الزوجة .. رجل هذه زوجته لابد أن يكون قادراً على أن يستجمع ذروة قواه في ميدان القتال، ثم يقول "بروتس" هذا لصديقه "كولاتان" زوج "لوكريس" : " أيها الأخ الصادق العزيز، أشهد أن زوجتك "لوكريس" هي أبهى لؤلؤة في تاج روما".

وبهذا يمهد شيكسبير للمأساة المقبلة، فعندما تكون الحياة في قمة جمالها ويكون الإنسان في تمام كماله لابد أن تتسرب خيوط المأساة إليه من نقطة ما، فهل يمكن أن تكون السعادة كاملة في هذه الحياة؟.. إذا كنت تبحث عن السعادة الكاملة فافعل ذلك بعيداً عن أدب شيكسبير، ففي الأدب الشيكسبيري العظيم ليس هناك سعادة نهائية والدنيا إذا أصبحت صافية فلابد أن تهب عليها عاصفة في يوم من الأيام، ذلك لأن رؤية شيكسبير للحياة هي رؤية واقعية دقيقة وعميقة، وهذه الرؤية تقول : إن الحياة هي مزيج من السعادة والشقاء وهي دموع وابتسامات في الوقت نفسه وهناك على الدوام ذلك المجهول الذي يتربص بالحياة الإنسانية، ثم يظهر فجأة وعلى غير انتظار في حياة الناس، وحتى أسعد الناس حظاً في هذه الدنيا لابد أن ينتهي به الأمر في آخر الرحلة إلى الموت، والموت هو قوة متربصة بالحياة كلها ولا يمكن أن تظهر هذه القوة إلا بصورة مفاجئة فلا أحد يعلم متى يموت أو بأي أرض يموت ولذلك فإنه مهما بلغت السعادة الإنسانية من الكمال، فهناك دائماً "لحن حزين" يتسرب إلى تلك الحياة ولو بصورة خفية وهادئة، ولا شك أن الجميع يسمعون هذا اللحن الحزين ويدركون أنه مصاحب للحياة الإنسانية كلها ولا يمكن الخلاص منه أبداً.

على أن اللحن الحزين الثابت في حياة البشر وهو"الموت" الذي يحل بالجميع وينتظرهم في نهاية الطريق، وأحياناً في وسط الطريق وأحياناً في أول الطريق... هذا الموت ليس هو الخطر الوحيد على السعادة الإنسانية، وليس هو السبب الوحيد الذي يقضي على هذه السعادة ويؤدي دوره الحزين في التفرقة بين القلوب الدافئة التي تعيش في حب وأمان، بل لعل الإنسان قد أستطاع بمرور الزمان أن يستأنس "الموت" ويتعود عليه ويستعد له، بعد أن أيقن البشر جميعاً أنه أمر لا

مفر منه، وأنه كأس لابد أن يشرب منها الجميع، ولهذا أصبح خطر الموت على سعادة الإنسان "معمولا حسابه" عند الناس، وهذا ما يخفف منه ويجعل المعركة معه محسومة، ويفرض على الإنسان الاستسلام له عندما يجيء، فلا حيلة لأحد في ذلك، ولا يستطيع أحد أن ينال الخلود أو يفلت من الموت.

ولو كان هناك استثناء في الموت لاستثنى الله أنبياءه وأعفاهم من هذا المصير، ولو كان هناك استثناء لأفلت الأباطرة والقياصرة والملوك الأشداء ولكن الموت لا يفرق عندما يحل موعده بين نابليون وبين أبسط خفير في أبسط قرية على الأرض.

فالموت إذن ليس هو الخطر الأكبر على السعادة الإنسانية ولكن الخطر على السعادة الإنسانية حقاً هو صراعات الناس ضد بعضهم البعض، وهذه الصراعات يحركها الطمع أو الغرور أو الحسد أو الغيرة، وما إلى ذلك من عواطف تتحكم في علاقات الناس، خاصة إذا كانت هذه العواطف سلبية وللأسف فإن هذه العواطف السلبية كثيراً ما تطل برأسها وتندفع إلى العمل المؤثر عندما يكون هناك نجاح يتحقق ويلقى بظلاله الطيبة على أصحابه من الناجحين، وفي هذه القصة الشعرية التي كتبها شيكسبير وهي "اغتصاب لوكريس" نجده يرسم صورة للمرأة الشريفة المتمسكة بعفافها الكامل، وهي امرأة بالغة الجمال والنضارة، وإذا كان الله قد منحها جمال الصورة فقد منحها أيضاً جمال القلب والروح، فهي تحب زوجها أشد الحب وتقدر ظروفه كرجل عسكري يضطر للغياب عن بيته وأهله بين الحين والحين وقد يطول غيابه إذا كانت هناك ضرورة عسكرية وطنية لذلك، وفي غياب الزوج فإن هذه الزوجة الجميلة الوفية لا تفعل شيئاً سوى انتظاره

والعناية الكاملة ببيتها ونفسها حتى كأن الزوج موجود معها لحظة بلحظة، فغيابه المادي بالنسبة لها لا يعني أبداً غياباً معنوياً وروحياً.

وهذه العلاقة الراقية الجميلة بين "لوكريس" وزوجها الضابط الروماني "كولاتان" هي النجاح، وهي السعادة، وهي أقصى ما يسعى إليه أي إنسان من التوفيق والرضا بنصيبه من الدنيا، ولذلك كانت الزوجة الجميلة راضية بحيالها، وكان الزوج مطمئناً على شرفه وعلى قوة العاطفة التي تربط بينه وبين زوجته الرائعة، ولكن النجاح والسعادة هما في العادة سبب من الأسباب الأساسية التي تثير الحسد والغيرة والرغبة في التدمير، خاصة عند النفوس المرتبكة الضعيفة، والتي سرعان ما تقارن بين صاحبها وأصحاب الحياة السعيدة الناجحة، وهذا ما حدث للضابط "كولاتان" وزوجته الجميلة الوفية "لوكريس"، فقد كان هناك "تاركان" ولي عهد روما وقائد الجيش.

وهو كما يقول عنه أحد جنوده: "شاب لا يرضيه شيء .. هل رأيته ضاحكاً مرة واحدة؟ " و"تاركان" هذا كان قد وصل إلى منصبه كولي لعهد روما بعد أن قام مع أبيه باغتصاب العرش من الملك السابق "تاليوس" وتحقق لهما ذلك بالتآمر والقتل، فقد وصل "تاركان" هذا إلى ولاية العهد بالخيانة والغدر وليس عن طريق اختيار الناس له ولأبيه، ولذلك فقد كان يحمل نفساً مثقلة بالإثم والجريمة، ويقول عنه الراوي في مسرحية "اغتصاب لوكريس" التي أعدها الكاتب الفرنسي "أندريه أوبي" عن القصة الشعرية الأصلية التي كتبها شيكسبير: هذه الساعة من الليل هي التي يخلد إلى أحضان الراحة فيها جميع الناس عدا اللصوص والنفوس الغارقة في الهموم والضمائر المعذبة تلك هي الفئة التي تقضي الليل كله ساهدة وفريسة للأرق ، ومن تلك الفئة الأمير "تاركان" فنفسه في هم وانشغال وضمير يؤنبه باستمرار، وهو فوق

ذلك لص...لص" ثم يقول عنه الراوي أيضاً : " إن هذا الأمير "تاركان" متكبر شامخ بأنفه، وهو دائماً يتطلع إلي الانتصار على غيره والاستيلاء على ما في يد الآخرين، تلك هي نقيصته و نقطة الضعف فيه، فجنونه بامتلاك كل شيء يجعله يحس بأن ما يصل إليه رخيص وزهيد، فليس هدفه هو مجرد الامتلاك والاقتناء، وإنما سعادته لا تتحقق إلا بالتطلع إلى الأشياء التي يملكها غيره ولا يستريح له بال إلا إذا حقق ذلك، ثم يبدأ في فتح باب الطمع من جديد فيتلفت حوله ليرى ما يغريه مما يملكه غيره".

هذا ما يقوله عنه شاهد من الشهود وهو "الراوي" في المسرحية المأخوذة من قصة شيكسبير الشعرية، وأنا لا أنقل هنا النصوص الحرفية، بل أنقل المعاني الأساسية لهذه النصوص، وما يقوله الراوي في المسرحية هو إشارات تساعدنا على فهم شخصية الأمير الشرير "تاركان" وتساعدنا على فهم نوعية الشر الذي يسيطر عليه ويتحكم فيه، أما الأمير "تاركان" فهو يقول مخاطباً لنفسه في حقد مرير على الضابط "كولاتان" وزوجته الجميلة "لوكريس" :"كيف يحظى ضابط مغمور مثل "كولاتان" لا حسب له ولا نسب بزوجة هي آية في الجمال والعفاف مثل "لوكريس" بينما أنا ... أنا ابن الملك لم أوفق إلى أية زوجة حتى الآن... إن هذا لشيء يكدر الخاطر ... شيء يغيظ".

هكذا يفكر الأمير الشرير "تاركان" إنه حقود حاسد مغرور وهو الذي وصل إلى ولاية العهد بالاغتصاب والقتل، فكيف لا يسعى إلى الحصول على الزوجة الجميلة الوفية بنفس الطريقة الملتوية الشريرة؟!

وهكذا خرج الأمير "تاركان"من معسكره يركض بحصانه ليلاً حتى وصل إلى بيت الزوجة الوفية "لوكريس"، وهنا نقرأ وصف

الراوي لرحلة الأمير الشرير حيث يقول : "لقد سافر "تاركان"، الأمير "تاركان" سافر ابن الملك، هجر الجيش، ملك روما المقبل يترك معسكره ويتخلى عن مركزه، ويثير حرباً شعواء لا يبوح بسرها لأحد، في الليلة الماضية يورط ضباطه في حملة مفاجئة لا معنى لها، وهي أن يتراهنوا على مدى وفاء زوجاتهم لهم، وفي هذه الليلة يسافر وحيداً شريداً ... إني خائف من ذلك فلعله يضمر شراً كبيراً، نعم . نعم . نعم. أنا شديد الخوف! ها هو يركض بحصانه، إنه ينهب الأرض نهباً، هل تسمعون؟ هل تسمعون وقع الحديد من حوافر الجواد على صخر الطريق الروماني؟ إلى أين هو ذاهب؟ ، ما شهدنا قبل الآن أحداً يطير بجواده هكذا !!".

إن هذه الكلمات التي يقولها الراوي هي تمهيد أشبه بالمقدمة الموسيقية التي تنذر بأن اللحن الأساسي سوف يكون لحناً مأساوياً .

وهذا ما حدث، فقد ذهب الأمير "تاركان" إلى بيت الزوجة الجميلة الوفية "لوكريس" ويدخل البيت ويقول للزوجة: "إن أمراً عاجلاً قد عاد به إلى روما" واختار أن يقضي الليلة في بيتها، أما الزوجة فإنها "تتذكر كل تقاليد العناية والترحيب التي يتميز بها كرم الضيافة عند الرومان"، ويرى الأمير "تاركان" كل الأبواب تتفتح له في اطمئنان وثقة، وتفتح "لوكريس" أمام الأمير غرفة لائقة بمقام هذا الضيف الكبير، وتأمر الخدم بالعناية الشديدة به وتشرف بنفسها على ذلك، ثم تذهب إلى غرفة نومها آمنة مطمئنة، بعد أن أدت واجبها نحو الضيف على خير وجه.

وفي عمق الليل خرج الأمير "تاركان" من غرفته واقتحم غرفة "لوكريس" الجميلة الوفية، وتوسلت إليه "لوكريس" ألا يمسها قائلة له: زوجي هو صديقك العزيز، بحق إعزازك له لا تمسني، ثم تقول له في

بؤس ويأس: لقد استقبلتك اعتقادا مني أني أستقبل الأمير "تاركان" العظيم ولي العهد، أستعيذ منك بقوى السماء لا تدنس الشرف، ولا تمرغ في الوحل لقب "أمير" عجباً لك، إن حقيقتك تتناقض مع مظهرك وما تفعله الآن من الإقدام على اغتصابي يتعارض ومكانتك... يتعارض مع ما ينبغي أن تكون عليه، أنت أمير وابن ملك يا تاركان... وسوف تكون ملكاً عظيماً فكيف تقدم على ما تحاول أن تفعله بي الآن ؟ ... أي : كيف تقوم باغتصابي؟! " ويبلغ التوسل بالزوجة الوفية "لوكريس" مداه فتقول ويقول معها الراوي في المسرحية : " باسم الإله القادر على كل شيء باسم الكرامة باسم الشهامة ، باسم الولاء، باسم الشريعة الإنسانية المقدسة، بحق السماء، بحق الأرض، بحق جميع ما يتجلى فيهما من قوى أتوسل إليك أن تلبي نداء الشرف، وأن تتحكم في شهوة كلها عار في عار".

و لم يكن في كل هذه التوسلات ما يجدي، فقد هدد "تاركان" الزوجة الجميلة الوفية "لوكريس" تهديداً قاسياً فقال لها: " ... إسكتي .. فالويل لك إذا حاولت أن تقاوميني سوف أقتلك في سريرك شر قتله، ثم آتي بأدنى عبيدك وأسفلهم فأقطع رأسه وألقي بجسده في أحضانك الميتة، ولسوف أقسم أغلظ الأيمان أني ما قتلتكما إلا لأني رأيتكما في أحضان بعضكما البعض".

وانقض الأمير المتوحش "تاركان" على الجميلة "لوكريس" فاغتصبها في عنف وقسوة وشهوة عمياء، ثم توالت الأحداث كالشلال الذي يتدفق بلا توقف، فالاغتصاب كان بداية المأساة وما جاء بعدها من أحزان عنيفة.

أرسلت الزوجة "لوكريس" خادماً لها ليدعو زوجها، وقالت للخادم هذه الكلمات: "تذهب إلى سيدك "كولاتان" وتقول له على

لساني ما يأتي: أيها الزوج النبيل زوجتك غير الجديرة بك تتحدث إليك وتقول: سلاماً أيها العزيز، إذا أردت أن تنظر إلى زوجتك لوكريس مرة أخيرة، فتنازل إلى المجيء إليها مسرعاً، فإنها تناديك بأعلى صوتها من قلب بيتك الشقي التعس" وأرسلت "لوكريس" تدعو والدها أيضاً ولبست ثياباً سوداء.

وجاء الأب والزوج ومعه صديقه "بروتس"! ، وتجمعت جماهير حاشدة من الناس أمام بيت "لوكريس"، وأعلنت أمام الجميع ما حدث لها وطلبت الانتقام لشرفها المهان، وعندما تأكدت من أن الجميع عرفوا جريمة الأمير "تاركان" واكتشفوا نذالته، أغمدت خنجراً في قلبها وانتحرت، وقبل أن تنتحر بلحظات أعلن لها زوجها أنه لا يعتبرها "مدانه" بأي شيء، وأنه يثق بها تمام الثقة، وأن الجريمة هي جريمة الأمير "تاركان" وحده، ولكن الزوجة "لوكريس" أصرت على الخلاص من حياتها وفاجأت الجميع بانتحارها بعد أن أشعلت فيهم رغبة "الانتقام" لما حدث.

وتنتهي هذه القصة الشعرية التي كتبها شيكسبير وقام الكاتب الفرنسي "أندريه أوبي" بتحويلها إلى مسرحية بإعلان الثورة ضد الأمير المغتصب "تاركان" ووالده الملك وخلعهما من عرش روما وقتلهما.

وكان هذا هو آخر العهد بالملكية في الدولة الرومانية كلها، فأصبحت البلاد منذ ذلك التاريخ تحت حكم القناصل الذين يتم اختيارهم عن طريق الشعب، وكأن "لوكريس" الجميلة كانت رمزاً للأمة الرومانية كلها، وكأن الاعتداء عليها اعتداء على الأمة، وهذا ما جعل "بروتس" صديق الزوج يقول وهو يحمل على يده جثة "لوكريس" بعد انتحارها موجهاً حديثه إلى الجماهير: "... إلى المسير

... إن امرأة كهذه ... عفيفة ونبيلة كهذه .. يغتصبها "تاركان" كل يوم .. إنها أمنا جميعاً .. إنها روما".

وهذه القصيدة القصصية التي أبدعها شيكسبير تصور لنا نموذجاً من "نساء شيكسبير" له طابع خاص متميز ، فهي المرأة التي جعلت جمالها يزداد روعه بالوفاء والعفاف، فهي مثال للفضيلة العالية، وانتحارها نوع من الاستشهاد دفاعاً عن هذه الفضيلة وتحريضاً على الانتقام لها من الأمير الذي أغتصب تلك المرأة، والذي اغتصب المرأة الشريفة هو نفسه الذي اغتصب الوطن قبل ذلك، وكان لابد من تضحية حتى يتم تصحيح الأمور، وقد قامت "لوكريس" بهذه التضحية ودفعت حياتها ثمناً للدفاع عن شرفها وثمناً لتخليص الوطن من "الطغيان" الذي كان يمثله الأمير "تاركان" وفي هذه القصة الشعرية نجد كثيراً من المعاني التي عزفها شيكسبير كالألحان الجميلة بعد ذلك في كثير من أعماله، ومن هذه المعاني أن كل جريمة لابد لها من عقاب ولا أحد يفلت من جريمته التي تظل تطارده حتى ينال جزاءه، وأن السعادة الإنسانية تخلق – دون قصد – أعداء لها من الذين يأكلهم الحسد والحقد والغيرة، فعندما ينجح الإنسان ويصل إلى السعادة الحقيقية فإن عليه أن ينتبه فسوف يظهر له أعداء من حيث لا يدري، وعليه أن يكون مستعداً لقتال هؤلاء الأعداء دفاعاً عن نجاحه وسعادته، فلا نجاح بدون أعداء، ولا سعادة بدون أن يكون لها حاسدون متربصون.

❖

الحسد والغيرة يكسبان أحياناً

الأسماء الواردة في هذا الفصل هي الأسماء التي وردت في الفصل السابق وأهمها:
الزوجة الوفية "**لوكريس**" التي تعرضت للاغتصاب والزوج "**كولاتان**" وولي عهد روما "**تاركان**" الذي اغتصب "**لوكريس**" .



هناك رأي يقول إن أي فنان مهما كانت عبقريتـــه، ومهمـــا كانت غزارة إنتاجه إنما يقدم في حياته عملاً فنياً واحداً، يقوم الفنـــان بالتعبير عنه تعبيراً يختلف في صورته وإن لم يختلف في فكرته الأصلية.

وبذلك نستطيع أن نقول إن الفنان يشبه الشجرة الكبيرة ذات الأغصان المختلفة .... فالشجرة واحدة دائماً والأغـــصان متعـــددة ومتنوعة. وأظن أن هذا الرأي صحيح، فالفنان الكبير يهتدي إلى أفكار أساسية في بداية حياته، ويظل مرتبطاً على الدوام بهذه الأفكار، والذي يزيد عليه بعد ذلك هو التجارب المختلفة التي تمر به كما تمـــر بكـــل إنسان، وهذه التجارب هي التي تجعل الفنان يعالج أفكاره الأساســـية الثابتة بطرق مختلفة، وتجعله يعبر عن تلك الأفكـــار بأعمـــال كـــثيرة متعددة، تبدو لنا من النظرة الأولى أنها أعمال بعيدة عن بعضها البعض ولا يربطها رابط واحد.

والحقيقة أن هذه الأعمال جميعاً تصدر عن نفس واحدة وعقل واحد وأفكار أساسية لا تتغير، وكل ما هنالك هو أن الفنان يتطور من الصبا والفتوة إلى النضج والاكتمال، ثم إلى خريف العمر حيث يميـــل كل شيء إلى الألوان الهادئة والخافتة والبعيدة كل البعد عـــن العنـــف والانفعال الشديد.

وهذه الحقيقة تنطبق تماماً على الشاعر الإنجليزي العبقري شيكسبير "١٥٦٤-١٦١٦" وهو الشاعر الذي يستحق أن نسميه باسم شاعر الإنسانية، لأن الإنسانية كلها في مختلف عصورها وأجيالها قرأت أشعاره وشاهدت مسرحياته أو بعضها على الأقل، ودائماً كان الإنسان يجد في أدب شيكسبير وفي الشخصيات التي قدمها في مسرحياته جزءاً من نفسه وجانباً من همومه العميقة وأفراحه الحقيقية.

وقد تحدثت في الفصل السابق بالتفصيل عن شخصية "لوكريس" التي صورها شيكسبير في قصيدة قصصية طويلة، ولوكريس هي المرأة الجميلة المخلصة الوفية العفيفة وزوجة الضابط الروماني الشجاع "كولاتان"، وكان الزوج غائباً عن منزله، حيث كان يعيش في معسكر على حدود بلاده استعدادا لمعركة ضد عدو خارجي قادم للغزو والسيطرة على روما، ولكن ولي العهد "تاركان" الذي كان مفروضاً أن يكون على رأس جيش بلاده للدفاع عنها ضد العدوان، تسلل في إحدى الليالي من معسكره وذهب إلى بيت الزوجة الجميلة الوفية "لوكريس" في غياب زوجها الذي هو ضابط من أشجع ضباطه وأفضلهم نبلاً ورجولة، وقام ولي العهد باغتصاب "لوكريس" وتتابعت أحداث القصة بعد ذلك، فانتحرت "لوكريس" بعد أن فضحت ولي العهد الذي أغتصبها وأعلنت جريمته على جمهور الشعب الذي اجتمع حول بيتها، وانتهت القصة بقيادة الزوج لثورة عامة ضد ولي العهد الذي أرتكب جريمة الاغتصاب ونجحت الثورة وتم القضاء النهائي على ولي العهد وأسرته ووالده الملك، فكأن "لوكريس" ضحت بنفسها في سبيل تطهير بلادها من الحكم الفاسد، ولم تكن تضحيتها لمجرد شعورها الشخصي بما أصابها من عار الاعتداء عليها واغتصابها من جانب ولي العهد الشرير.

وقصة "لوكريس" كتبها شيكسبير كما سبقت الإشارة في "قصيدة شعرية" وكتبها في أوائل حياته، وبالتحديد سنة ١٥٩٤ وكان عمره آنذاك ثلاثين سنة، ولم يكن قد قدم حتى ذلك الوقت إلى المسرح أكثر من ست مسرحيات تقريباً من المسرحيات الثماني والثلاثين المنسوبة إليه، أي أن شيكسبير قد قدم إلى المسرح بعد أن كتب قصيدته القصصية عن "لوكريس" اثنتين وثلاثين مسرحية بينها عدد من أهم مسرحياته وأكثرها شهرة وقيمة مثل "هاملت" و"عطيل" و"ماكبث" و"الملك لير" و"يوليوس قيصر" و"أنطونيو وكليوبطره" وفي هذه المسرحيات وغيرها نجد أن الأفكار التي عبر عنها شيكسبير في قصته الشعرية "لوكريس" تتكرر بصور متعددة أخرى في مسرحياته المختلفة مما يثبت أن شيكسبير مثل غيره من عظماء الفنانين كانت لديه أفكار أساسية ثابتة منذ البداية وأن ما كتبه بعد ذلك هو معالجات متعددة للأفكار الأولى في عقله وقلبه والتي كانت مسيطرة على نظرته للإنسان والحياة منذ البداية.

ونتوقف بعد ذلك أمام هذه الأفكار الرئيسية الواردة في قصيدة شيكسبير المسرحية عن المرأة الجميلة الوفية "لوكريس" وهي الأفكار التي ظهرت بقوة ووضوح وتألق في أعماله المسرحية الكبيرة التالية.

وأول هذه الأفكار أن الحوادث المفجعة في حياة الناس تبدأ دائماً في النفس الإنسانية عندما تولد في هذه النفس "فكرة شريرة"، فالأفكار الشريرة تدفع أصحابها إلى العمل والتصرف وتغري الناس إغراء شديداً بارتكاب الأخطاء على اعتبار أن هذه الأخطاء فيها متعة أو فيها منفعة. وهذه الفكرة حول تأثير الأفكار الشريرة على تصرفات الإنسان هي أقرب ما تكون إلى الفكرة الدينية التي تقول إن "الشيطان" هو الذي يسعى في الأرض بالفساد، ويقدم الإغراءات القوية إلى الناس

بأن يرتكبوا الأخطاء وأن يخرجوا على سواء السبيل، فالشيطان هو الذي "يوسوس" للناس، والوسوسة هي الصوت الخافت الهامس الذي يتردد داخل النفوس دون أن يسمعه سوى صاحب النفس التي تتعرض لهذه "الوسوسة"، وكأن الإنسان عندما يتحدث إلى نفسه وحده خاصة إذا كان هذا الحديث يدفعه إلى ارتكاب شرور وأخطاء، إنما هو في الحقيقة يستمع إلى صوت الشيطان في داخله، والشيطان فنان صاحب ذكاء وحيلة وقدرة على الإغراء وجعل جميع الخطايا التي يقوم بالتحريض عليها جذابة وجميلة، فالإنسان حين يفكر في الشر يكون في حقيقة أمره وفي داخل نفسه شخصين لا شخصاً واحداً، هذان الشخصان هما : الشيطان والإنسان.

ولهذا السبب نستطيع أن نقول دون خوف من الخطأ إن شيكسبير كان في أعماقه متديناً، وبالطبع فقد كانت ثقافته الدينية الأساسية هي الثقافة المسيحية، وبالمناسبة فقد كان شيكسبير موهوباً موهبة عبقرية، ولكنه لم يكن مثقفاً بنفس الدرجة فقد كانت ثقافته ثمرة جهده الشخصي وليست ثمرة تعليم طويل أو دراسة "أكاديمية" عميقة، ولم يكن معروفاً عنه أنه من أصحاب الثقافات الواسعة العليا، وكان يكتفي بقراءة المراجع الأساسية بالتراث الأوروبي القديم وهو التراث اليوناني والروماني، وبكلمات أخرى فإن موهبة شيكسبير كانت أعلى بكثير من ثقافته، والإلهام الذي كان يتلقاه من موهبته الاستثنائية كان أرفع بكثير من معلوماته ومطالعاته، والموهبة عندما تكون بحجم عبقرية شيكسبير "الربانية" فإن الثقافة بالنسبة لهذه الموهبة تلعب دوراً ثانوياً، هذا ما حدث بالنسبة لشيكسبير، إذ إنه كان موهوباً أولاً وثانياً وثالثاً ثم يأتي دور الثقافة ربما في الدرجة العاشرة. إنه مثل النحلة التي تنتج العسل وليست محتاجة إلى أن تتغذى عليه، والنحلة وشيكسبير معاً هما من عجائب صنع الله في مخلوقاته.

وأهمية هذه النقطة التي تشير إلى تواضع ثقافة شيكسبير – نسبياً– إلى جانب موهبته الهائلة تفيدنا في استنتاج ضروري هو أن الثقافة الدينية لشيكسبير كانت مقتصرة على ديانته المسيحية، فهو لم يتبحر مطلقاً في معرفة الأديان السماوية الأخرى مثل الإسلام واليهودية، وهو حتى بالنسبة للمسيحية اكتفى منها بأفكارها الرئيسية وبالتحديد فكرة أن الإنسان يقع في الخطيئة بتحريض من الشيطان وأن الخطيئة لابد لها من "تطهير" و"عقاب" وبذلك تكون حركة الشر الإنساني في العالم قائمة على ثلاث خطوات هي: وسوسة الشيطان للإنسان وتحريضه على الشر، ثم الوقوع في الخطيئة التي تؤدي إلى اضطراب الحياة.

ثم تأتي الخطوة الثالثة التي لا مفر منها في تاريخ جميع الشرور الإنسانية وهي الخطوة التي تتمثل في العقاب الذي يناله كل من يرتكب الشر، وبذلك يحدث التوازن في الحياة وتتحقق عدالة الكون كله.

ومن أهم المشاعر التي تمثل بيئة صالحة للشر عند شيكسبير هي تلك المشاعر التي تتعدد تسميتها بألفاظ مختلفة مثل الغيرة والحسد والطمع والطموح والأنانية والرغبة المحمومة في الحصول على ما في يد الغير حتى لو كان الإنسان في غنى عنه.

وأوضح الكلمات التي توضح معنى هذا الشر كله هما كلمتا : الغيرة والحسد ، فكثير من شرور الحياة تنبع كلها من هاتين الكلمتين وهما كلمتان شقيقتان، بل توأمان يولدان معاً وفي لحظة واحدة فالغيرة تودي إلى الحسد والحسد يؤدي إلى الغيرة ولا غنى لواحدة من هاتين الصفتين عن الأخرى.

والغيرة والحسد هما اللذان دفعا ولي العهد في روما "تاركان" في قصيدة شيكسبير القصصية عن "لوكريس" إلى التفكير في اغتصاب زوجة الضابط الشجاع "كولاتان" فقد أخذ ولي العهد يقول لنفسه في غيرة وحسد لماذا تكون لهذا الضابط زوجة رائعة الجمال والأدهى من ذلك أن تكون هذه الزوجة عفيفة وشديدة الوفاء لزوجها الذي أبعدته ظروف الحرب عنها إلى حين، أنها تنتظره في صبر وأمانة وحرص تام على ألا يمس أظافرها إنسان، لأن قلبها مليء بحب زوجها الغائب ، وعندما يكون الحب بهذه القوة وهذا الصدق فإن الحبيب – مهما غاب – يكون حاضراً على الدوام، وهذا المعنى هو الذي يعبر عنه الشاعر العربي الكبير الشريف الرضي في بيته الذي يقول:

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

و"الطلول" هي بيت الحبيبة، والشاعر هنا يقول إنه كان ينظر إلى بيت حبيبته بعينيه فلما ابتعد عن البيت و لم يعد يراه بعينيه أصبح يراه أيضاً ..ولكن بقلبه.

وقد كانت "لوكريس" في قصيدة شيكسبير ترى زوجها وحبيبها الغائب بقلبها، فهو حاضر على الدوام في حياتها رغم غيابه، وإذا كانت العين ترى إلى مسافات محدودة فإن المسافات التي يرى القلب فيها ما يحبه هي مسافات بلا حدود.

هذا الحب وهذا الجمال وهذا العفاف أشعل غيرة ولي عهد روما "تاركان" وأشعل الحسد في قلبه على الزوج السعيد وهو الضابط "كولاتان"، وكأن ولي عهد روما الذي كان من المفروض أن يصبح ملكاً بعد رحيل والده يشعر بأنه يملك القوة والسلطة، فكيف يكون على القمة وهو غير قادر على أن ينال شيئاً من تلك الزوجة الجميلة

الوفية ؟ إن "استعصاء" هذه الزوجة معناه أن قوة ولي العهد غير نهائية، وأنه رغم قوته هذه لا يستطيع أن يحقق رغبة له في أن ينال شيئاً من امرأة جميلة يشتهيها، وأن الزوج الضابط الذي يعمل تحت قيادة ولي العهد هذا قد حصل على "امتياز" لم يستطع ولي العهد أن يحصل على شيء منه هو امتياز الزوجة الجميلة الوفية له.

وفعلت مشاعر الغيرة والحسد والشهوة المتوحشة، فعلها فذهب ولي العهد إلى بيت الزوجة الجميلة الوفية، فاستقبلته بحسن نية كاملة وسمحت له بأن يبيت في قصرها كما طلب ذلك منها، وذلك تقديراً لمكانته ومترلته العليا، وثقة مطلقة منها بأن الرجل صاحب الموقع الرفيع لا يمكن أن يخطر على باله ارتكاب أعمال وضيعة وخسيسة.

وكانت الزوجة الوفية الجميلة على ثقة أن تصرفها هو التصرف الوحيد الذي يليق بها وبزوجها، فحسن استقبال الضيوف وخاصة من ذوي المكانة العالية هو جزء لا يتجزأ من الأخلاق الفاضلة، ولكن ولي العهد "تاركان" كان نذلاً وخسيساً فقام في منتصف الليل باقتحام غرفة نوم "لوكريس" واغتصبها بالقوة ولوث فراشها الشريف بفعلته الخسيسة، مما أدى بعد ذلك إلى الأحداث التالية، ومنها انتحار الزوجة الجميلة الوفية "لوكريس" غضباً واحتجاجا وخجلاً مما تعرضت له من اغتصاب، ثم جاء الانتقام والعقاب بالثورة ضد مرتكب جريمة الاغتصاب وهو ولي العهد، ونجحت الثورة وتم قتل ولي العهد واقتلاعه وهو وأسرته جميعاً من عرش روما وإقامة سلطة جديدة عادلة ونظيفة ومعادية لاغتصاب السلطة واغتصاب النساء.

هذه الفكرة نفسها، وهي فكرة الوقوع في الخطيئة بسبب الغيرة والحسد عالجها شيكسبير بصورة أخرى في بعض روائعه المسرحية التالية ومنها مسرحية "عطيل" زوج "ديدمونه" الجميلة الوفية

البريئة، وكان الحاقد الحاسد في هذه المسرحية البديعة هـــو "يـــاجو" صديق القائد العسكري الطيب النبيل الشجاع "عطيـــل" ولم يكـــن "ياجو" صديقاً فقط للقائد "عطيل" بل كان نائباً له وموضع ثقة قائده، ولكن "ياجو" أكلت الغيرة قلبه ومزق الحسد نفسه من "عطيل" القائد الناجح في عمله، والإنسان السعيد بزواجه من "ديدمونـــه" الجميلـــة العفيفة التي تحب زوجها كل الحب وتخلص له أشد الإخلاص، ومـــن هنا بدأ "ياجو" يدس على صديقه "عطيل" معلومات كاذبة توهمه بأن زوجته "ديدمونه" خائنة وغير مخلصة وأنها على صلة بعشيق لها وقـــد ظل "ياجو" يغذي هذه الفكرة في نفس "عطيل" حتى أصبحت فكـــرة مؤكدة وانتهى الأمر بقيام عطيل بقتل زوجته الوفية، وبعـــد قتلـــها اكتشف الحقيقة وعرف أنه كان ضحية للحسد والغـــيرة في نفـــس صديقه "ياجو" فما كان من "عطيل" إلا أن قام بقتل "ياجو" ثم انتحر هو نفسه .

وفكرة الغيرة والحسد اللذان يأخذان صورة الطموح تتكـــرر عند شيكسبير في مسرحية "ماكبث" وإن كان الهدف في "ماكبـــث" ليس اغتصاب امرأة وإنما هو اغتصاب العرش والسلطة، وهكذا فـــإن الفكرة الرئيسية في قصيدة "لوكريس" القصصية التي كتبها شيكـــسبير في بدايات حياته الفنية، تتكرر هي نفسها بصورة أوسع وأعمـــق في مسرحيات شيكسبير التالية، وهذه الفكرة هي أن الحـــسد والغـــيرة يكسبان أحياناً، ولكنهما يؤديان إلى الخطيئة، والخطيئة لابد لها مـــن تطهير وعقاب.

والفكرة في الأصل فكرة دينية، يستمدها شيكسبير من ثقافته المسيحية، ولكنه يعالجها إنسانياً وفنياً خاصاً بـــه دون أن يـــشير إلى الدين، لأنه فنان لا يكتب في الدين ولا عن الدين، ولكنه يكتب عـــن

الحياة الإنسانية، وإن كان المبدأ الأصلي القائم في أعماقه هو مبدأ ديني يؤكد أن الشيطان يدفع إلى الخطيئة وأن الخطيئة تنتهي بالعقاب.

على أن قصيدة شيكسبير القصصية عن الجميلة الوفية "لوكريس" فيها بعض الأفكار الأخرى التي عالجها شيكسبير مراراً بعد ذلك في أعماله المسرحية التالية، ومن أهم هذه الأفكار جناية "حسن النية" على الإنسان، إذا كان حسن النية كاملاً ومسيطراً على نفس صاحبه بصورة نهائية، فحسن النية إن لم يكن معتمداً على شيء من الحذر والتنبيه والاحتياط لابد أن يقود صاحبه إلى كثير من الآلام والكوارث، وفي العادة فإن أصحاب النيات الحسنة يكونون دائماً "طيبين" ولديهم تصور خاطئ عن الحياة والإنسان، فهم يتصرفون على أساس واحد هو أن الشر غير موجود في العالم، وأنه إذا كان موجوداً فإنه لا مبرر له، وهم يتصورون أنهم ما داموا لا يرتكبون شراً من أي نوع فمن الصعب أن يرغب أحد في إيذائهم أو إلحاق الضرر بهم، وهذا من الأوهام، فحسن النية وما يتفرع عنها من طيبة القلب وحب الخير والحرص على مساعدة الغير .. هذه الصفات كلها يتصور أصحاب النيات الحسنة أنها لا تثير غضب أحد ولا حسد أحد وأنها تضمن لصاحبها النجاة من مؤامرات النفوس الضعيفة ورغبتها القوية في إلحاق الأذى بأصحاب النيات الحسنة .

وإذا تركنا الفن والفلسفة وغير ذلك وأنصتنا ببساطة إلى صوت شيكسبير فإنه يقول لنا إن حسن النية الخالي من الحذر تنتج عنه كوارث إنسانية كبيرة، ورغم أن شيكسبير ليس واعظاً ولا يحب الوعظ ولا يمارس شيئاً منه على الإطلاق في أعماله الفنية الرائعة المتنوعة فإنه يكاد يقول لنا أحذروا من النية الحسنة التي لا يحيط بها إطار من التنبيه والحذر والتفكير في طبائع الناس وعواقب الأمور، فالنية

الحسنة تفتح أبواباً للشر والخطيئة وتثير في بعض النفوس حقداً وضغينة وتجعل نفوساً أخرى راغبة في هدم ما يعيش فيه أصحاب النيات الحسنة من رضا وانسجام روحي وثقة في غير موضعها بأن الشر لا يولد في النفوس دون سبب سوى الغيرة والحسد لأصحاب النفوس المليئة بالخير.

والذي يحدث في واقع الحياة هو أن الخير الذي يقدمه أصحاب النيات الحسنة قد يكون هو نفسه سبب الشر الذي يتحرك في النفوس، فعندما رضيت "لوكريس" بسماحه كاملة وحسن نية يخلو من أي حذر أو شك بفتح قصرها لولي العهد الغادر "تاركان" كانت بذلك تساعده - دون أن تدري أو تقصد - على اغتصابها وارتكاب جريمته ضدها، ولو أنها تخلت عن "حسن نيتها" لحظة واحدة وتساءلت : لماذا جاء ولي العهد إلى قصرها وهو يعلم أن زوجها غائب وأنها تعيش في هذا القصر وحدها مع وصيفاتها وخدمها ؟ .

ولماذا اختار ولي العهد قصرها بالتحديد ليقضي ليلته فيه، وكان لديه فرصة واسعة لاختيار أماكن عديدة أخرى لا تثير الشك والشبهة ؟ .. لو أن "لوكريس" صاحبة النية الحسنة سألت نفسها مثل هذه الأسئلة لأدركت أن وراء تصرفات ولي العهد نية الغدر والخديعة وارتكاب الشر والإثم، ولكنها فكرت بطريقة أخرى تماماً، وظنت أن اختيار ولي العهد لقضاء ليلته في قصرها هو تكريم لزوجها وتكريم لها.

وظنت أيضاً أن ترحيبها بولي العهد هو ما تمليه الأخلاق الرفيعة في حسن استقبال الضيوف ومعاملتهم معاملة راقية وطيبة وإشعارهم بأنهم ليسوا ضيوفاً بل هم أهل بيت ينزلون فيه على الرحب والسعة، وبذلك يكون "حسن النية" في صورته المطلقة هو باب لكارثة لا يستطيع أن يتجنبها صاحب النية الحسنة، وشيكسبير لا

يحضنا على أن نتخلى عن حسن النية فهو في فنه العظيم لا يحض على شيء ولا يدعو إلى شيء، ولكنه يصور الواقع الإنساني بصدق وعمق، ومعنى ذلك أنه يقول إن الدنيا لن تخلو أبداً من تلك المخلوقات الإنسانية التي تتمتع بهذه الفضيلة الرائعة وهي فضيلة "النية الحسنة" وعدم القدرة على رؤية الشر في داخل النفوس قبل أن يظهر هذا الشر بوجهه الصريح في واقع الحياة ومثل هذه المخلوقات الإنسانية الجميلة صاحبة النية الحسنة والتي لا تعرف الحذر لابد أن تتعرض لكوارث لا مفر منها وسوف تبقى الحياة على ما هي عليه وعلى ما كانت عليه دائماً، أي أن حسن النية لابد أن يثير الغيرة والحسد في بعض النفوس ولابد أن يؤدي إلى الخطيئة والجريمة والخداع والإثم.

ومن يريد أن يتعلم فليتعلم .

ومن لايريد فعليه أن يعاني ويتألم .

على أن هناك فكرة كبيرة وأساسية أخرى يصورها شيكسبير في قصيدته القصصية عن المرأة العفيفة الجميلة "لوكريس" وهي فكرة عالجها شيكسبير على نطاق واسع في أعماله التالية وفي العديد من مسرحياته الرائعة، وقد عالج شيكسبير هذه الفكرة بطريقته العجيبة، أي أنه لم يعالجها بطريقة مباشرة، ولم يضع تحتها خطوطاً حمراء تنبهنا إلى أهميتها بل ألقى بها إلقاءً سهلاً مندمجاً أشد الاندماج في غيرها من وقائع الحياة التي كان يحرص على تصويرها بصدق وبصيرة نافذة، وذلك دون أن يتدخل فيها بأي وعظ أو إرشاد أو تنبيه ، وكل ما نقوله عن هذه الفكرة هو استخلاص من شيكسبير، يستطيع شيكسبير لو كان حياً وقرأ ما نكتبه عنه ونستنتجه منه لقال : أنا مالي ..هذا ما

"استخلصتموه" أنتم من أعمالي، وغيركم يستطيع أن يستخلص منـــها ما يشاء من أفكار أخرى مختلفة.

هذه الفكرة تتصل بالسياسة، فولي العهد الذي اغتصب المـرأة الجميلة العفيفة "لوكريس" كان يثبت أن اغتصاب النساء هو وجه آخر من وجوه اغتصاب السلطة ومعنى ذلك ببساطة أن "الخطيئة" لا تتجزأ، وأن الذي يرتكب خطيئة واحدة ولو كانت بعيدة عن ميدان عملـه الأساسي، فإنه بذلك يضع أساساً للانهيار في حياته كلها ومعظم القادة والسياسيين والحكام الذين أخطأوا في الحب، أو حصلوا على نـساء بالمكر والخديعة والتآمر والدهاء، قد انهارت حياتهم السياسية وانتهت انتصاراتهم إلى دمار وخراب وهذا ما حدث لولي العهد الذي اغتصب "لوكريس" فمع جريمة اغتصابه للمرأة العفيفة بدأت سلطته تهوى حتى انهارت تماماً وضاعت منه ومن عائلته، ففقد حياته وسلطته وقـضى على نفسه وأسرته. و"أنطونيو" عندما بدأت علاقته الآثمة مع كليوبطرة كان قد بدأ في نفس اللحظة يفقد سلطانه وسلطته، وعلاقة "أنطونيــو بكليوبطرة" كانت آثمة - على الأقل في بدايتها — لأن "أنطونيو" كان متزوجاً من زوجة محبة وفية تنتظره في روما، وفي مسرحية "هاملــت" نجد أن عم هاملت قد قتل أباه الملك بالسم وتزوج من امرأته، أي أم هاملت، وبذلك أصبح العم ملكاً بعد أن قتل أخاه وهو والد هاملت، وتزوج أم هاملت وهي المرأة التي كان يهواها، وانتهى ذلـك كلـه بكارثة أدت إلى مقتل العم الخائن وانهيار سلطانه.

هل نستطيع أن نقول أن شيكسبير يضع يده على فكرة كبرى تقول إن السياسة والسلطة عندما يرتبطان بالغدر والخيانــة والحـسد والغيرة، ويرتكب القائد أو الحاكم أو السياسي جرائم تخل بالـشرف والطهارة... إذا حدث هذا فإن السلطان ينهار والحكم يزول واللعنـة

تحل ... إذ لابد أن تكون السياسة عملاً فيه شرف أو استقامة ونبل وترفع عن الصغائر ؟!

نستطيع أن نقول ذلك طبعاً ولدينا أدلة قوية من أدب شيكسبير أولها قصة اغتصاب "لوكريس" وما انتهى إليه ولي العهد الذي اغتصبها من نهاية تعيسة بفقدان سلطته وانهيار عرشه وأسرته، فالغيرة والحسد وما يتفرع عنهما يكسبان أحياناً ... ولكن الخسارة الكبرى لابد أن تأتي في نهاية الطريق وكل أصحاب السلطان إن لم يتخلصوا من الصغائر ويسيطروا على وساوس الشيطان فإن المصير معلوم ومحتوم ولا مفر منه وهو الخسارة النهائية والفادحة.

نستطيع أن نقول هذا على لسان شيكسبير، ولكن شيكسبير نفسه – لو استطاع – سوف يؤكد لنا أنه لا علاقة له بما نقول، فإن مهمته العليا كانت هي تصوير الحياة والإنسان كما هما عليه، وأنه لم يفكر أبداً في أن يقدم "العبرة" أو يلقي التحذير لأي إنسان .

❖



الزواج الثاني ..
قبل أن تجف الدموع

أهم الأسماء الواردة في هذا الفصل:

١ - الملكة "**جرترود**" ــ أم الأمير هاملت وزوجة الملك الراحل هاملت.

٢- الملك **هاملت**.

٣- الأمير **هاملت** ابن الملك هاملت.

٤- الملك "**كلاوديوس**"شقيق الملك هاملت وعم الأمير هاملت وزوج "جرترود" بعد وفاة زوجها الملك .

هل من حق المرأة أن تتزوج للمرة الثانية إذا ما فقدت زوجها بسبب الموت أو الانفصال عنه أو الاختلاف معه أو غير ذلك من الأسباب؟..الإجابة طبعاً هي أن المرأة من حقها أن تفعل ذلك خاصة في العصور الحديثة التي تخلصت الإنسانية فيها من التقاليد القاسية التي كانت تلحق بالمرأة أذى شديداً ، حيث كانت بعض التقاليد في بعض الحضارات القديمة تفرض على المرأة ألا تتزوج بعد رحيل زوجها، بل كانت بعض التقاليد الغريبة في بعض البلاد تفرض على المرأة أن يتم دفنها حية مع زوجها بعد موته، وذلك كان من أبشع الصفحات في تاريخ الظلم الذي تعرضت له النساء في بعض فترات الظلام والظلم في تاريخ الإنسانية.

ولكن العصور التي تلت هذه الفترات المظلمة حملت للمرأة بعض الإنصاف والاحترام لإنسانيتها وكرامتها وحقوقها الطبيعية، وكان من أكثر العوامل التي هذبت الإنسانية ظهور الأديان السماوية التي أنقذت المرأة مما كانت تتعرض له في العصور الماضية السحيقة من ظلم مبين في العصور الوثنية السابقة على ظهور الأديان. و قد أصبح "الزواج الثاني " للمرأة من الأمور العادية التي لا تثور حولها المشاكل ، فنظرة الناس إلى الزواج الثاني لم يعد فيها ما كان موجودا في الماضي من رفض و استنكار ، وكثيرا ما يكون الزواج الثاني للمرأة سعيداً

ويكون زواجاً طبيعيا ومستقرا وناجحا ، خاصة إذا تم هـــذا الـــزواج الثاني في ظروف طبيعية تفسره وتبرره . وفى حياة الناس العـــاديين لا تبدو هناك أية مشكلة في الزواج الثاني للمرأة. ولكن المشكلة تنشأ في العادة إذا كان الزواج الأول له وضع خاص متميز . كان تكون المرأة متزوجة من رجل له مكانة كبيرة في مجتمعه وبلاده. وفى النصف الثاني من القرن العشرين كانت هناك قصص كثيرة من هذا النـــوع. فبعـــد مقتل الرئيس الأمريكي اللامع جون كيندى سنة ١٩٦٣ ، عاشـــت زوجته الشهيرة جاكلين كيندى عدة سنوات دون زواج ، وكانـــت "جاكلين كيندى " نموذجا عاليا للجمال والأناقة في عـــصرها، أي في الستينيات والسبعينيات ، وقد ظن الناس بعد مقتل زوجهـــا الـــرئيس "كيندى" أنها سوف تبقى بلا زواج، وفاء لذكرى زوجهـــا العظـــيم الراحل وحرصا منها على التفرغ لأبنائها منه ، وتركيزا لجهدها على رعاية هؤلاء الأبناء، خاصة أنهم عند مقتل "كيندى" كـــانوا أطفـــالا صغارا يحتاجون إلى الرعاية والحنان ، ولكن "جاكلين كيندى" لم تلبث أن تزوجت من المليونير اليوناني الشهير "اوناسيس" واستمر هذا الزواج عدة سنوات وان كان قد انتهى بالانفصال، مما يدل على أن الـــزواج الثاني لجاكلين كيندى لم يكن سعيدا أو لم يحقق النجاح الذي كانت جاكلين تنتظره وتتمناه.

وقصة جاكلين كيندى تشبه في بعض جوانبها قصة الـــسيدة "ناريمان" الزوجة الثانية للملك السابق فاروق، فبعد تنازل فـــاروق ـــ مرغما ـــ عن العرش في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ سافر فاروق إلى منفاه في إيطاليا ومعه زوجته ناريمان ، ولكن الزواج بين ناريمان و فاروق لم يستمر طويلا، فعادت ناريمان إلى مصر وحصلت على الطلاق وبعـــد فترة تزوجت للمرة الثانية من الدكتور أدهم النقيب، ولكـــن هـــذا الزواج لم يستمر طويلا وانتهى أيضا بالطلاق.

ومشكلة المرأة والزواج الثاني هي إحدى المشاكل التي أثارهـا شيكسبير في مسرحية من أشهر مسرحياته وهى مسرحية "هاملـت" وقد كتب شيكسبير هذه المسرحية حوالي سنة ١٦٠١، وإن كان هذا التاريخ ليس ثابتا ، فهناك من الباحثين والنقاد من يقول:إنه كتبها سنة ١٥٩٨، وهناك من يقولون : إنه كتبها بعد ذلك بسنوات . فـالكثير مما يتصل بشيكسبير لا يزال من الأمور الحائرة التي لم يستقر الباحثون على رأى واحد حولها. فهناك آراء متعددة في القضايا"الشيكسبيرية"، وكل رأى يستند إلى أدلة وبراهين تختلف عما تقدمه الآراء الأخرى ، وليس بين جميع الآراء ما هو نهائي ومتفق عليه ، ولكن تاريخ ١٦٠١ هو أرجح التواريخ المعقولة لكتابة مسرحية" هاملت" وعرضها علـى المسرح لأول مرة.

وإذا كانت هناك اختلافات متعددة حـول تـاريخ كتابـة المسرحية، فهناك ما يشبه الإجماع على قيمة هذه المـسرحية في أدب شيكسبير وفى الأدب الإنساني كله ، وإلى ذلك يشير الدكتور محمـد عوض محمد أحد الذين ترجموا مسرحية هاملت إلى العربيـة، وقـد تعددت هذه الترجمات حتى وصلت إلى أكثر من خمس ترجمات ، ومن أبرز هذه الترجمات ترجمة الدكتور محمد عوض محمد، ويقول الدكتور عوض في مقدمة ترجمته لمسرحية "هاملت": "إن مسرحية هاملت لهـا أكبر الحظوة عند جمهرة قراء شيكسبير في جميع أنحاء العالم ، بـل إن الباحث الألماني "شوكنج" يصفها بأنها أعظم أثر يعرفه الأدب، وليس تفضيل أثر واحد على النتاج العالمي كله بالأمر الذي يسهل التـورط فيه ، وربما كان أقرب إلى الدقة ما قاله "فرتى" في تعليقاته وشـروحه على مسرحية "هاملت" إذ يقول: " إن هاملت هي أشهر مسرحية في اللغة الانجليزية .وأكثرها حظوة عند الجماهير،وفى نظر الكثرة العظمى

من القراء والذين يرتادون المسرح ، وليس لها ما يعادلها في هذه المكانة حتى بين أعمال شيكسبير نفسه".

وسوف نتوقف في حديثنا اليوم عند شخصية الملكة "جرترود" ملكة "الدانمرك" ووالدة الأمير "هاملت" . وإحدى الشخصيات التي تدور حولها مسرحية هاملت. وخلاصة مسرحية هاملت، أن الملك "كلاوديوس" ملك الدانمرك قد تولى العرش بعد موت أخيه الملك "هاملت" وكان الملك الراحل له ابن وحيد هو الوريث الشرعي للعرش ،وقد اختار الملك الراحل هاملت ، أن يسمى ابنه باسمه .أي أن ولى العهد ، وهو بطل مسرحية شيكسبير اسمه الأمير "هاملت" ابن" الملك هاملت" . وبعد موت الملك هاملت بأسابيع قليلة حل محله على العرش أخوه "كلاوديوس" ولم يحل الملك الجديد محل أخيه الراحل فقط ، بل تزوج من زوجته "جرترود" وهي أم "الأمير هاملت" الذي هو ابنها الوحيد . وكان الأمير "هاملت" شابا نبيل الأخلاق واسع الثقافة لديه ميل إلى التفكير العميق في كل أمور الحياة . وقد أحس بهاجس قوى يقول له: إن موت والده لم يكن بسبب "لدغة " ثعبان كما قيل له ، بل إن هناك مؤامرة أدت إلى موت والده مقتولا ، وأن الذي ارتكب الجريمة هو الملك الجديد، وذلك ليحل محل أخيه القتيل فوق العرش، وليتزوج من زوجته أيضا. وكان هاجس المؤامرة قد ملأ عقل الأمير هاملت وقلبه ، حتى وصلت الأمور به إلى حد اليقين الثابت بأن والده قد مات قتيلا وأن عمه قد اغتصب العرش وتزوج أمه . وقد وصل إلى اليقين بأن ما حدث كان مؤامرة ، وذلك بعد أن ظهر له شبح أبيه في منتصف الليل ، وتحدث إليه هذا الشبح كاشفا كل تفاصيل المؤامرة . فقد قال الشبح لابنه هاملت "من ترجمة الدكتور محمد عوض محمد ":

الآن أنصت إلي يا هاملت . لقد أذاعوا أني لدغني ثعبان وأنا راقد في البستان ، وهكذا تعرض سكان الدانمرك جميعا للخداع ، وامتلأت آذانهم بقصة مزيفة عن وفاتي ، والآن فاعلم أيها الشاب النبيل أن الثعبان الذي لدغ أباك وأفقده الحياة هو الذي يلبس تاجه اليوم . إنه عمك . ذلك الفاسق والوحش الفاجر. فقد لجأ إلى السحر والمكر واستخدم الهدايا المنطوية على الخيانة. ويااله من مكر دنيء ويالها من هدايا تعيسة ، فقد أمكنه بهذه الوسائل أن يغوى وأن يستميل إلى شهواته الدنسة مليكتي المتسمة بأكبر مظاهر الفضيلة . فيالها من خيانة يا هاملت ، وياله من جحود. فقد انصرفت عني مليكتي ..... زوجتي ، وأنا الذي بلغ من وفائه في الحب أنه لم يحد لحظة عن اليمين التي أقسمها عند الزواج ".

ثم يقول الشيخ لابنة هاملت :" كنت راقدا في بستاني ، كعادتي بعد ظهر كل يوم. فتسلل عمك في ساعة أمني وراحتي ، يحمل قارورة من عصير السم اللعين ، وصب في تجاويف أذني ذلك السائل الفتاك، الذي من شأنه أن يلحق أشد الضرر بدم الإنسان ، إذ يسرى في منافذ الجسد ومسالكه الطبيعية، بسرعة تحاكى سريان الزئبق ، فلا يلبث مفعوله العنيف أن يجعل الدم اللطيف المنعش كأنه سائل حامض ألقى في اللبن.كذلك كان تأثير السم في جسدي الناعم ، فلم يلبث أن شاعت فيه الجروح والقروح ، كأني "مجذوم " صاحب جلد ذميم وكريه . هكذا امتدت إلى يد أخي وأنا نائم فسلبتني الحياة والملكة مرة واحدة . فيالها من مأساة مخيفة مرعبة إلى أقصى درجات الرعب . فإذا كانت فيك من الحب والوفاء لأبيك بقية فلا تسكت عن هذا الذي حدث . لا تسمح لسرير الملك الدانمركي أن يصير فراشا للفسق والفجور اللعين ، ولكن أيا كانت السبيل التي تسلكها في هذا الأمر ، فلا تدنس فكرك ، ولا تحدث نفسك بتدبير ما يؤذى أمك . دع

عقاهما للسماء ، ولتلك الأشواك الكامنة في صدرها ، فحسبها ما تلقاه من وخزات ولدغات . والآن فلأودعك فورا .. الوداع .. الوداع .. واذكرني يا هاملت ..

وبعد حديث شبح الأب إلى ابنه الأمير هاملت ، أصبح الأمير الشاب على يقين من أن والده الملك قد مات قتيلا وضحية لمؤامرة كبيرة قام بها عمه للاستيلاء على عرش أخيه والزواج من زوجته . وقد كان هاملت منذ عرف بموت أبيه يشك في الأمر ، وكان تفكيره يتجه إلى أن عمه متآمر على أبيه وقاتل له ، ولكن هذا الشك تحول إلى يقين بعد أن جاء إليه شبح أبيه وأخبره بتفاصيل ما حدث وطلب منه الثأر والانتقام . وعلى هذا الأساس من الاتهام بالمؤامرة والرغبة في الكشف عنها والثأر منها ، تدور كل الأحداث التالية العنيفة في مسرحية " هاملت "، والتي تنتهي بمقتل الملك المتآمر "كلوديوس" ومقتل الملكة ومقتل هاملت نفسه ، ومقتل عدد آخر من شخصيات المسرحية الرئيسية ، فالمسرحية غارقة في الدماء منذ البداية حتى النهاية .

ونعود إلى الملكة "جرترود" والدة هاملت ، وهى موضوع هذا الفصل ، فقد تقبلت هذه المرأة أن تتزوج بشقيق زوجها الأول ، وان ترضى به ملكا على العرش ، وأن تكون هي الملكة كما كانت من قبل مع الملك الراحل . وأول ما نلاحظه بالنسبة للملكة "جرترود"أن المرأة إذا كانت صاحبة شخصية متميزة وكانت زوجة لشخص متميز ، فإنها لا تحقق النجاح والسعادة في زواجها الثاني،إذا ما حدث في حياتها ما يؤدى إلى فقدان زوجها الأول. فالزواج الثاني للشخصيات النسائية المتميزة ليس من السهل أن يستمر أو يستقر . وهذا ما حدث بالنسبة للملكة " جرترود" حيث كان زواجها الثاني بداية للمأساة التي

تعرضت لها وانتهت بموتها ومقتل زوجها الثاني ومقتل ابنها الوحيد هاملت .

التسرع في الزواج الثاني للملكة "جرترود" هو الخطأ الأول الذي ارتكبته الملكة ، فقد كان وضعها الرفيع كملكة مع زوجها الراحل يفرض عليها التأني الشديد في الموافقة على الزواج الثاني من الملك الجديد. ولكنها نسيت واجبها المعنوي تجاه زوجها الراحل وأسرعت في الزواج مرة أخرى . وهذا يعني أنها فكرت في المتعة والسعادة الشخصية بالنسبة لها و لم تفكر في شيء آخر . ولعلها أرادت أيضا أن تحتفظ بلقب "الملكة" وأن تتجنب إطلاق لقب "ملكة سابقة" عليها ، أو لعلها خافت من أن يتزوج الملك الجديد من امرأة أخرى ، فتصبح هذه الزوجة هي الملكة ، أما "جرترود" فتختفي في الظل والنسيان والإهمال التام. ومن الواضح أن الملكة "جرترود" هي من نوع النساء المشغولات بأنفسهن. وهذا الانشغال بالنفس يبعدها عن الاهتمام بواجباتها الأخرى الأساسية . فقد كان الرحيل المفاجئ لزوجها الأول كفيلا بأن يشغلها عن التفكير في الزواج السريع مرة أخرى . خاصة أنها كانت موضع الحب الكبير والرعاية الكاملة من الزوج الأول وهو الملك هاملت. وكان على الملكة "جرترود" من ناحية أخرى أن تفكر بشيء من التركيز والعمق في مصير ابنها الوحيد الأمير الشاب "هاملت" الذي كان من المفروض أن يرث عرش أبيه ، ولكن عمه سارع إلى اعتلاء العرش وبقى الأمير هاملت وليا للعهد كما كان في عهد أبيه ، ولكي يقوم العم المغتصب للعرش بإعطاء مزيد من الشرعية والدعم المعنوي لنفسه فقد تزوج من زوجة أخيه الملكة "جرترود" ووافقت الملكة على هذا الزواج و لم تعارضه و لم تطلب لنفسها مهلة كافية لكي تهدأ أحزانها على زوجها الملك الراحل ، ولكي تفكر في مصير أبنها الأمير الشاب وفى مشاعره القوية تجاه أبيه.

وكان من مظاهر الانشغال بالنفس والبحث عن السعادة الشخصية دون مراعاة أي واجبات أساسية أخرى ، أن هذا الزواج قد تم بسرعة شديدة تثير الشك والريبة ، وهذا ما يتحدث به الأمير هاملت مع نفسه في لوعة شديدة وهو ينزف من الألم والتعاسة ، ولولا حرصه على عقيدته الدينية لأقدم على الانتحار وتخلص من حياته واستراح مما يعانيه من آلام نفسية عاصفة ، وهذا بعض ما يقوله الأمير هاملت لنفسه حول موقف أمه حيث يعبر عن آلامه التي لا يكاد يحتملها بسبب هذا الموقف :" ليت هذا الجسد الصلب شديد التحمل يذوب ويتحلل حتى يصبح ندى، أو ليت الإله الأبدي لم يقض قضاءه الصارم بتحريم الإقدام على قتل المرء لنفسه. رحماك اللهم . ما أقسى ما تبدو تقاليد هذا العالم بالية عتيقة، فهي تقاليد لا تجدي نفعا ولا يمكن استساغتها. فما أحقر الدنيا. إن هي إلا حديقة مليئة بالحشائش الضارة والنباتات الوحشية الغليظة ". ثم يقول الأمير هاملت لنفسه أيضا ، مشيرا إلى زواج أمه من عمه " أيمكن أن يصل الأمر إلى هذا الحد ، ولما يمضى على رحيل أبى أقل من شهرين .. وكان ملكا .. أي ملك . لشد ما كان يحب أمي،حتى ليأبى على نسيم السماء أن يلامس وجهها بخشونة . فيا للسماء ويا للأرض!

لقد كانت أمي تتعلق به وهى تعانقه، وكان غرامها به ينمو ويزداد بما يتغذى به من وفاء أبى وحبه.. بعد شهر قصير ، وقبل أن يبلى النعلان اللذان سارت بهما وراء نعش والدي المسكين ، وهى تسكب الدمع كالأمطار . ثم هي بعد ذلك تتزوج عمى شقيق أبى .. تزوجته في غضون شهر. تزوجته قبل أن تجف في عينيها تلك الدموع الكاذبة التي ذرفتها على أبى. فيا له من زواج سريع ينطوي على الإثم، حيث تمضى أمي إلى فراش مدنس وخبيث. إن هذا الشر لا يمكن أن يؤدى إلى خير .. فتحطم أيها القلب . فلابد أن ألزم الصمت!!

هذا هو ما كان يشعر به الأمير هاملت تجاه أمه ، وهـذا مـا جعله يشعر بالاكتئاب والحزن ، وكان هذا الزواج السريع لأمه مـن عمه سببا قويا يقوده إلى الإحساس بأن موت أبيه لم يكن طبيعيا بـل كانت وراءه مؤامرة، وأن أباه إنما مات مقتولا بيد عمـه ، وأن أمـه شريكة في الجريمة ، وأنها كانت على علم بـالمؤامرة مـن أولهـا إلى آخرها. ولكن مسرحية شيكسبير ليس فيها ما يدل على أن الأم قـد اشتركت في المؤامرة ، أو أنها اكتشفتها بعد وقوعها أو كانت علـى علم بها . ومما يجعلها أقرب إلى البراءة من الاشتراك في الجريمة ما سمعه الأمير هاملت من شبح أبيه ، حيث أوصاه الشبح بأن ينتقم ويثـأر ، ولكنه أوصاه بألا يمس أمه بسوء . ولم يقدم الشبح أي توضيح لهـذه الوصية الحازمة بإعفاء الأم من الانتقام والثأر ، ولكننـا نـستطيع أن نستنتج من هذه الوصية أن الشبح كان يعتقد في براءة الزوجـة مـن التآمر ، وأن التهمة المناسبة لما فعلته هي أنها استجابت لإغـراء العـم القاتل ، فتزوجته ونسيت عهود حبها للأب القتيل . وهذه التهمـة لا يمكن وصفها بالتآمر أو الاشتراك في الجريمة ، فهي تهمة أخرى أقـل خطورة إذ إنها تتصل بالزواج السريع وهو ما يمكن ترجمتـه بالخيانـة العاطفية، وهي تهمة أقل من التآمر والاشتراك في القتل . ونكاد نشعر بأن التهمة لا تتعدى أن تكون هذه المرأة امرأة "خفيفة" وأن عواطفها ضعيفة وغير ثابتة . فهي تنسى زوجها الحبيب بعد شـهر واحـد ، وتتزوج ممن حل محله . ولو أن هذه المرأة كانت شريكة في الجريمـة لحاولت أن "تدارى" ذلك بالتأني في الموافقة على الزواج الجديد. ولكن تسرعها وإن دل على خفتها وعدم ثبات عواطفهـا وخلـو هـذه العواطف من العمق والقوة ، إلا أنه يدل أيضا علـى أنهـا لم تكـن متورطة في شيء كبير تحاول أن تخفيه وتبعد الأنظار عنه ومما يؤكـد هذه الفكرة أيضا أنها حاولت أن تعاقب ابنها الأمير "هاملت" علـى

حزنه الشديد بسبب موت أبيه ، مما جعله يغرق في الحزن تماما وينسى كل شيء آخر في حياته ، فظنت الأم أن أبنها الوحيد سوف يقضى عليه حزنه ويفسد حياته بصورة كاملة . ولذلك فهي تقـول لابنـها الأمير عندما رأته في هذه الحالة " أي هاملت الكريم انزع عنك ثياب الحداد المظلمة ، ودع عينك تنظر إلى عمك ، ملك الدانمرك ، نظـرة الصديق لا تمكث إلى الأبد مطرقا بعينك ، تبحث عن والدك الشريف في تراب الأرض . إنك لتعلم أنه من المقرر المألوف أن كل حي مصيره الموت ، ولابد أن تسلمه الحياة الدنيا إلى الحياة الأبدية".

هذا ما تقوله الأم لأبنها الأمير هاملت ومثل هذا الحـديث لا يصدر عن امرأة مرتبكة سيئة النية ، ولكنه يصدر عن امـرأة عاديـة طبيعية تريد أن تأخذ الحياة كما هي عليه ، وتريد أن تتقبل الظروف والأحداث دون معارضة أو تمرد وبالنسبة لهذه الأم فإنها بعـد وفـاة زوجها ،والد هاملت "استخسرت" جمالها ومركزها كملكة ، وفضلت أن "تساير" الوضع الجديد ، وتنسى حزنها على زوجها الراحل ، إذ إنه من وجهة نظرها حزن لا فائدة منه ،فهو لن يعيد إليها ما ضاع ، ولن يحفظ عليها ما هو متاح في يديها الآن .. إنها ببساطة امرأة محبة للحياة متقبلة لها ومقبلة عليها وهى لا تفكر كثيرا في الأمور ، ولا تحـب أن تتحمل عبء المشاعر الحزينة والعواطف المتألمة ، فذلك ليس من طبعها وليس من الصفات التي تتميز بها شخصيتها فقد كانت تحب زوجهـا الأول وهو حي وكانت تتعلق به وهو يملأ الدنيا بقوة شخصيته ونفوذه وسلطانه أما وقد مات ، وصدقت هي قصة "لدغـة" الثعبـان الـتي "اخترعها" أخوه ليفسر بها موته وليحل محله في فراشه الزوجي وعرشه معا، فهي لم تحاول أن تفكر في القصة وأن تتأكد من صحتها وأنهـا ليست خيالا كاذبا يخفى وراءه جريمة قتل ، بل استسلمت هذه المرأة للواقع وانجذبت إلى ما كان يقوله لها الأخ الذي قتل زوجها من كلام

ناعم وحديث معسول صدقته ، لأنها تريد أن تعيش كما كانت في نعمة وسعادة ومركز ملكي مرموق، ولا تريد أن تخسر شيئا أو تحس بأن هناك ما ينقصها ويغير حياتها بعد رحيل زوجها الأول ، إنها امرأة تأخذ أمور الدنيا ببساطة واستسهال وميل إلى تصديق كل شيء كما يبدو أمامها في الظاهر وقد خدعها الملك القاتل الذي تزوجته بعد رحيل زوجها الأول، وتزوجته في سرعة شديدة شعر معها ابنها الأمير هاملت بالشك ولكنها هي ، بطبيعتها التي تقوم على التسليم بالواقع والاستسلام له ، لم تشعر بأي شك في أي شيء .. حاول هذا الملك الجديد الذي تزوجته أن يتظاهر أمامها بالاعتراض على حزن ابنها الشديد والاستثنائي على أبيه ، وأخذ يتحدث عن هذا الأمر بخبث ومكر ودهاء حيث يقول للأمير هاملت أمام أمه:" إن واجبات الحداد التي تفي بها لوالدك يا هاملت إنما تنم عن روح كريمة وطبع حميد ، ولكنك تعلم أن أباك قد فقد أباه ، وذلك الأب فقد والده أيضا ، ولابد للابن أن يقيم مراسم الحداد فترة من الزمن ، وفاء بحق الآباء على البنين ، غير أن الإصرار على الحزن والإمعان فيه خطة تنطوي على العناء البعيد عن الإيمان . إنه حزن لا يتسم بالشهامة والرجولة ، ويكشف عن إرادة عاصية لأحكام السماء وقلب غير عامر بالإيمان ، وعقل ساخط كثير الضجر ، وهو حزن يكشف عن فهم ساذج لم يتثقف ثقافة كافية.

لماذا نعترض بحماسة ، وتذهب نفسنا حسرات على أمر نعلم أنه لا مفر منه ، وأنه أكثر شيوعا وانتشارا من أي شيء نعرفه ألا وهو الموت؟

إن هذا السلوك هو إثم في حق السماء وإثم في حق الموتى، وإثم في حق نظام الكون، وهو أمر بادي السخف في نظر العقل الذي يقرر

دائما أن موت الآباء أمر شائع ، ولطالما نادى العقل منذ أول ميت إلى آخر من لقى نهاية عمره:" هذا ما لابد منه " لهذا نرجوك ــ يا هاملت ــ أن تطرح هذه الأحزان التي لا تجدي ، واعتبرني لك بمثابة الوالد ، وليعلم العالم كله أنك أدنى الناس إلى وراثة عرشنا وأن ما نكنه لك من الحب المجيد ، لا يقل عما يكنه صدر الوالد البار بولده.إنــك ــ يــا هاملت ــ أسمى من في بلاطنا مقاما .. وأنت قريبنا وابننا".

هذه الكلمات المليئة بالتدفق والتمثيــل الــدقيق لــدور الأب الزائف " جازت" على الأم فتقبلتها بقبول حسن ، واقتنعت بكل مــا جاء فيها ، ولكنها لم تلق أي قبول من الأمير الشاب هاملت الــذي جمع من الأدلة والبراهين ما أوصله إلى اليقين بأن أباه مات قتــيلا ... وأن القاتل هو عمه وعندما يبلغ الإحساس إلى هذه الدرجة من الثقــة في صدقه ، تصبح كلمات العم المليئة بالمواساة ، والحنان كلها تزييفــا في تزييف.

وهكذا سارت حــوادث المأســاة في مــسرحية "هاملــت" لشيكسبير، فانتهت بمقتل الملك والملكة وهاملت نفسه وعدد آخر من شخصيات المسرحية الرئيسية، لأن الجريمة التي ارتكبها الملك والخطأ الذي وقعت فيه الملكة بسرعة الزواج من القاتل .. كل هذا كان يحرك الأحداث لكي تصل إلى نهايتها المأساوية .

ولا شك أن شخصية الملكة "جرترود" تعتبر من الشخــصيات النسائية الثانوية في أدب شيكسبير ، ولكنها مع ذلك امرأة لها مغــزى ونستطيع أن نشير إلى بعض المعاني في هذا المغزى العــام .. فــالزواج الثاني للمرأة من وجهة نظر الذوق والدين والأخلاق والعواطف ينبغي ألا يتم بسرعة بعد موت الزوج الأول ، ففي ذلك ما يثير الشبهات ، ويغضب الذين ينكرون على المرأة ، وعلى أي إنسان، أن يكون فاقدا

لفضيلة الوفاء ، والزواج الثاني إذا تم بسرعة شديدة فإنه يتعرض للانهيار بنفس السرعة ، ومن ناحية أخرى فإن المرأة إذا كانت متزوجة من شخصية مهمة ، وكانت تشغل بذلك مركزا عاما أساسيا، مثل مركز الملكة فإنها ينبغي أن تكون على شيء من قوة الشخصية والقدرة على التحكم في أهوائها ورغباتها، وإلا تعرضت للاضطراب والمخاطر ، والزوجة التي لا تدرك أهمية موقعها ، إذا كانت في موقع له مثل هذه الأهمية ، فإنها تقود نفسها وأهلها إلى المهالك .

وقد كانت الملكة "جرترود" من هذا النوع الأخير فهي لم تكن مجرمة ولا شريكة في مؤامرة لقتل زوجها ، ولكنها كانت مهملة ومستسلمة ومشغولة بنفسها ورغباتها الخاصة وكانت عواطفها ونظرتها للأمور بعيدة عن أي عمق مما جعلها تقبل إغراء الأخ القاتل فتتزوج منه بسرعة شديدة بعد رحيل زوجها دون أن تحسب حسابا لما يترتب على ذلك من شبهات وتساؤلات ، مما أوحى لابنها الأمير هاملت بأن يشك في أنها متآمرة وشريكة في الجريمة .

لقد كانت امرأة عادية لا تنظر إلى أبعد من فساتينها ومركزها وغرفة نومها ، ولم تفكر أبدا في أنها ملكة وزوجة ملك وأم أمير ذكي لامع مليئ بالحيوية والنشاط والعواطف المثالية الحساسة ، مما كان يجرحه كثيرا أن تتصرف أمه بالخفة التي تصرفت بها ، لأنها امرأة مقبلة على الحياة إقبالا سطحيا وقابلة "للاستغلال" من غيرها بسبب سطحيتها وعدم تعمقها في الأمور وعجزها عن الإدراك بأنها كانت تشغل موقعا غير عادى في حياة أسرتها وشعبها ... والخلاصة أنها كانت امرأة تافهة في موقع حساس لا يتحمل التفاهة ، مما جر عليها وعلى ابنها والذين حولها أعظم البلاء . والتفاهة دائما تكون تفاهة في أولها ولكنها كثيرا ما تصبح كارثة في النهاية .

عاشقان جميلان يحترقان بالنيران

أهم شخصيتين في هذا الفصل هما:
الأمير **هاملت** و"**أوفيليا**" ابنة وزير القصر "**بولونيوس**".



ليس بين العواطف الإنسانية عاطفة قوية شاملة مثـــل عاطفـــة الحب ، وهى عاطفة تقوم على المساواة بين الناس جميعا ، فالغنى يحب والفقير يحب ، والمتعلم الذي نال من الثقافة أرقاها وأعلاها يحـــب ، والجاهل الذي لم يتعلم حرفا واحدا في مدرسة أو جامعة يحب ، والمرأة تحب والرجل يحب ، ولولا الحب لما أستطاع الإنسان أن يقيم المجتمع الذي يعيش فيه ملايين الناس لأن المجتمع أساسه "الأسرة" والأسرة لا تتكون ــ على الأقل في بدايتها ــ إلا عن طريق الحب ولولا الحـــب لتحولت حياة الناس إلى غابة يعيش فيها الإنسان كما يعيش الحيوان ، حيث لا بقاء إلا للأقوياء القادرين على افتراس غيرهم وحماية أنفسهم من أي عدوان عليهم ، ففي الغابة تكون السيادة للأنياب والأظافر أو للمكر والدهاء وسرعة الحركة والإحساس الغريزي بالأخطار المقبلة ، والغابة لا تعرف شيئا عن عاطفة الحب ، ولكن المجتمع الإنساني هـــو الذي يعرف هذه العاطفة ويعتبرها أساسا له لا تقوم الحياة بدونه .

و الحب الذي يتفق الجميع على وجوده وضرورته في حيـــاة الإنسان ليس له معنى واحداً، ولا صورة واحدة، فهناك الحب الواقعي وهناك الحب الخيالي الرومانسي، وهناك الحب الذي يقوم على المشاعر والعواطف، والحب الذي تحركه الغرائز والميول الحسية المادية، فالحب ألوان كما أن الناس ألوان.

وفي مسرحية "هاملت" لشيكسبير نلتقي بشخصية نسائية بديعة هي شخصية الفتاة الجميلة " أوفيليا" وهذه الشخصية تمثل الحب الطاهر النقي الشريف الخالص من أي شبهة أو غرض، وكل شيء في شخصية "أوفيليا" يجسد أمامنا الحب الملائكي النوراني الذي يثير فينا حباً عميقاً لهذا "الحب" وتعاطفاً معه وإعجاباً به وإشفاقاً عليه، فهو حب صادق صريح شديد النقاء يخلو تماماً من أي تعقيد أو مكر أو دهاء مما جعل هذا الحب الجميل هدفاً للمتاعب والنكبات المتتالية لأنه لم يتسلح بشيء غير الصدق والإخلاص والأمانة.

ومسرحية "هاملت" تدور في "الدنمارك" ومعظم المشاهد تقع داخل القصر الملكي في هذه البلاد. حيث يموت الملك "هاملت" ويحل محله على العرش شقيقه "كلاوديوس" الذي يتزوج أيضاً من زوجة شقيقه الراحل وهي "الملكة جرترود" ولكن الأمير الشاب "هاملت" ابن الملك الراحل، والذي يحمل نفس الاسم الذي كان يحمله أبوه، كان لديه شك عظيم في أن أباه قد مات مقتولاً بالسم، وكان لديه إحساس ساحق بأنه لا بد أن ينتقم لأبيه وأن يثأر من عمه وأمه وهما المتهمان أو المشكوك فيهما بأنهما تآمرا لقتل الملك الراحل، وتدور أحداث المسرحية كلها في هذا الجو العاصف المليء بالمؤامرات والصراعات الحادة العنيفة.

في هذه الأجواء كانت الفتاة الجميلة الشابة "أوفيليا" تعيش حياتها، فهي ابنة وزير القصر "بولونيوس" وكان القصر مليئاً بأجواء المؤامرات والصراعات الكبيرة، وكان الملك القائم على العرش، وهو "كلاوديوس" متهماً من جانب ابن أخيه الأمير "هاملت" بأنه قتل والد الأمير الشاب واغتصب العرش، كما تزوج من أم هاملت وهي زوجة الملك الراحل، وتقبلت الزوجة الأم أن تكون زوجة لشقيق زوجها

الراحل، وأن تسمح لهذا الزوج الجديد أن ينام على فراش زوجها السابق... والد هاملت وفعلت ذلك بعد فترة قصيرة من وفاة زوجها، وهي فترة لا تتجاوز شهرين، مما يثير الشك في الزوجة الأم، ويكاد يشير إلى أنها شريكة في التآمر على قتل زوجها السابق بالسم، لأنها أثبتت بزواجها السريع أنها لا تحمل لزوجها السابق من الحب والوفاء ما يجعلها تحزن على رحيله، ولم يكن المطلوب هو أن تبقى الزوجة إلى الأبد حزينة، ولكن أن تنسى حزنها بعد شهرين اثنين، فذلك دليل على أن هذا الحزن لم يكن له وجود وأن الوفاء لزوجها الملك الراحل لم يكن أمراً يشغلها لأنها لم تشعر بالحاجة إلى مثل هذا الوفاء. وقد كانت الأمور في القصر الملكي يمكن أن تمضي هادئة مستقرة لولا وجود الأمير الشاب "هاملت" وهو فتى جميل مهذب مثقف فيه إنسانية وميل عميق إلى التفكير والتأمل، وهو إنسان مثالي يرفض قبول الأخطاء أو التغاضي عنها وعدم المبالاة بها، ولو كان الأمير الشاب من النوع الذي يتقبل الواقع كما هو عليه ويعتبر أن الأخطاء بل وحتى الجرائم هي من الأمور الطبيعية في حياه البشر، لعاش هذا الأمير هادئاً هو الآخر، ولم تتعرض حياته النفسية والعقلية والواقعية للاضطرابات الخطيرة التي جعلت البعض يتصور أنه أصيب بالجنون. لقد كان هاملت حساساً طاهر النفس يرفض أن يرى الأخطاء تقع أمامه دون أن يعترض عليها، بل ودون أن يحمل سيفه، وهو الفارس الشجاع، ليعلن الحرب على هذه الأخطاء، ويوقع العقاب على الجناة، ويصحح أحوال الدنيا "المعووجة" فيدفع كل من أخطأ ثمن خطئه ويتم الانتقام العادل لمن وقع عليهم العدوان والتآمر، والخلاصة أن "هاملت" كان ثائراً كبيراً نبيلاً ضد أخطاء الحياة، وكان يريد للدنيا أن تكون عادلة وجميلة وشريفة، وأن يعاقب الذين يتآمرون على الآخرين ويحاولون أن يستروا هذا التآمر ويحجبوه عن العيون بأساليب ملتوية حتى تنطوي جرائمهم في

عالم النسيان، وحتى يستمتعوا بثمرات هذه الجرائم ويعيشوا في هنـاء ونعيم رغم أنهم لم يصلوا إلى ذلك إلا بارتكاب جريمة قتـل للملـك الراحل هاملت والد الأمير هاملت.

وهكذا وضع هاملت نفسه في وجه العاصفة، بل لقد كان هو نفسه سبب هبوب العاصفة، بإصراره على أن تأخذ عدالة الحياة مجراها وأن يتم تصحيح أوضاعها الخاطئة وأن يدفع المخطئون أنفسهم ثمـن خطاياهم بالكامل.

إن هاملت يريد أن ينتقم لوالده الراحل ، الذي أصبح الأمـير هاملت على يقين أنه مات قتيلا بالـسم في مـؤامرة دبرهـا عمـه وشاركت فيها أمه .

و لم يكن مع هاملت من الأسلحة التي تساعده علـى تحقيـق أهدافه سوى استقامته، ومثاليته، وإصراره الثابت على تنفيذ العدالـة ومعاقبة الآثمين ، وقد كان هاملت قبل موت أبيه منصرفاً إلى التعلـيم والثقافة والفكر والأدب والفن ، ولولا موت أبيه لواصل رحلتـه في عالم المعرفة ، وكان يمكن أن يصل إلى القمة في ثقافته التي تتفق تمامـا مع فطرته النبيلة الطيبة ، وكان من الممكن عندما يحين الوقت الطبيعي ، ويرحل أبوه عن الحياة بصورة طبيعية أيضاً، أن يصبح هو الملك، ولن يكون لو وصل إلى العرش إلا نموذجاً رائعاً للملوك الفلاسفة الذين لا يأخذون العرش على أنه سلطان ونفوذ، بل يأخذونه على أنه مسئولية تجاه الناس والحياة ، ويعتبرون مهمة الملك فوق عرشه أن يكون راعياً للخير والجمال والحق ، عاملاً صادقاً على نشر العدالة والسعادة والمحبة بين الناس .

ولكن رحلة هاملت مع المعرفة والثقافة انقطعت فجأة ، عندما عرف بموت أبيه وبعد أن ساورته الشكوك حول حقيقة موته وأزعجته أمه إلى أبعد الحدود عندما تزوجت من عمه بعد شهرين من رحيل أبيه ، فرأى الأمير في ذلك أمراً جارحاً لكرامته ، وجارحاً لذكرى أبيه ، الذي كان يحبه ويشعر نحوه بالإجلال العظيم ،لأن هذا الأب كان كما يقول هاملت " ملكاً ... وأي ملك " وكان يحب أمه" حتى ليأبى على نسيم السماء أن يلامس وجهها بأي خشونة" ... فكيف تنقلب الدنيا هذا الانقلاب وكيف يموت الأب ، الملك العظيم، بهذه الصورة المشكوك فيها ، وكيف تنساه الزوجة أم هاملت بهذه السهولة، وكيف يغتصب العم العرش والزوجة ويفلت بهذا كله غانماً سالماً دون أذى يحل به ، ودون أن تنكشف جريمته الكبيرة بالكامل؟!.. إن مثل هذه الجريمة لا يجوز أن تمر كما تمر الأحداث العادية ، ولا يستطيع هاملت أن يتسامح معها كما يتسامح مع الأخطاء الصغيرة في الحياة .

وهكذا قطع هاملت دراسته التي كان عاشقاً لها ، ليضع نفسه في قلب المعركة ضد أخطاء الحياة وأخطاء الناس .

ولنترك الأمير هاملت، بعد هذه الصورة العامة التي تكشف عن شخصيته المثالية النقية الشريفة المصممة في نفس الوقت على محاربة الأخطاء .. ولو بالسيف ..

كان الأمير هاملت هو الشاب الرائع الذي أحبته الفتاة الجميلة الطيبة النقية " أوفيليا" ابنة وزير القصر "بولونيوس" وكان معدن

" أوفيليا" من نفس معدن "هاملت " الشريف النبيل ، ولو أن الـدنيا كانت عادلة ولو أن أجواء الحياة في القصر كانت طبيعية وهادئة ، لما كان هناك أبدا ما يمنع انتصار هذا الحب ووصوله إلى النجاح وتحقيقه لسعادة الحبيبين الجديرين بهذه السعادة .

ولقد كان هناك فارق أساسي بـين "أوفيليـا" و "هاملـت" فأوفيليا تعيش على فطرتها النبيلة وميولها المثالية الجميلة، وليس لها أي تجارب عملية في الحياة تساعدها على أن تكون نظرتها للـدنيا نظـرة واقعية ، فهي لا تعرف الشر ولا تتخيله ، وهـي تظـن أن النفـوس مادامت صادقة وطاهرة مثل نفسها الجميلة فإنها يمكـن أن تتجنـب المخاطر ، خاصة أنها لم تكن تحمل شرا لأي إنسان، فكانت تتصور أنه لا يوجد أحد يحمل لها الشر أيضاً أو يرغب في إيذائها أو يشعر نحوها بالحسد والكراهية. لقد كانت بالإضافة إلى جمالها الساحر فتاة شريفة ونبيلة ، وكانت بسيطة جداً ، مثل سائر المخلصين في هذه الـدنيا ، ولذلك فإنها لم تستطع أبداً أن تفهم الشر ، ولا أن تدرك معناه ، أو ما هو المبرر الذي يجعله موجوداً على ظهر الحياة ، ولذلك كان والـدها الوزير "بولونيوس" يقول لها أحياناً :

" اعتبري نفسك طفلة" ويقول لها أحياناً أخرى "يا لك مـن ساذجة " ويقول لها مرة ثالثة " إنك تتكلمين كفتاة غـرة" وكلمـة "غرة" هي كلمة نستخدمها كثيراً ولكن قد يفوتنا معناهـا الـدقيق، و"الغرة" معناها المرأة الجاهلة بالأمور والغافلة عنها، والرجل "الغر" هو أيضاً الرجل الجاهل بالأمور والغافل عنها، و لم تكن أوفيليا" تغـضب من وصف أبيها لها بهذه الأوصاف التي تنتقدها بصراحة تقترب مـن القسوة ، وذلك لأن " أوفيليا" تلتزم بقواعد السلوك المستقيم، ومـن

هذه القواعد التي كانت تلتزم بها أنها كانت تحترم أباها وتدرك أن من حقه أن يعلمها وينبهها ويوجه النقد إليها ، وكانت تحس أن ذلك صادر عن نية حسنة لوالد يحبها ويحب لها ألا تقع في المشاكل لعدم خبرتها بالناس والحياة .

ولذلك فقد كانت تتلقى نقد أبيها لها في طاعة كاملة ونفس صافية متقبلة للملاحظات السلبية التي يوجهها الوالد إليها ، وكانت لا تجد في ذلك ما يؤذيها أو يجرح مشاعرها بأي صورة من الصور .

كانت "أوفيليا" مستقيمة الروح والضمير ، وكانت مهذبة النفس ، وتشعر بالحرج التام الذي يمنعها من أن تعرض نفسها على الآخرين ، أو تتصرف تصرفا من النوع الذي تلجأ إليه بعض النساء وهو السعي إلى تحقيق أهدافهن بالحيلة والمكر والدهاء . فقد كانت أوفيليا بعيدة عن ذلك كله ، ولذلك فلم تكن هي البادئة بالحب للأمير "هاملت" ، بل كان "هاملت" هو الذي بدأ قصة الحب الكبيرة هذه ، فقد لفت نظر هذه الفتاة الجميلة النقية الراقية ، ووجد فيها صورة للمرأة المثالية كما يتمناها ويحلم بها ، كما وجد فيها فوق جمالها صورة للإنسان كما يحبه ، وكما يتمنى أن يراه في كل الناس وهو الإنسان الخالي من الشر والذي يوحى دائماً بكل معنى طيب مليء بالخير والجمال في هذه الحياة . وتقول "أوفيليا" عن ذلك :" إن هاملت قد أكثر في الأيام الأخيرة من تقديم عروض تنم عن حبه لي " فهاملت هو الذي بدأ قصة حبه لأوفيليا ، وليست أوفيليا هي البادئة . وقد تجاوبت أوفيليا مع هذا الحب بالتدريج ، وحتى وصل حبها لهاملت إلى درجة ملأت قلبها وسيطرت على روحها، وأصبح هذا الحب عندها هو والحياة شيئاً واحداً .

وهنا نتوقف أمام أمرين أساسيين : الأول هـــو أن هاملـــت الجميل النبيل المثقف الحساس كان يستطيع أن يعبر عن حبه لأوفيليا ، بكلمات تفيض صدقا وشاعرية ، وكانت أوفيليا تقابل ذلك بطبيعتها الطيبة النقية . وقد كان هاملت بصفاته المتميزة ووضعه الرفيع قـــادراً على أن يكسب قلب أي فتاة ولو كانت أجمل امرأة في العالم . ولذلك فلا لوم على "أوفيليا" في أنها قد تجاوبت مع هاملت وقدرت مواهبــه الكثيرة الواضحة وأصابتها فتنة بما أحسته في كلماته من صدق وأمانة وجمال . أما الأمر الثاني فهو أن أوفيليا لم تلتفت بما فيه الكفاية بعد أن تعلق قلبها بالأمير هاملت إلى مخاطر الحب الذي وقعت فيه، وذلـــك بسبب ما أشرنا إليه مراراً من أنها فتاة حسنة النية، قليلة التجربة ، ليس لديها خبرة واقعية، ولا تستطيع أن تتصور الشر ولا أسباب وجـــوده في هذا العالم .

ولكن شقيق "أوفيليا" واسمه " لايرتس" انتبه إلى خطورة الحب الناشئ بين "أوفيليا" و"هاملت" وتوقع لهذا الحب نهاية تعيـــسة إن لم تسارع "أوفيليا" إلى الابتعاد عنه، لأنه في رأى الأخ المجرب الـــواقعي حب يستحيل عليه النجاح . فعندما قرر " لايرتس" السفر إلى فرنسا من بلاده " الدانمرك" لطلب العلم والاستمتاع بالحياة الفرنسية الـــتي كان يهواها هذا الأخ .. عندما قرر "لايرتس" السفر دار بينه وبـــين أخته حوار مهم تحدث فيها الأخ لأخته عن حبها لهاملت، والترجمـــة في هذا النص وفي غيره من النصوص الواردة في هذا المقال للـــدكتور محمد عوض محمد في مسرحية " هاملت" التي ترجمها الدكتور عـــوض إلى العربية ترجمة كاملة وممتازة .

قال "لايرتس" لأخته أوفيليا بعد أن عرف قصة حبها لهاملت ، وهى القصة التي لم تحاول أوفيليا أن تخفيها على أحد وخاصة على أخيها وأبيها :

" أما هاملت وما أبداه نحوك من عطف قليل، فاعتبري ذلك أمراً زائلاً ونزوة من نزوات الشباب. اعتبري ذلك الحب زهرة من البنفسج نبتت في أوائل الربيع ، فهي يانعة ولكنها زائلة، مليئة بالعطر ولكن ليس لها بقاء .. ومن الجائز الآن أنه يضمر لك الحب ، ولاتدنس نواياه الطيبة وصمة أو خديعة ، ولكن لابد لك أن تحذري ، فإن الأمير "هاملت" في علو مكانته العائلية . إنه لا يستطيع أن يختار وفق هواه كما يفعل عامة الناس، لأن على اختياره تتوقف سلامة الدولة وسعادتها ، لذلك فإن من الواجب أن يكون اختياره محدوداً بما تمليه عليه التقاليد التي تفرضها "دولة" مكانه منها مكان الرأس من الجسم ، فإذا قال لك اليوم إنه يهواك . فمن الواجب على عقلك الذكي الراجح أن يصدقه بمقدار ما يتيح له مكانه ومركزه الخاص أن يقرن أقواله بأفعاله وهذا الاقتران بين الأقوال والأفعال لا يقرره معه الرأي العام في مملكة " الدانمرك" فعليك إذن أن تقدري ما يلحق شرفك من الأذى إذا أسرفت في تصديق ما تسمعين من أناشيد غرامه . احذري هذا الحب يا " أوفيليا" .. احذريه يا أختاه ، ولا تسلمي قيادك للحب يذهب بك إلى حيث يشاء، بل كوني دائماً باحثة عن النجاة من سهام الحب ومن أخطاره. إن الفتاة التي تضن بحسنها ، لو كشفت عن جمالها للقمر ، لكان هذا منها غاية الإسراف ، لأن الفضيلة نفسها لا تسلم من ألسنة السوء. احترسي إذن: فإن السلامة في الحذر ".

وبهذه الطريقة يحذر "لايرتس" أخته الجميلة " أوفيليـا" مـن الانسياق وراء حبها لهاملت وحب هاملت لها. فهو يرى فارقا واقعياً دقيقاً بين الحبيبين. فأوفيليا هي ابنة وزير القصر الذي مهما علا قدره فهو ليس من " العائلة المالكة" ولكنه موظف عند هذه العائلة، والأمير هاملت " ولى العهد" ومرشح لأن يكون ملكاً جالساً على العـرش. ومثل هذا الوضع الذي يحتله الأمير سوف يفرض عليه أن يختار زوجة من عائلة توازى عائلته في مكانتها الملكية . ففي العهد الذي دارت فيه أحداث المسرحية ، وهو حوالي سنة ألف ميلادية ، كان الملوك مقيدين باختيار زوجاتهم من عائلات تتناسب معهم حتى يرضى الـشعب أن تكون هذه الزوجة ملكة عليهم.

ومن هنا فإن هاملت كان من المستحيل عليـه أن يتـزوج " أوفيليا" حتى لو أراد ذلك ، فالأمير لا يملك إرادته، لأن هـذه الإرادة مرتبطة بالمصالح السياسية العليا التي تهدف إلى استقرار الملوك وقدرتهم على قيادة شعوبهم وحكمهم. ولهذا فإن الحب بين "هاملت" و"أوفيليا" محكوم عليه بعدم النجاح بسبب وضع الحبيب الأمير ووضع الحبيبة التي ليست أميرة. ولهذا السبب فإن هذا الحب يمكن أن يتحول إلى علاقـة عابرة، تسئ إلى سمعة أوفيليا وشرفها، ولا تحقق لها الهـدف الـذي تستحقه وهو أن تكون زوجة للرجل الذي تحبه ويميل قلبها إليه.

وعندما أنهى "لايرتس" شقيق أوفيليا حديثه إليها وأوشك على الرحيل قال لها : " وداعاً يا أوفيليا واذكري جيداً ما قلته لك " فردت عليه أوفيليا قائلة :

" إنه في ذاكرتي وعليه قفل متين وسيظل مفتاحه لديك أنت".

هكذا تحدث "لايرتس" إلى أخته "أوفيليا" عن الحب بينها وبين هاملت، وكشف لها عن الفجوة الاجتماعية والسياسية القائمة بينهما، وأنذرها بأن هذا الحب لا يمكن أن ينتهي إلى السعادة أو إلى المحافظة على سمعتها، وقد كان حديث لايرتس إلى أخته بعيداً ينطوي على أي شك في هذه الأخت الجميلة الطيبة ، وكان بعيداً أيضاً عن أن يتهم الأمير هاملت بسوء النية والرغبة والعبث واللهو العابر مع أخته، لأن "لايرتس" كان صديقاً لهاملت وكان يحبه ويعرف قدره ويعجب بمواهبه وسمو شخصيته ولكنه من ناحية أخرى كان يفكر تفكيرا واقعياً دقيقاً وكان يدرك أن المسافة بين أخته أوفيليا والأمير هاملت مسافة كبيرة ولا يمكن عبورها، وليس في إمكان الأمير هاملت نفسه أن يتخطاها أو يتجاهلها ولذلك فإن أمر هذا الحب يمضي في طريق مسدود ومن الخير أن يقف هذا الحب عند حده حتى لا يتحول إلى مأساة أو على الأقل إلى فضيحة تلحق باوفيليا وتدمر حياتها.

وقد أعلنت أوفيليا أنها وعت درس أخيها واستوعبته ولعلها قررت أن تراجع نفسها سعيا إلى تصحيح هذه العلاقة العاطفية غير المتوازنة كما شرحها أخوها لها .

على أن هناك صوتاً آخر ظهر على ساحة العاطفة التي بدأت تنمو في قلب أوفيليا نحو الأمير هاملت هذا الصوت هو صوت الأب .. وكان صوت الأب وهو وزير القصر كان موظفاً مخلصاً لسيادته ولكنه كان لا يثق بهؤلاء السادة ولا يخدع نفسه بأن العائلة الملكية بكل أفرادها بمن فيهم الأمير هاملت يمكن أن تنظر إلى هذا الوزير وإلى عائلته نظرة مساواة ..فإن العائلة الملكية بكل أفرادها بمن فيهم الأمير هاملت يمكن أن تنظر إلى هذا الوزير المخلص في عمله على أنه خادم لها بدرجة وزير. ولعل نجاح هذا الوزير في عمله كان عائداً إلى حرصه

الشديد على إبقاء المسافة القائمة بينه وبين العائلة الملكية على ما هي عليه فكان يخلص في العمل مع العائلة الملكية ولكنه لم يكن يثق بها مطلقاً من جانب العلاقات الإنسانية. فالعائلة الملكية لا يمكن أن تنظر إلى هذا الوزير أو إلى ابنته أوفيليا على أنهما من مستوى إنساني واجتماعي واحد بحيث يمكن أن يلتفت الأمير هاملت إلى أوفيليا ويحبها حباً صادقاً مخلصاً ينتهي إلى الزواج، فالأب لا يرى في هذا الحب إلا نزوة سوف تعصف بابنته ولن تعود عليها بأي سعادة أو خير، وهكذا كان الأب في تحذيره لابنته أكثر قسوة وعنفاً وأقرب إلى أن يكون عديم الثقة بنوايا الأمير هاملت وخطته تجاه ابنته، لذلك فإن الأب يحذر ابنته التي تحدثت إليه بصراحة عن أن هاملت أقسم لها على صدق حبه بجميع الأيمان المقدسة والمواثيق التي في السماء.

يقول الأب لابنته: "تلك كلها أساليب للتحايل على صيد الدجاج البري، إن في هذه النيران يا ابنتي من البريق ، أكثر مما فيها من الحرارة، ولا تلبث هذه النيران أن تخبو، فلا تحسبي أنها نار صادقة – قللي منذ اليوم من مواعيد التلاقي مع هاملت واجعلي لقائك أغلى ثمناً من أن تبذليه لمجرد رغبة هاملت في مصاحبتك، أما السيد هاملت نفسه فحسبك أن تعلمي أنه في ريعان الشباب وأن له من الحرية أن يتصرف أكثر مما هو مسموح لك به، وقصارى القول يا أوفيليا، لا تصدقي الأيمان التي أقسمها لك، فما هي إلا ألوان من الخداع، مظهرها لا يتفق مع حقيقتها، والآن أقول لك بصراحة كاملة أنني لا أريد لك منذ اليوم أن تدنسي لحظة من وقت فراغك بأن تخاطبي أو تتحدثي مع السيد هاملت . هذا أمر أوجهه إليك فالتزمي به"، وأجابت أوفيليا والدها قائلة – كما هو منتظر من شخصيتها الطيبة المطيعة التي لا تعرف التمرد : " سأطيع أمرك يا مولاي ".

وهكذا نجد أنفسنا في مسرحية "هاملت لشيكسبير" أمام شخصية نسائية من طراز خاص هي أوفيليا الفتاة النقية الطاهرة صاحبة الذوق الحساس والشعور المرهف والمحب للخير والنظرة المثالية للحياة فهي إحدى نساء شيكسبير اللواتي يتميزن بطابع إنساني " ملائكي" وهذا النوع من النساء قدمه إلينا شيكسبير في عدد آخر من مسرحياته، فقد قدم شيكسبير كل "ألوان " النساء من الماكرات إلى المليئات بالطموح والمحرضات لأزواجهن عليه، إلى الوفيات والخائنات والمتمردات المشاكسات، وكل الصراعات والعواطف ونماذج النساء المختلفة والمتناقضة قدمه شيكسبير في مسرحياته الرائعة .

وشخصية "أوفيليا" تقف على رأس القائمة بين النساء الطاهرات العفيفات ذوات النية الحسنة تجاه الحياة والناس واللواتي لا يتصورن "ما هو الشر؟" بل لعلهن لا يتصورن أن الدنيا فيها شيء اسمه "الشر" أصلاً مادامت نفوسهن مليئة بالخير الذي لا يعرفن أن هناك وجهاً آخر له هو هذا "الشر" الذي يعصف بالحياة ويملئ القلوب بالأحزان.

من ناحية أخرى نجد أن "أوفيليا" المهذبة الطاهرة لم تكن هي الساعية أو البادئة بحب الأمير هاملت بل إن الذي بدأ الإعلان عن حبه والإغراء هو هاملت نفسه، وهذا يتناسب تماماً مع شخصية "أوفيليا"الطيبة النبيلة،فهي ليست مغرورة بنفسها حتى تتطلع إلى حب أجمل وألمع شاب في عصرها وفى بيئة القصر الملكي الذي تعيش فيه بحكم أنها ابنة وزير القصر"بولونيوس"على أن عدم مبادرة"أوفيليا"بالسعي إلى قلب الأمير هاملت يكشف عن جانب مهم في شخصيتها وشخصية كل نموذج أنثوي يشبهها ، فالأنثى الطبيعية تتميز بالحياء ولا تلقى بشباكها ــ كما يقال ــ على الرجل،بل أنها

تعتمد على عناصر الجاذبية الطبيعية فيها بحيث تكون "مطلوبة" ولا تكن طالبة وهذا النوع الملائكي الطاهر من النساء تجد أن كرامة أنوثتها تمنعها من السعي وراء الرجل أو مطاردته حتى يسقط في "المصيدة" التي تنصبها له،ذلك نوع من النساء قد يكون نادراً ولكنه هو النوع الأقرب إلى الطبيعة ففي الطبيعة تحتفظ "الأنثى" بالجاذبية ويسعى الرجل إليها،وعلى المرأة بعد ذلك أن تختار من يناسبها ويتفق مع هوى نفسها من بين الذين يسعون إليها،وهكذا فإن "أوفيليا" لم تبادر بإعلان حبها بل جاءت المبادرة من هاملت وعندما تجاوبت "أوفيليا" مع هذا الحب أخلصت له حتى النهاية.

على أن هناك معنى أساسياً آخر في قصة حب "أوفيليا" للأمير هاملت فقد حرص شيكسبير على أن يدق "أجراس" الإنذار منذ البداية للتنبيه إلى أن هذا الحب محفوف بالمخاطر وأنه لابد أن ينتهي بمأساة جاءت أجراس الإنذار على لسان "الأخ" و"الأب"وقد تقبلت "أوفيليا" ما سمعته ووعدت بألا تعمل على تشجيع الأمير هاملت على الاستمرار في التعبير عن حبه ، لها وفى أجراس الإنذار التي سمعتها "أوفيليا"حول خطورة هذا الحب غير المتكافئ بينها وبين الأمير ما يكشف عن الموهبة العالية عند شيكسبير في الفن وفى فهم الحياة والإنسان، فهو يمهد بالإنذارات التي سمعتها أوفيليا للمأساة التي سوف تحدث بعد ذلك، حتى لا تفاجئنا المسرحية بوقوع المأساة دون مقدمات ولعل شيكسبير ــ بعبقريته ــ يشير هنا عن طريق التلميح لا عن طريق التصريح المباشر، إلى أن المآسي والأزمات لا تقع في حياة أي إنسان بصورة مفاجئة ولكن هناك مقدمات هي بمثابة التنبيه للإنسان،فإن انتبه الإنسان فإن فرصته في النجاة تكون قائمة، وأن لم ينتبه فإنه يقع في الحفرة التي كان هناك تحذيرات سابقة تشير إلى وجودها وخطورتها ، ولعلنا نقرأ ذلك كله من وراء سطور شيكسبير

:(أن كل "ضحية" في هذه الدنيا تتحمل بعض المسئولية عما يصيبها لأنها لم تنتبه إلى الإنذارات الأولى والإشارات الحمراء السابقة على وقوع "الضحية"في الوضع الذي يؤذيها وينال منها،وقد يصل هذا الوضع إلى حد المأساة).

وقد سارت حياة"أوفيليا"في طريقها المقدر لها،ولم تفلح الإنذارات والإشارات الحمراء في منع وصولها إلى ما وصلت إليه من "الجنون" ثم الانتحار فكيف وصلت أوفيليا إلى هذا الوضع المأساوي رغم ما سبقه من إنذارات ورغم طبيعتها الطيبة المثالية المستجيبة لما كانت تسمعه من نصائح عن طريق أخيها وأبيها ؟!. ذلك ما نتعرض له ونتابعه خطوة بخطوة في الفصل القادم إن شاء الله.



قلب بريء يصاب بالجنون

أهم الشخصيات في هذا الفصل هي:

الأمير **هاملت** و"**أوفيليا**" ووالدها الوزير "**بولونيوس**".



عندما يكون الإنسان بريئاً طيب القلب وحسن النية فإنه يمكن أن يتعرض إلى صدمة كبيرة تفقده السيطرة على نفسه،وذلك إذا عاش هذا الإنسان في ظروف شديدة التعقيد، ورأى أمامه أشخاصاً يتصرفون بطريقة غامضة وغير مفهومة، وشاهد أحداثاً متشابكة لا يستطيع العقل السليم أن يجد حلاً واضحاً لما تعبر عنه هذه الأحداث من ألغاز وأسرار هنا يضطرب صاحب القلب الطيب البريء لأن عقله الواضح لا يستطيع أن يستوعب شيئاً مما يدور أمامه ولا أن يعقد صلة مستقرة بينه وبين التواء الحياة وعجائب الإنسان.

لا شك أنه من سوء الحظ أن يولد الإنسان بفطرة طيبة نقية في بيئة صعبة وظروف عاصفة وبعض أصحاب النفوس الطيبة يكون لديهم قدرة على التعامل مع البشر،وذلك عن طريق اكتساب الخبرة من معارك الحياة المختلفة،ولكن هناك نفوساً أخرى لا تستطيع أبداً أن تتعامل مع"الشر"أو تتقبل تعقيدات الحياة الغريبة وهذه النفوس هي قابلة دائماً للانكسار فهي تقف في وسط عواصف الحياة،ولا تدرى كيف تحمى نفسها من هذه العواصف والنتيجة هي أن تذهب هذه النفوس ضحية لبراءتها وطيبتها وعدم قدرتها على مواجهة الشر أو فهمه أو التعامل معه ويروى لنا تاريخ الثقافة العربية قصة الشيخ المتصوف المعروف باسم"بشر الحافي" فقد وجد هذا الرجل الطيب

نفسه ذات يوم في حالة من"الذعر"الذي سيطر على روحه،وذلك لأنه يحاول أن يفهم تعقيدات الحياة فلم يستطع، وظل يحـاول أن يفهم أخطاء الناس ويفسرها ويتعامل معها فلم يستطع أيضاً ولعله حـاول ترويض نفسه على قبول الواقع والتسليم به فعجز عن ذلك تماماً وفي لحظة من اللحظات أصابه الفزع،فحمل نعليه بين يديه وفر هارباً إلى الصحراء الخالية تماماً من الناس، واختفى عن الأنظار و لم يعثر له أحد بعد ذلك على أثر فقد هرب من عالم الناس إلى الخلاء الكامل لأنه لم يحتمل ما تراه عيناه من فوضى واضطراب ، ولا توجد أي معلومـات عما حدث لهذا الشيخ المتصوف"بشر الحافي" بعد أن هرب حافياً من دنيا الناس إلى خلاء الصحراء،ولكن علينا أن نتخيل ما حدث له فلابد أنه مات من الجوع والعطش وأن ذئاب الصحراء قـد وجـدت في جسمه النحيل طعاماً لها فلم يبق منه أثر وقد يبدو غريبـاً أن ينـدفع إنسان طيب كريم النفس مثل"بشر الحافي" إلى هـذا المـصير الألـيم ويتصور أنه مصير أفضل له من العيش في حيـاة مليئـة بالأخطـار والشرور التي لم يستطع تفسيرها أو فهم أسبابها.

على أن موقف "بشر الحافي" يكاد يكون أقرب إلى الانتحـار وإن يكن هذا الصوفي الطيب بالطبع لم يتعمد قتل نفسه،فهو مـؤمن وعاشق للذات الإلهية،وقد كان يقوم بمحاولة للهروب من شرور الحياة والناس إلى فضاء الله الواسع ، ولكن هذا الهروب بهذه الطريقة لابد أن ينتهي به إلى الموت وحيداً،مع اختفاء كل أثر له،وفي الحياة دائماً مـن يشعرون بمشاعر"بشر الحافي" من الضيق بفوضى الدنيا ومتاعبها غـير المفهومة،ولكنهم يعبرون عن مـوقفهم بـالانطواء علـى أنفـسهم والانسحاب من كل معارك الحياة والتعايش المستمر مع شعور يمـلأ نفوسهم بالحزن ، وقد يقودهم هذا الموقف إلى مـا يـسميه الطـب الحديث باسم مرض الاكتئاب وقد ثبت أنه من الأمراض القاتلة، لأن

الاضطرابات النفسية تؤثر على أعضاء الجسم المختلفة تأثيراً سلبيا مما يحيل الأمراض النفسية الحادة إلى أمراض عضوية. وهناك بعد ذلك من يصل بهم الاضطرابات في فهم ما يدور حولهم إلى فقدان السيطرة على عقولهم، وأن يعيش بمشاعره و أفكاره في واقع خيالي لا وجود لـه إلا في العقل المجنون، ولعل الجنون في أمثال هذه الحالات هـو أرحـم الحلول، لأن الجنون يخلق لصاحبه عالما يرضيه و يريحه، بدلا من العالم الحقيقي الذي يعيش فيه ويشعر بالعجز عن فهمه و تفسيره والتعامـل معه.

ولاشك أن شخصية "أوفيليا" بطلـة مـسرحية "هاملـت" لشيكسبير هي من هذا النوع الأخير. فهي إنسانة طيبة بريئة وضـعتها الظروف في بيئة عاصفة مضطربة، هي بيئة القصر الملكي في "الدانمرك" فهي ابنة "بولينيوس" وزير القصر وقـد أحبـت "أوفيليـا" الأمـير "هاملت". و لم تكن هي البادئة بهذا الحب.

فالذي بدأ هو الأمير الشاب "هاملت" فقد أعجبتـه "أوفيليـا" عندما رآها وتحدث إليها ،وسحرته الفتاة الشابة بجمالها وبما يفـيض على كل شيء فيها من براءة وطهارة وصفاء. أما "أوفيليا" فقد فتنها الأمير "هاملت" بجماله وذكائه وعمق تفكيره ولسانه الذي يجيد التعبير عن مشاعره وأفكاره ويفيض بالعسل الصافي من العبارات والكلمات التي توحي بأنها بعيدة عن أي غش أو خداع. ولـذلك اسـتجابت "أوفيليا" لحب الأمير "هاملت" وظنت كما يظن كل قلب بـرئ أن الحب وحده كفيل بحل جميع المشكلات وتسوية جميع الأمور المعقدة، ولعل الخطأ الوحيد الذي وقعت فيه "أوفيليا" بحسن نية وصفاء قلـب أنها لم تحاول أن تفهم شخصية حبيبها الذي خطف قلبها وهو الأمـير "هاملت" وظنت أنه "عاشق" وأن العاشق إذا كان نبيلا وصادقاً فإنـه

يضع حبه فوق كل الاعتبارات ويرتفع بـه علـى كـل الظـروف والمصاعب، وقد كانت كل الشواهد تؤكد على أن الأمير "هاملت" هو من النبلاء والصادقين. ولكن "أوفيليا" كان عليها أن تفكر وتبحث جيداً في "الهموم الثقيلة" التي تقبض على قلب "هاملت" وتثير التـوتر والقلق والحزن في شخصيته. ولعلها لو استطاعت أن تفهـم ذلـك لاستطاعت أن تدرك أن ظروف "هاملت" القاسية لا تتيح له أن يعيش راضيا بحبه السعيد، وحبيبته الجميلة الرائعة. لقد كان "هاملت" يحس أنه يحمل "رسالة" كبرى هي الانتقام لوالده الملك القتيل، مـن عمـه الذي قتل والده وتزوج من الملكة التي هي أم "هاملت". فالأمير الشاب يحس أن مهمته هي محاربة الغدر والخيانة والتآمر وتدنيس فراش أبيـه وأمه.

ولم يكن أمامه أي اختيار بين أن يستمر في تحمـل مسئولية رسالته وبين أن يتخلى عنها، فرغبته في إقرار العدل والقـضاء علـى الفوضى وتصحيح الأخطاء في هذه الدنيا هي رغبة تسيطر على كيانه، وتهز كل عقله وضميره، وتشعل في داخله ناراً لا يمكن أن تنطفئ إلا إذا تحقق العدل وانتهت الفوضى وتلاشت الأخطـاء الكـبيرة مـن الوجود. فالأمير "هاملت" -تحت وطأة مشاعره القوية- لا يملك أمر نفسه، ولا يستطيع أن يترك معركته الكبرى مع جريمة عمه الذي قتل أباه وتزوج أمه وحل فوق العرش محل والـده القتيـل.. لم يـستطع "هاملت" أن يترك هذه المعركة ليعيش مع حبه ومن أجل حبه. بل لقد جعلت هذه المعركة عاطفة قلبه مثل قشة طافية فوق أمـواج قويـة شديدة الاضطراب، فهذه القشة تذهب وتجيء وتظهر وتختفـي ودون أن تعرف لنفسها اتجاها ودون أن تكون قـادرة علـى الـتحكم في مصيرها.

لم تستطع "أوفيليا" الطيبة الجميلة أن تدرس شخصية حبيبها أو أن تفهم أسرار اضطرابه وقلقه وتوتره.. ولعلها لو فهمت الأمور على حقيقتها لتقدمت لمساعدة حبيبها وتقديم العون له على احتمال ما يعاني من قلق وعذاب، "أوفيليا" أخلصت للحب وحده، ولأن حبها كان قويا ومسيطراً عليها بصورة كاملة، فإنها لم تفكر في أي أمر آخر سوى هذا الحب. وبرغم أن هذا الموقف هو السبب الذي قادها إلى مأساتها، حيث أصابها الجنون الذي انتهى بها إلى أن تتخيل نفسها سابحة في ماء النهر وهي تحتضن حبيبها الجميل، فغرقت وقضت على حياتها، وهي مازالت زهرة من أنضر زهور الحياة.

هذا هو الخطأ الوحيد الذي ارتكبته "أوفيليا" الجميلة الطيبة. فهي لم تبذل جهدها في اتجاه فهم شخصية حبيبها فهما صحيحاً، وأسلمت نفسها لعاطفة الحب وحدها، وكانت هذه العاطفة في قلبها قوية وصادقة.

ولعلنا ونحن نلوم "أوفيليا" لوم الحب لها والإشفاق عليها و"استخسار"جمالها ونبلها وطيبة قلبها في المصير الحزين الذي انتهت إليه.. لعلنا ونحن نلوم أوفيليا .. هذا اللوم الرقيق نكون قد ظلمناها بعض الظلم، فأوفيليا هي من النماذج الإنسانية الطيبة التي لا تستطيع فهم الشر ولا تستطيع أن تتعامل مع تعقيدات الحياة الصعبة. فكل ما في شخصيتها يعزف على نغمة عزبة واحدة هي نغمة الحب الصافي الجميل، فكيف تعيش هذه النغمة وكيف تستمع إليها الحياة، إذا كانت هذه النغمة الرقيقة الناعمة يحيط بها عواصف وبرق ورعد وأمواج بحار هائجة ؟ إن الذي لا شك فيه أن الظروف العسيرة التي أحاطت بشخصية "أوفيليا" كانت فوق كل احتمال إنسانة في مثل طيبتها وبراءتها وحبها الصافي الجميل، وسوف نجد في أدب شيكسبير

كله، وعلى رأسه مسرحية "هاملت" أن البراءة والنبل وطيبة النفس لابد أن تنتهي بأصحابها إلى نهايات حزينة، لأن تجنب الخسائر في الحياة يحتاج إلى شيء من الحذر والقدرة على التعامل مع شرور الحياة. والذين لا يملكون شيئا من ذلك لابد أن يخسروا، وهي نتيجة محزنة، ولكنها أيضا نتيجة واقعية، وشخصية أوفيليا في نهاية الأمر هي ضحية من ضحايا البراءة المطلقة، وطيبة النفس، وحسن النية، وانعدام الحذر وعدم القدرة على فهم الشر أو التعامل معه.

ونعود بعد ذلك إلى أحداث مسرحية "هاملت" وما تعرضت له "أوفيليا" في هذه المسرحية، فالأمير "هاملت" يعبر عن حبه الشديد لها، ويرسل إليها الرسائل والهدايا، وقد وجدت أوفيليا من واجبها أن تطلع أباها على موقف "هاملت" منها، فنصحها الأب بالابتعاد عنه وإعادة رسائله وهداياه إليه، ففعلت، وفي تلك الأثناء كان هاملت يعاني من اضطراب شديد بسبب شكه في أن موت أبيه كان مؤامرة من عمه وأمه، وأن الأب مات قتيلاً، ولكن هاملت لم يكن يعلن الأسباب التي دفعته إلى الاضطراب والقلق الشديد، وهنا ظن والد أوفيليا، وهو وزير القصر "بولونيوس" أن حب هاملت لأوفيليا هو سبب هذا الاضطراب الذي يشبه الجنون. وحول هذا التفسير لاضطراب هاملت ووصوله إلى حافة الجنون بسبب الحب يدور هذا الحوار بين "أوفيليا" ووالدها الوزير "بولونيوس" والنص من ترجمة الدكتور محمد عوض محمد لمسرحية "هاملت":

بولونيوس: أوفيليا.. ماذا جرى؟

أوفيليا: وا أسفاه يا مولاي! لقد استولى عليّ رعب شديد.

بولونيوس: لأي سبب. ناشدتك الله؟

أوفيليا: مولاي كنت في مخدعي أحيك ثوبا. إذا السيد هاملت يدخل على سترته مفككة الأزرار عاري الرأس. جواربه ملوثة، لا رباط لها، وقد تدلت إلى الكعبين. وكان وجهه شاحباً كلون قميصه. تصطك ركبتاه إحداهما بالأخرى.

تنم نظراته عن الغم والشقاء، وكأنما جاء من الجحيم، ليصف ما بها من رعب وخوف.

بولونيوس: هل جن بسبب حبه لك؟

أوفيليا: لست أدري يا مولاي. ولكني أخشى أن يكون الأمر كذلك.

بولونيوس: وماذا قال لك؟

اوفيليا: قبض على معصمي وأمسكه بقوة، وجعل يده الأخرى فوق جبينه. وأخذ يحدق في وجهي تحديقا شديدا، كأنه يريد أن يرسم وجهي، وظل علي حاله تلك طويلاً، ثم هز ذراعي برفق، وهز رأسه ثلاث مرات ، يرفعه ويخفضه، ثم تنهد تنهداً عميقاً ملؤه الحزن، بحيث بدا كأنه يمزق جثمانه، ويوشك أن يقضي على نفسه. بعد ذلك أطلق يدي، وأنصرف ورأسه ملتفت من فوق كتفه كأنما يتحسس طريقه دون أن ينظر بعينه. لأنه مشى إلى الخارج دون أن يستعين بهما، إذ كان محدقاً إلى آخر لحظة في وجهي.

بولونيوس: تعالي معي. لابد أن ألتمس مقابلة الملك. إن هذا هو جنون الحب في أقصى مراتبه، حيث يبلغ من عنفه أن يقضي على نفسه، ويدفع المرء إلى أعمال يائسة.مثله في ذلك كمثل أي عاطفة عنيفة أخرى، تؤثر في طبعنا. وإني لشديد الأسف لهذا..

بولونيوس: هل وجهت إليه أخيرا عبارات جارحة؟

أوفيليا: كلا يا مولاي، غير أني تبعا لما أمرت به، أعدت إليه رسائله، وأبيت عليه أن يلقاني.

بولونيوس: هذا هو ما دفعه إلى الجنون. ويسوءني أني لم أقدره تقديراً أدق وأحكم. لقد خشيت أن يكون مجرد عابث ماجن وأنه كان يبغي بك شراً. فتبا لغيرتي. إننا وحق السماء في شيخوختنا لنسرف في الحذر.

ذلك هو الحوار الذي دار بين "أوفيليا" ووالدها الوزير "بولونيوس" ومنه نعرف أن "أوفيليا" توافق على وجهة نظر والدها الذي يرى أن هاملت مصاب بأعراض من الاضطراب العقلي والنفسي، وأن هذه الأعراض تدل على الجنون، وأن هذا الجنون ليس له إلا تفسير واحد هو أنه جنون صادر عن حب "هاملت" الذي يملأ قلبه نحو أوفيليا، وأن "أوفيليا" عندما قررت الإعراض عنه حسب نصيحة والدها ونصيحة أخيها "لايرتس" قبل ذلك، أصيب "هاملت" بالجنون الذي هو جنون صادر عن قوة الحب الذي يملأ قلبه.

وكان هذا كله تفسيراً خاطئاً تماماً، فقد كان هاملت يعاني من الاضطراب لأنه رأى شبح أبيه الراحل، وكان هذا الشبح يتحدث إليه حديث رجل لرجل، وقال له أنه مات قتيلاً بالسم و لم يمت موتا طبيعياً، وأن قاتله هو أخوه، أي عم هاملت،وأن على هاملت مسئولية الانتقام من هذه الجريمة، ثم اختفى شبح الأب بعد أن قال لأبنه هذا الكلام الخطير،ولعل هذا اللقاء بين هاملت وشبح والده كان خيالا في خيال، ولكن الخيال أحياناً يكون في قوة الحقيقة.

ونواصل تلخيص الأحداث بعد ذلك اعتماداً على كتاب بديع هو "روائع شيكسبير" ترجمة روايات الهلال في ثلاثة أجزاء ، تـأليف الكاتبين الإنجليزيين "شارل وماري لام" حيث يقول المؤلفان:

إن الرعب الذي سببه ظهور الشبح لحواس الفتى "هاملت" والأثر الذي تركه في أعصابه التي كانت ضعيفة أصلاً ،تسبب في اضطراب عقله وأفقده ملكة التمييز والاتزان. وخشي "هاملت" على نفسه أن يستمر هذا الأثر فلا يفارقه،فيكون هذا سبباً لمراقبته في تحركاته وسكناته من جانب عمه الذي قتل أباه وجلس مكانه على العرش. وقد تنتهي هذه المراقبة إلى الشك في هاملت والتوجس منه إذا اكتشف العم أن هاملت يدبر أي شيء ضده أو أن هاملت يعرف حقيقة جناية عمه ضد أبيه.فقرر هاملت قراراً غريباً، وهو أن يتظاهر بالجنون التام حتى لا ينظر إليه أحد نظرة جديه وحتى لا يكترث أحد لما يقوله أو يفعله، وحتى لا تؤخذ نظراته النارية لعمه أو أمه مأخذ الجد، ولا يتم الوصول إلى تفسير أو تأويل لأسبابها الحقيقية، فإن الجنون الكامل هو خير قناع يستر به هاملت ما يدور في رأسه من أفكار. وأخذ هاملت يتظاهر بغرابة الأطوار، ويبدي الكثير من النزوات وألوان الشذوذ في الملبس والكلام والحركات، وأجاد تمثيل ذلك كله تمثيلاً لم يكلفه كثيراً، لأن دوافع الاضطراب الفوارة في أعماقه كانت خير مساعد على إتقان تمثيله لدور المجنون. وقدا انخدع عمه وانخدعت أمه بذلك. ولم يخطر ببالهما أن حزن هاملت على أبيه هو السبب الحقيقي لما بدا عليه من اختلال عقلي، لأنهما كانا لا يعرفان شيئاً عن ظهور شبح أبيه له وحديثه معه، ولذلك فقد اعتقد العم واعتقدت الأم أن جنون هاملت هو جنون الحب، واطمأنا إلى هذا التعليل واقتنعا بهذا التفسير!!..

ويواصل الكاتبان الإنجليزيان "شارل وماري لام" تلخيصهما البديع لمسرحية "هاملت" ويركزان على علاقة هاملت بحبيبته "أوفيليا" فيقولان: والحقيقة أن هاملت قبل ظهور الكآبة والشرود عليه كان يهوى الفتاه الحسناء "أوفيليا" و "أوفيليا" هي ابنة "بولونيوس" وزير الملك وكبير مستشاريه السياسيين. وكان هاملت قد أرسل إلى حبيبته الكثير من الرسائل والهدايا، وخاصة الخواتم الجميلة ، وأظهر لها حبه بمختلف الوسائل، وأحاطها برعايته وعواطفه الصادقة في حدود الشرف والطهارة. فصدقت "أوفيليا" عهوده ووعوده وبادلته الحب في صدق وصفاء وعمق. فلما أصيب هاملت بالكآبة والحزن والتشرد أهمل أمرها.

ومنذ اللحظة التي قرر فيها هاملت أن يتصنع الجنون التام تعمد أن يعامل حبيبته بقسوة وفظاظة ، ولكن "أوفيليا" النبيلة لم تحقد عليه لهذا السبب، وإنما شعرت بالشفقة عليه، واعتقدت أن تصرفاته الشاذة معها هي من تأثير المرض عليه، وليس من سوء في طبيعته أو غلظة في فطرته. فمرضه هو الذي يدفعه إلى ما لا يوافق طبعه، والمرض هو الذي يجعله ينسى ما كان يلتزم به قبل ذلك من الحب لها والتعلق بها. ومضت "أوفيليا" في إقناع نفسها بهذا الرأي الذي توصلت إليه، وقارنت حال "هاملت" معها في عهد الصفاء والمودة بحاضر أمره في حال الخشونة والفظاظة ، وشبهت ذلك بالأجراس ذات النغمات الجميلة المتناسقة. فهذه الأجراس حين تدق بعنف ودون تناسق فإن صوتها يبدو بغيضاً إلى النفوس. والعيب هنا لا يكون في الأجراس نفسها، بل العيب كله في اليد التي تحركها عن جهل وسوء ذوق.

ونواصل هذا التلخيص الجميل لمأساة "أوفيليا" و"هاملت" مع "شارل وماري لام" حيث يقولان:

ومع أن المهمة العسيرة التي أخذ هاملت على نفسه أن ينهض بها وهي الانتقام لمقتل أبيه لا يمكن أن تتفق مع ما في حياة الحب من متعة وعزوبة وسهولة، أو ما في حياة الحب من مرح و إقبال على الحياة، فإن طيف أوفيليا الجميلة كان كثيراً ما يظهر أمام هاملت ويقف حائلاً بينه وبين أفكاره وخواطره المتشائمة الحزينة، فيرق قلب "هاملت" لحبيبته رقة لا يستطيع مغالبتها أو الهروب منها. وفي مره من المرات تراءى له خطأ ما يأخذ به حبيبته العذراء الرقيقة الطاهرة من خشونة ومعاملة قاسية ليس لهما سبب أو مبرر. فجلس وكتب إليها خطابا حافلاً بعبارات الحب الملتهبة، وكتب هذا الخطاب في عبارات فيها جموح ومبالغة، وحاول أن يجعل هذا الخطاب مناسباً لما يتظاهر به من جنون، ولكن حرص على أن يكون في هذا الخطاب شيء من العواطف اللطيفة الحالمة، وهو يريد بذلك أن يكشف لحبيبته الجميلة النبيلة عن عمق محبته لها، وهي محبة مستقرة في أعماق قلبه.

ولذلك فقد كتب إليها في خطابه يقول لها أنها يمكن أن تشك في وجود النجوم والشمس ولكن ليس لها أن تشك في حبه لأنه حب قوي وصادق.

هذه صورة من الاضطرابات والتقلبات التي تعرض لها هاملت، كما يلخصها لنا كتاب "روائع شيكسبير" لشارل وماري لام. ولكن الحوادث تتوالى بعد ذلك بسرعة وتلاحق عجيبين، فيقتل "هاملت"والد "أوفيليا" "بولونيوس" الذي كان يختبئ وراء ستار ليستمع إلى الحديث الذي يدور بين "هاملت" و"أمه" وينقله إلى الملك، وكان "هاملت" يظن أنه قد قتل الملك نفسه، أي عمه، و لم يكن يتصور أن القتيل هو وزير القصر ووالد أوفيليا "بولونيوس" وهنا تصل أوفيليا إلى قمة الارتباك وتفقد السيطرة على نفسها: فحبيبها هاملت قد أصبح قاتلاً

لوالدها. ولم تستطع أوفيليا أن تفهم ما حدث أو تتقبله، ولم يستطع عقلها أن يستوعب هذه الفوضى الكبيرة التي تقع أمام عينيها، فأصابها الجنون، وقادها الجنون إلى الغرق في النهر، حيث أقبلت على التضحية بحياتها بعد أن أصبح حبيبها قاتلاً وأصبح والدها قتيلاً بيد حبيبها وسيفه .

إن شخصية " أوفيليا " هي شخصية رائعة رسمها شيكسبير بعناية وعذوبة وجمال عجيب فهي طاهرة نقية ، في عالم ملوث بالمؤامرات والالتواءات والأكاذيب ، وهى مثالية تحب أن تكون أهدافها مستقيمة ومشاعرها واضحة وأهدافها محددة ومنطقية وأخلاقية، ولكن العالم من حولها لا يقبل المثالية ولا يعترف بها ، حيث تدور الأحداث حولها في أجواء مضطربة معقدة ، ولعل أملها الكبير كان أن تجد خلاصها وسعادتها في الحب ، ولكن كيف يعيش الحب في بيئة يتآمر فيها الناس على بعضهم البعض ، ويضمرون الأحقاد ضد غيرهم، ولا يثق أحد في الآخرين الذين يعيشون معه وحوله ؟!

وخلاصة ما يمكن أن يقال عن شخصية " أوفيليا " هو أنها نموذج للفتاة الجميلة النبيلة صاحبة النية الحسنة ، وهى شخصية غير قادرة على فهم الشر أو التعامل معه ، وهى مثالية لا تحب أن ترتكب الأخطاء أو تواجه تعقيدات الحياة بأسلوب فيه التواء ، فهذا كله لا يتناسب مع شخصيتها الواضحة البسيطة الجميلة ولا شك أن الحظ الذي لا يمكن إنكار دوره في حياة الناس جميعا وأنه قد خان " أوفيليا" الجميلة.

فلو أنها كانت تعيش في بيئة خالية من الصراعات الرهيبة على السلطة والنفوذ إلى حد ارتكاب الخيانات وجرائم القتل من أجل الوصول إلى ذلك ، ولو أن حبيبها كان صاحب نفس هادئة راضية

بأن تبتعد عن الصراعات وتبحث عن السعادة وسلامة النفس واستقرار العواطف والأفكار .. لو أن " أوفيليا " كانت تعيش في عالم آخر أقل اضطرابا لنالت من السعادة ما تستحقه وما هي جديرة به ، وما يكفى لنشر أجنحة الفرح حول أيامها ولياليها .

ولكنها لسوء حظها ظهرت بفضائلها العالية في عصر يخلو من مثل هذه الفضائل ، ويصعب عليه الاهتمام بها ، ولم تستطع " أوفيليا" من جانبها أن تفهم الظروف التي تحيط بها ، وربما كان هذا هو خطؤها الوحيد غير المقصود ، فهي بطبيعتها الطيبة الصافية المستقيمة لم تكن قادرة على استيعاب الصراعات التي تملأ حياة القصر ، ولا العواصف التي زلزلت كيان حبيبها هاملت .

ولذلك انتهى بها الأمر إلى أن تفقد السيطرة على عقلها، وعاشت أسيرة لخيالات وأوهام قادتها إلى أن تحتضن مياه نهر صغير فغرقت فيه ، وفارقت الحياة وهى عذراء نقية مثل زهرة بيضاء طاهرة ، ومأساة " أوفيليا " هي مأساة كل أصحاب الصفاء والنقاء والطهارة عندما يصادفهم الحظ السيئ فتمتلئ الحياة من حولهم بالاضطراب والفوضى ولا يستطيعون هم أن يفهموا شيئا من ذلك أو يفسروه أو يتعاملوا معه ويتغلبوا عليه ، فتكون النتيجة أن يفقدوا حياتهم ويصبحوا ضحايا وشهداء .

❖



قلوب العاشقين وعيون الحاسدين

أهم الشخصيات في هذا الفصل :

عطيل – القائد الروماني الأسمر.

ديدمونة – حبيبة عطيل وزوجته .

ياجو – الصديق الخائن الدساس لعطيل

برابا نتو – والد الجميلة ديدمونة .



هل يمكن لشخص حاسد واحد أن يدمر حياة أشخاص سعداء طيبين مخلصين لا يضمرون شرا لأحد ولا يقيمون سعادتهم على شقاء الآخرين ؟!.

الإجابة بدون شك هي أن ذلك ممكن . والإنسان يتعلم الكثير من تجارب الحياة،وهذه التجارب تؤكد أن الحسد هو " قـــوة تــدمير كبيرة " والتعريف البسيط للحسد هو أنه نوع من الشعور بالضيق من نجاح الآخرين ، ونوع من الطمع في الوصول إلى ما لم يستطع الحاسد أن يصل إليه بطريقة طبيعية . فالحاسد دائما غير راض بنصيبه في الحياة ، ولكنه يكون في نفس الوقت غير قادر على تغيير ما يشكو منـــه أو يعانيه ، وبذلك يكون الحسد مزيجا من الطموح وخيبة الأمل في تحويل الطموح إلى واقع . وأغلبية الناس في هذه الدنيا يظنـــون أن الحـــسد يؤدى عمله بطريقة سرية لا يستطيع أحد أن يكتشفها . ويكفـــي أن يشعر شخص بشعور الحسد ضد غيره، حتى يصاب المحسود بالـــشر، وذلك دون أن يقوم الحاسد بأي مجهود عملي في سبيل تحقيق أهدافـــه من وراء شعوره السيئ.

وهذا ما يدفع بكثير من البيئات الشعبية إلى الاعتماد على استخدام البخور وقراءة النصوص الدينية المقدسة وأحيانا كتابة الأحجبة للوقاية من شر حاسد إذا حسد .

فالحسد في البيئات الشعبية هو عمل من أعمال الأرواح الشريرة ، وهو عمل يتم في الظلام ، وليس له مظاهر عملية واضحة يمكن تحديدها ومحاربتها بمثلها، أي بأساليب عملية أخرى.

على أن الحسد في حقيقته هو شعور يحس به بعض أصحاب النفوس الضعيفة ، وقد يكون هؤلاء قد ضاعت منهم فرصة يتطلعون إليها ، بينما أتيح لغيرهم أن يحققوا أحلامهم ويسعدوا بحياة ناجحة راضية يسودها الهدوء والاستقرار .

ولكن النفوس الضعيفة التي تشعر بالحسد تجد في داخلها من النشاط والحيوية ما يحركها إلى العمل على تدمير الذين هم موضوع الحسد والقضاء على ما وصل إليه هولاء المحسودون من نجاح وسعادة واستقرار . أي أن الحسد هو قوة دافعة على العمل ولكنه عمل في الاتجاه الخاطئ ، والحاسد لا يعرف اليأس .

لأن اليائس هو إنسان مهزوم في داخله يعترف بهزيمته أمام نفسه اعترافا كاملا

أما الحاسد فهو على العكس يرى أن أمامه معركة لابد أن يخوضها لتحقيق هدفه، وهدفه هو أن يخطف النجاح الذي ضاع منه ، فإذا لم يستطع فإنه يقوم بتدمير النجاح الذي وصل إليه غيره ، حتى لا يكون الحاسد وحده من الخاسرين، فهو يجر غيره إلى الخسارة فتهدأ نفسه بعض الهدوء ، ويشعر بالرضا وهو يرى الآخرين يتعرضون للدمار.

وهذا هو التفسير البسيط لما حدث للفتاة الجميلة الرائعة ذات القلب الطيب والقدرة العالية على أن تتحلى بالفضيلة التي يمكن أن نسميها باسم "شجاعة الحب" .

إنها الفتاة "ديدمونة" بطلة مسرحية شيكسبير الشهيرة "عطيل" فقد أحبت ديدمونة "عطيل" ووجدت في وجه هذا الحب عقبات صعبه ولكن "ديدمونة" تصدت لهذه العقبات ، وكانت صادقة مع نفسها وقلبها ، واثقة من أنها أحبت حبا كاملا لا تردد فيه ولا غش ولا نفاق ، وكانت مؤمنة بأن حبيبها "عطيل" يستحق الحب الذي منحته له لأنه إنسان يتحلى بفضائل عالية وصفات نبيلة وجاذبية إنسانية حقيقية .

وعندما وجدت من أبيها معارضة شديدة لهذا الحب رضيت أن تتزوج في السر من حبيبها الذي أختاره قلبها .

وبعد أن ذاع سر هذا الزواج وانتشر غضب الأب أشد الغضب ولجأ إلى المحكمة لإلغاء هذا الزواج .

ولكن "ديدمونة" المخلصة الذكية دافعت عن حبها أمام المحكمة وتأثرت المحكمة بصدقها واقتنعت بصحة موقفها فاعتبرت الزواج السري زواجا شرعيا ، وأعطته كل الصفات التي تجعله صحيحا في عين القانون والناس أجمعين ، وعاشت "ديدمونة" مع حبيبها "عطيل" زوجين سعيدين سعادة كاملة لا يعكر صفوها شيء على الإطلاق فقد كانت "ديدمونة" محبة ومحبوبة معا ، وكان زوجها محبا لزوجته أشد الحب وأقواه وكان محبوبا من زوجته بنفس الدرجة .

وعندما توجد سعادة بهذا الكمال وهذا الجمال لابد أن يظهر الحسد ويسعى إلى تدمير هذه السعادة ، وقد ظهر هذا الحسد بقوة في

شخص ذكى قوى الإرادة شديد المهارة في تدبير المؤامرات هو "ياجو" الذي كان قريبا جدا من الزوجين السعيدين ، وكان موضع ثقتهما ، وكانا لا يحسان بأي شكوك تجاهه.

وهذه" الثقة المطلقة " كانت الباب الذي دخل منه "ياجو" على حياة الحبيبين الرائعين حيث خطط تخطيطا دقيقا لتدميرهما والقضاء على ما يعيشان فيه من سعادة خالصة تكاد تجعل منهما عصفورين جميلين ملونين يتنقلان بين حدائق العشاق في فرح ونشوة ، ويبدو للجميع أنهما أسعد عصفورين في هذه الحدائق الجميلة ، وأنهما مثال لا يدانيه أي مثال آخر في الحب الجميل الذي يمنحهما كل ما يشعران به من حيوية ونشوة . وكان الجميع يشعرون بسعادة الحبيبين التي كانت تثير في كل القلوب فرحا حقيقيا، هو الفرح الذي يشعر به جميع الناس الطبيعيين وهم يرون أمامهم زهرتين رائعتين من زهور الحياة تتفتحان أمام العيون.

كل الناس كانوا سعداء بهذا الحب السعيد... إلا "ياجو" فقد امتلأ قلبه بالحسد ، ودفعه الحسد إلى التآمر لكي تنقلب السعادة التي يعيشها "عطيل"مع حبيبته "ديدمونة" إلى مأساة ، فيقتل عطيل حبيبته بتهمة ملفقة هي الخيانة الزوجية ، ثم يكتشف أنه بعد قتلها كان ضحية مؤامرة كبيرة وإن كانت رخيصة جدا قام صديقه "ياجو" بتدبيرها ، وعندما يكتشف "عطيل" المؤامرة فإنه لا يتردد في أن يقتل نفسه عقابا لها على جريمة قتله لحبيبته البريئة .

وقد كانت هذه الحبيبة بريئة تماما مثل وجهها الأبيض وثوبها الأبيض ، ومفارش سريرها التي كانت تحرص دائما على أن تكون بيضاء ، أما "ياجو" الحاسد المتآمر فقد تم القبض عليه ، وصدر ضده

حكم بالإعدام عن طريق تقطيع جسمه جزءا بعد جزء ، حتى لا يكون موته السريع راحة له ، فلابد أن يتعذب في موته .

وذلك عقاب عادل له على جريمته التي لم يكن لها مبرر غير "الحسد الشرير" الذي ملأ قلبه ضد "عطيل" و "ديدمونة" وما كانا يعيشان فيه من حب وصفاء وسعادة دون أن يحملا أبدا أي شر أو أذى للآخرين.

مسرحية عطيل هي إحدى المآسي الكبرى الأساسية في مسرح شيكسبير ، وقد كتبها شيكسبير حوالي سنة ١٦٠٤ ، وسبقتها مسرحية "هاملت" سنة ١٦٠١ ، وجاءت بعدها مسرحية "الملك لير" سنة ١٦٠٥ ثم مسرحية ماكبث سنة ١٦٠٦.

وهذه المسرحيات الأربع يعتبرها الكثير من النقاد أفضل مسرحيات شيكسبير

وهناك إجماع على أن هذه المسرحيات الأربع هي أهم "المآسي" التي كتبها شيكسبير من حيث تصويرها لأعمق مشاعر الإنسان وأصدقها وأكثرها تعبيرا عما يواجهه الإنسان في كل العصور من أسئلة حائرة حول نفسه وحياته ومصيره وأقداره وحظوظه وقلقه وأفراحه ومخاوفه .

وقد عرف الأدب العربي أول ترجمة لمسرحية "عطيل" في النصف الأول من القرن العشرين على يد الشاعر الكبير خليل مطران ، ولهذه الترجمة أهمية خاصة ، لأنها المسئولة عن شهرة بطل المسرحية باسم "عطيل" إذ أن اسم البطل في النص الانجليزي الذي كتبه شيكسبير هو "أوتللو" ولم يكن اسم "عطيل" معروفا أو شائعا على الألسن ، ولكن خليل مطران اختاره ليكون مقابلا للاسم الوارد في

المسرحية الأصلية وهو "أوتللو" ومسرحية "عطيل"كتبها شيكسبير – كما تعود في كثير من مسرحياته على أساس أصل سابق ، فقصة عطيل وردت في كتاب إيطالي اسمه "مائة حكاية" لكاتب إيطالي اسمه "جيرالدى تشنتيو"وهذا الكتاب منشور سنة ١٥٦٥، أي قبل أن يكتب شيكسبير مسرحيته بأربعين سنة ولم يرد في الكتاب "الايطالي" الذي روى قصة "أوتللو" أو "عطيل" أسما لبطل القصة ، ولكنه البطل أشير إليه في الكتاب على أنه "مورو" وهى كلمة معناها المراكشي أو المغربي أي أن "أوتللو" قد جاء إلى "البندقية" من الشرق ، ومن بلد عربي بالتحديد هو المغرب ، فبطل المسرحية عربي ، وهذا ما أغرى الشاعر الكبير خليل مطران بأن يبحث عن اسم عربي للبطل .

وقد شرح مطران سبب اختياره لاسم عطيل في مقدمة ترجمته للمسرحية . فعطيل عربي بدوى جاء من المغرب إلى مدينة البندقية وخدم في جيشها وتقدم لشجاعته وكفاءته وإخلاصه حتى أصبح القائد الأكبر والأول لهذا الجيش وليس من المقبول من الناحية العقلية أن يكون هذا العربي البدوي قد سمى منذ مولده باسم "أوتللو" يحمل أسما عربيا، وأن هذا الاسم جرى تحريفه عند نطق الأوروبيين به كما حدث في معظم الأسماء العربية على لسان الغربيين .

وهنا يقول الشاعر مطران " إذا رددنا أسم "أوتللو" إلى أصله العربي فالذي يمكن استخراجه من حروفه أحد أثنين : عطاء الله أو عطيل .

أما عطاء الله فلم أتوصل إلى أن مغربيا واحدا سمى بهذا الاسم ولهذا استبعدته وضربت عنه صفحا . أما " عطيل" فقد اعتقدت انه انسب لسببين :

أحدهما أنه أشبه بما جرت به عادة العرب على تسمية الزنوج من ألفاظ التحبب أمثال : مسعود ومسرور وزيتون ومرجان للرجال وخيزران وضياء للجواري من النساء ومعلوم أن كلمة "عطيل" هي تصغير محبب لصفة "عطل" بمعنى "عاطل" أو خلو من الزينة ، فتسمية أحد الزنوج به إنما هي محاكاة صحيحة لاصطلاح العرب ، وثانيا لأن "عطيل" أقرب إلى "أوتللو" من كل اسم سواه.

ومنذ أن كتب خليل مطران هذا الكلام قبل حوالي سبعين سنة واسم "أوتللو" عند العرب هو "عطيل" الذي أصبح مشهورا عند الجميع ، وهو ابتكار كامل للشاعر خليل مطران لا يشاركه فيه أحد وقد أعترض عدد من النقاد على اسم " عطيل" وقدموا لذلك حججا متعددة ، ولكن الاعتراض كان بلا جدوى ، فقد أصبح اسم "عطيل" أشهر من أن يؤثر عليه نقد أو اعتراض ..

على أن عطيل لم يكن "زنجيا" فللزنوج ملامح أخرى تميزهم غير اللون الأسود ، ومنها الشفتان الغليظتان .وليس من الثابت في مسرحية شيكسبير أن عطيل كان غليظ الشفتين ، وإن كان هذا الوصف قد ورد على لسان أحد الكارهين لعطيل، مما اعتبره بعض النقاد نوعا من "السب والشتم" وليس وصفا حقيقياً وقضية "لون عطيل" هي من القضايا الطريفة في أدب شيكسبير ؛ إذ أن شيكسبير لم يحدد لون عطيل تحديدا قاطعا يضع حداً للخلافات حوله .

ولكن المسرحية لم يرد فيها أبدا أن عطيل كان زنجيا ، بل لم يرد فيها تحديد لدرجة السواد في لون عطيل ، ويرى بعض النقاد أن سواد عطيل كان نوعا من "السمار " الشائع في وجوه الشرقيين

بصورة عامة . أي أن " عطيل " كان أقرب إلى الهنود وأبناء الصعيد في مصر . وبعض النقاد يرون رأيا آخر هو أن سواده كان كاملا وداكنا . ورغم هذه الاختلافات فهناك اتفاق على أن لون عطيل كان مختلفا بصورة تامة عن لون الغربيين ، وعن لون حبيبته "ديدمونة" التي كانت بيضاء من غير سوء .

ولكن كيف نشأت علاقة الحب بين "ديدمونة" البيضاء الجميلة الفاتنة وبين "عطيل" العربي الأسود القادم من المغرب ؟!.

ذلك ما يلخصه لنا بدقة "شارل ومارى لام" في كتابهما الممتع الهام "روائع شيكسبير" " ترجمة روايات الهلال – الجزء الثاني – حيث نقرأ في هذا الكتاب قصة البداية العاطفية الأولى بين "ديدمونة" و"عطيل" على الوجه التالي:

كان " برابانتو" من أكثر أعضاء مجلس الشيوخ في إمارة "البندقية" ثراء ، وكانت لهذا الرجل ابنة حسناء فاتنة واسم هذه الفتاة الرقيقة الوديعة "ديدمونة" وكان من الطبيعي بالنسبة لهذه الابنة أن يتهافت عليه الخطاب الكثيرون من الطبقة الاجتماعية العالية وأصحاب الثروة العظيمة .

فالفتاة "ديدمونة" قد جمعت في شخصيتها نسبا رفيعاً وثروة طائلة وصفات طيبة وجمالا بارعا . ولكن والدها كان رجلا متفتح العقل فترك لابنته حرية اختيار من يروقها ليكون زوجا لها من بين خطابها الكثيرين . وكانت "ديدمونة" من جانبها صاحبة عقل مثقف وإحساس مرهف وأخلاق إنسانية من خلال اللون والشكل والأناقة والمال والجاه ، بل كانت تحكم على الرجال على أساس عقولهم وقلوبهم وما في نفوسهم من قوة أخلاقية ورقى وشجاعة ، ولذلك فقد

انصرف قلبها عن كل خطابها الذين يشبهونها في اللون والشكل والثروة والأصل الاجتماعي — ومال قلبها إلى "عطيل" المغربي الأسود الذي لم يكن من ذوى الأصول العريقة في البندقية أو غيرها من الإمارات الإيطالية الأخرى ، وإنما هو رجل عسكري جاء إلى البندقية وخدم في جيشها وكسب للبندقية معارك كثيرة فأصبح قائدا لجيشها ، وقام برحلات كثيرة إلى البلاد والمدن المختلفة محاربا أو حارسا قويا للسفن التجارية الخاصة بإمارة البندقية .

وكان "برابانتو" والد "ديدمونة" يحب "عطيل" لسحر حديثه وطيبة قلبه ، وكان الوالد يدعوه إلى بيته كثيرا .

و لم تكن ديدمونه طائشة في اختيارها أو مدفوعة إذ أن "عطيل" كان موضوعا لمحبة الناس في البندقية ، و لم تكن تنقصه صفة عن الصفات التي تكتمل بها قيمة الرجال .

فهو جندي من أشجع الجنود ، أوصلته شجاعته إلى رتبة القائد وصار موضع ثقة الدولة ، ولا تنسى ما يحمله هذا القائد الشجاع من قصص وأحاديث ممتعة عن البلدان التي زارها والمغامرات التي مر بها في عصر لم تكن الأنباء الطريفة المثيرة فيه تصل إلى السيدات عن طريق الكتب الشعبية أو الصحف أو السينما والإذاعة وغيرها من الوسائل الحديثة . فكانت الرواية الشفوية هي المصدر الوحيد لمثل هذه الموضوعات التي تثير شغف السيدات والفتيات جميعا بل وتثير شغف الرجال أيضا . وكان "عطيل" بارعا في أحاديثه الممتعة وتصويره لقصص رحلاته ومعاركه والمشاهد الغريبة والعادات العجيبة التي عرفها في رحلاته المختلفة . وفى خلال هذه الأحاديث كان عطيل يكشف عن الأخطار الكبيرة التي تعرض لها في البر والبحر . وكانت مثل هذه الأحاديث تجذب قلوب السامعين إليه فيبدو في نظرهم أنسانا عزيزا

مثيرا للاهتمام وكم من دمعة ذرفتها ديدمونة حينما روى عطيل لها قصة وقوعه أسيرا ذات مرة ، وأي عذاب عاناه ، وكيف تم بيعه في الأسواق كعبد من العبيد ، وفى ظل هذه العبودية عانى المزيد من العذاب حتى استطاع بذكائه أن يحتال لنفسه ويتمكن من الفرار . وكم من شهقة شهقتها تلك الفتاة الجميلة و"عطيل" يروى لها عجائب المخلوقات وبعض هؤلاء يأكلون لحوم البشر ، وبعضهم يعيشون في جبال فيها كهوف مليئة بالأهوال .

فليس عجيبا بعد كل هذا كله أن تستأثر الجلسات والسهرات التي يتوسطها عطيل بانتباه الفاتنة الصغيرة "ديدمونة" وذات يوم وجهت ديدمونة رجاء إلى عطيل أن يروى لها قصة حياته الشخصية من أولها " إلى آخرها بالترتيب " . فقد سمعت من قبل ذلك أجزاء متناثرة منها . وهى تريد أن تسمعها كاملة هذه المرة. وبطبيعة الحال بادر "عطيل" بالموافقة على هذا الطلب . واستطاع أن يملأ عينيها بكثير من الدموع عندما تحدث إليها عما صادفه في حياته من متاعب وآلام وحرمان .

ولما فرغ من سرد قصة حياته أقسمت له "ديدمونة" بصوتها الجميل أن تلك الآلام والمخاطر الغريبة قد سحرتها أو أثرت في نفسها أعمق التأثير .ولم يكن من الممكن أن يجد "عطيل" من ديدمونة تشجيعا عاطفيا أكثر من هذا التشجيع ، وهو تشجيع صريح وإن كان يكتسي بالخجل والحياء . وأدرك "عطيل" أن الباب مفتوح والفرصة متاحة فصارح "ديدمونة " بحبه لها . ولم تخيب "ديدمونة" ظنه فأعلنت موافقتها القلبية الكريمة على الزواج منه إذا تقدم بطلب يدها من أبيها.

تلك هي المقدمات الأولى للحب الشريف العفيف النظيف الذي نشأ بين "ديدمونة " و"عطيل" وهو حب يكشف عن المعدن

الطيب النبيل لشخصية "ديدمونة" ذلك لأنها كانت تفكر بـإخلاص وصدق مع نفسها ومع الناس .

وقد أعطتها الحياة كثيرا من الأشياء التي كانت كفيلـة بـأن تجعلها متعالية وربما دفعتها هذه الأشياء إلى الغرور أو على الأقـل إلى الثقة الزائدة بنفسها ، فهي جميلة جمالا فاتنا يبهر العيون ، وهي ثريـة جدا ، لأنها الابنة الوحيدة لأبيها الذي كان من كبار أثرياء "البندقية" وهي من أسرة عالية المقام ، وهي تعيش في قصر كـبير وحياتهـا لا ينقصها شيء من أسباب السعادة والراحة . ولكن هذا كله لم يكن له أي تأثير سلبي على شخـصية "ديدمونـة" وطريقتـها في الـتفكير الإحساسي ، فهي شخصية نبيلة لا تتأثر بالمظاهر والشكليات ولا تقبل فكرة إلا إذا آمنت بصواب هذه الفكرة ، ولا ترضى أن تفرض علـى قلبها إحساسا زائفا لا يتجاوب معها هذا القلب .

فقلبها لا ينبض إلا للصدق وللعواطف القوية الخالية مـن أي افتعال . ومن الواضح أن ديدمونة كانت صاحبة عقل يحب المعرفـة ، فهي تطرح الأسئلة وتحاول أن تحصل علـى إجابـات تـضيف إلى معلوماتها ما يجعل تصوراتها للحياة والناس خاليـة مـن الأوهـام أو الخرافات . وقد خلق هذا كله من "ديدمونة" شخصية قوية لها إرادتها الخاصة المستقلة ، ولها رأيها الذي لا ترضى أن يكون مفروضا عليهـا في أي أمر من الأمور فهي تصل إلى آرائها باجتهادها وتفكيرها الذكي وثقافتها الواعية وإحساسها . والحقيقة أنه بالإمكان اعتبار شخـصية "ديدمونة" أول شخصية نسائية تعبر عن حرية المرأة في أدب النهـضة الأوروبية ، فقد ظهرت هذه الشخصية النسائية الجميلة في مسرحية " عطيل" منذ حوالي أربعمائة سنة وعندما نتأمل أخـلاق "ديدمونـة" وتصرفاتها وطريقتها في مواجهة الأمور الصعبة التي واجهتها ، سوف

نجد أنها امرأة متحررة بالمعنى الراقي لحرية المـرأة ، فقـد واجهـت "تحديات" دقيقة وانتصرت عليها جميعا بجهدها وقوة عقلها وصـدق إيمانها بأن حريتها في الاختيار والتصرف هو التعـبير الـصحيح عـن إنسانيتها . ومن هذه التحديات أن المرأة الأوروبية في العصر الـذي ظهرت فيه مسرحية عطيل "١٦٠٤" لم تكن تستطيع أن تتزوج مـن طبقة اجتماعية أقل من طبقتها ولم يكن من المقبول أن تتزوج امـرأة غربية من رجل شرقي ، فقد كان الشرق في نظر الغرب أدنى مكانـة وأقل شأنا من الغرب ، وكان اختيار أي امرأة غربية لـزوج شـرقي مسألة تكاد تكون مستحيلة لأنها تـنـزل بمقام المرأة ، كما أن عـصر ظهور مسرحية "عطيل" كان بدايات ظهـور الاسـتعمار الأوروبي للشرق، فكانت النظرة الغربية للشرق نظرة سيادة واستعلاء ، فقبـل ظهور مسرحية "عطيل " بحوالي ١٢ عاما وبالتحديد في سـنة ١٤٩٢ كان قد تم طرد العرب نهائيا من إسبانيا ، وانتهت بـذلك صـفحة الحضارة العربية المشرقة ، وبدأت شمسها في الغروب .

على كافة التقاليد الثابتة في وعندما نفكر في شخصية "ديدمونة " نجد أنها قد خرجت المجتمع الغربي في عصرها ، وتمسكت بأفكارهـا الإنسانية الصافية النقية والخالية من أي تعصب أو قيود تتناقض مـع الطبيعة الإنسانية السليمة . فقد اختارت زوجها بنفسها ، واختارتـه لأنها أحبته وليس لسبب آخر .

والأخطر من ذلك أنها وهى "البيضاء" الأوروبية قد رضـيت بالزواج من رجل لونه أسود بينما كان اللون الأسود يلقى تمييزا شديدا ضد صاحبه ، فهو لون العبيد ، وكان نظام الرق لايزال منتشرا وقويا إلى أبعد الحدود في الغرب والشرق على السواء ، وكان معظم الأرقاء من السود . ولكن ديدمونة حين أحبت لم تتردد ولم تناقش الأمر ولم

تضع لون "عطيل" موضوع الدفاع أو التبرير أو البحث فيه. لقد أحبت الإنسان بأخلاقه وثقافته وكفاءته في عمله كقائد عسكري . وأحبت قلبه الطيب ونفسه الحساسة وعقله الكبير وحديثه الممتع وتجاربه الواسعة . وكان ذلك قرارا خطيرا حين تتخذه فتاة أوروبية بيضاء من طبقة اجتماعية عالية في ذلك العصر . وبذلك يكون موقف "ديدمونة" أول إعلان في أوروبا لتحرير المرأة من سائر القيود الخارجية ، ومن أي التزام بشيء آخر غير ما يمليه عليها قلبها واختيارها الحر وتفكيرها المستقل . ومن الشائع في الأدب الأوروبي أن يقال إن "نورا" بطلة مسرحية "بيت الدمية " للكاتب النرويجي " هنريك إبسن" هي أول " نموذج أدبي وفني" يمثل الدعوة الجريئة لتحرير المرأة .

وقد ظهرت مسرحية إبسن سنة ١٨٦٤ أي بعد ظهور مسرحية "عطيل" بمائتين وستين سنة وأظن أن "ديدمونة" أحق بأن تكون الأولى قبل "نورا" وأن تأتى " نورا" بعدها في الترتيب . والحرية التي تمسكت بها ديدمونة " أوسع بكثير من الحرية التي أصبحت "نورا" رمزا لها فقد تخطت ديدمونة عقبات كبيرة كان يضعها المجتمع كله ضد المرأة ، فيقيد حريتها في الحركة والاختيار بينما كانت ثورة "نورا" موجهة إلى زوجها ، وبالطبع فإن الزوج هنا يمثل الرجل بصورة عامة ، مما يجعل ثورة نورا ثورة غير شخصية فهي لاشك كانت تعبر عن رفضها للقيود التي تجعل منها مجرد كائن تابع للرجل وقانع بما يضعه الرجل من القوانين والتقاليد حتى لو كان فيها ظلم للمرأة . هذا صحيح بالنسبة لشخصية "نورا" بطلة "بيت الدمية " ولكن "ثورة ديدمونة" كانت أقوى وأصعب وأشمل لأن "ديدمونة" واجهت قيودا أشد وأقسى من أي قيود أخرى . وأهم هذه القيود قيد "اللون" في عصر لم يكن يتسامح في ذلك الأمر ولم يكن يقبل بأي صورة من الصور أن تحب امرأة أوروبية بيضاء رجلا شرقيا أسود وتتزوجه

وتواجه غضب والدها وغضب مجتمعها وتتمسك بموقفها وتدافع عنه حتى تنتصر وينتصر معها مبدأ بالغ السمو وهو أنه عندما يوجد الحب الصادق والحقيقي والقائم على أساس قوى فلا يوجد ولا يجوز أن يوجد قيد يعوقه أو يقف في وجهه .

على أننا عندما نقول أن موقف ديدمونة يمثل "ثورة" في مجال تحرير المرأة سبق غيره من المواقف التي عبرت عنه الشخصيات الأدبية الكبرى ، وخاصة شخصية "نورا" في مسرحية "بيت الدمية". عندما نقول كلمة "الثورة" ونربطها باسم "ديدمونة" فيجب علينا أن نكون على حذر شديد ، ذلك لأن كلمة "الثورة" مرتبط بالعنف .

وليس في شخصية "ديدمونة" أي عنف بل فيها رقة ولطف ، وهي شخصية وديعة لا تجرح أحداً ولا تقاتل أحداً ، بل هي تعطى كل من حولها الكثير من دفء قلبها وحنان روحها وصدق تعاملها مع الجميع وبعدها التام عن التظاهر والخداع والكذب . " فديدمونة " هي البراءة الكاملة والعذوبة الصافية والزهرة الجميلة، وهذه المعاني جميعا بعيدة تماما عما يمكن أن يرتبط بمعاني كلمة "الثورة" من تمرد وصراع ومعارك متصلة، وهذا هو ما يزيد من شخصية " ديدمونة" جاذبية وجمالا، لأنها حققت "ثورة " دون أي استخدام للأساليب العنيفة المألوفة في الثورات، بل حققت ثورتها بالحب والصدق مع نفسها والبحث عن المعاني العميقة الطيبة في نفوس الناس وبمواقف الحياة المختلفة.

ومن ناحية أخرى فإن شيكسبير لم يكن من الفنانين الذين يحرصون على التعبير عن أفكار نظرية عامة ، فهو بعيد كل البعد عن هذا اللون من الفن الذي تفرض الأفكار نفسها عليه ، فلا يوجد في

أعمال شيكسبير جميعا مسرحية واحدة يمكن قراءتها على أساس أنها تعبر عن فكرة محددة ، ولذلك لا يمكننا القول أن مسرحية "عطيل" هي مسرحية أراد بها شيكسبير أن يعبر عن فكرة تحرير المرأة أو يدعو إلى هذه الفكرة ، ففن شيكسبير قائم على تقديم النماذج الإنسانية كما هي في الحياة ، وما "ديدمونة" إلا نموذج حي ورائع للطهارة والبراءة وحسن النية والصدق مع النفس ومع الآخرين و "ديدمونة" عند شيكسبير هي نموذج حي للفطرة الإنسانية التي لم تشوهها الأوضاع الاجتماعية أو غيرها من الظروف التي تؤثر في الفطرة الطبيعية وتتحكم فيها ، وإذا اجتهدنا نحن ورأينا فيها نموذجا فنيا مبكرا لسعى المرأة إلى التحرر ، وذلك قبل أن تظهر أي إشارة أدبية أو فنية إلى فكرة تحرير المرأة بما يقرب من مائتين وخمسين سنة ، فذلك اجتهادنا نحن ، أما شيكسبير فهو يقدم الحياة والنماذج الإنسانية المؤثرة كما خلقتها الطبيعة ولا شأن له بالأفكار النظرية المجردة ، فهو فنان يبدأ من الحياة وينتهي إلى الحياة ، وكل أعماله فيها ما في الحياة من رحابة واتساع وتشابك وإيحاءات متعددة متنوعة لا تقف عند حد .

على أن الصورة الحية التي قدمها شيكسبير في مسرحية عطيل لشخصية "ديدمونة" تعيدنا من جديد إلى نقطة البدء وهي الدور السلبي المدمر للحسد والحاسدين في الحياة ، فطهارة قلب "ديدمونة" واستقامة تفكيرها وعدم تصورها لوجود الشر ، قادها إلى نهاية مأساوية ، فقدت حياتها مقتولة على يد حبيبها ، كما فقد حبيبها حياته أيضا بالانتحار عقابا لنفسه على ما وقع فيه من خطأ جسيم .

وقد ظهر هذا الحسد في صورة لا مثيل لها على شكل إنسان هو " ياجو " الذي دبر "مؤامرة" أو "مكيدة" دقيقة لاتهام "ديدمونة" بأنها تمارس "الخيانة الزوجية " مع الشاب "كاسيو" مساعد "عطيل"

وقد لفق"ياجو"الأدلة لإثبات التهمة أمام "عطيل" فقام بقتل زوجته انتقاما لشرفه ، ثم تبين له بعد القتل أن الأدلة مزيفة فقتل نفسه .
وكان الدافع عند "ياجو " لتدبير مؤامرته هو الحسد الشديد – للسعادة الغامرة التي كانت تعيش فيها ديدمونة مع زوجها وحبيبها عطيل ، يضاف إلى ذلك أسباب أخرى ثانوية قامت بتغذية الحسد الذي ملأ قلب "ياجو" ضد الحبيبين وهنا نحس أن "البراءة" الكاملة التي كانت تتجسد بصورة رائعة في شخصية ديدمونة لم تكن كافية لحمايتها من الأذى والشر ، بل على العكس كانت هذه البراءة إغراء شديدا بالعمل على تدمير السعادة التي تعيش فيها هذه الإنسانة الرائعة ، فالحاسد الشرير "ياجو" كان يدرك تمام الإدراك أن ديدمونة لا تسيء الظن بأحد ، ولأنها لم تمارس الشر مطلقا فأنها لا تعرفه ولا تتصوره ، كما أنها تساعد الجميع وتتعامل معهم حسب طبيعتها الجميلة الراقية المهذبة ، ولذلك فإنها كانت تشعر بالأمان ، ولا يخطر على بالها أن هناك من يدبر لها في الخفاء هذا الشر الشيطاني ، ولعلها لم تكن تدرك معنى "الحسد" أو تتخيل أنه شعور يمكن أن يقود صاحبه بدون سبب ظاهر إلى تدبير مؤامرة مدمرة على الشكل الذي قام به ياجو ، بل لقد ماتت "ديدمونة " مقتولة وهي لا تعرف من أين جاء زوجها بالاتهام الذي حاسبها عليه وهو "الخيانة الزوجية" وهكذا دفعت "ديدمونة" ثمن طهارتها وعفتها وحسن ظنها بالناس وتصورها الخاطئ أن الجميع أبرياء مثلها وقلوبهم مخلصة مثل قلبها ... وهذه محنة إنسانية دائمة ومتكررة ، وكثيرا ما يقع فيها الذين لا يعرفون "الحذر" ولا يتصورون معنى الشر ، ولا يخطر على نفوسهم النقية أن هناك شيئا اسمه الحسد ، وأن الحاسدين قد يمارسون شرورهم دون سبب ، فهم يرتكبون "الشر للشر" ويطفئون بذلك نارا تشتعل في داخلهم ضد من يرون أنهم سعداء وناجحون ، ولا جدوى من النصيحة في هذا المجال ، فلا الذين

يأكل الحسد قلوبهم سوف يتغيرون ، ولا أصحاب النفـوس البريئـة الطاهرة النبيلة سوف يكونون قادرين على أن يعلقوا داخل نفوسـهم جرس إنذار يحذرهم من الناس ويقول لهم خذوا بالكم ..

فحتى أقرب الناس إليكم يمكن أن يسعى إلى تدميركم . فـلا تثقوا بأحد ثقة مطلقة .. لأن الثقة المطلقة التي لا تعرف الحذر هو الجو المثالي لتدبير مؤامرة مدمرة وناجحة ولا يمكن اكتشافها إلا بعد وقوع ((الفأس في الرأس)) .

❖



ملاك جميل.. في عالم شيطاني

أهم الشخصيات في هذا الفصل هي:

عطيل ـــ ديدمونة ـــ ياجو

ثم " **كاسيو** " المساعد الثاني لعطيل .

تحقيق الإنسان للنجاح في حياته الخاصة ليس كافياً لأن يكون هذا الإنسان الناجح آمنا من المتاعب والمصاعب ذلك لأن النجاح بطبيعته سريعا ما يخلق له أعداء يحاربونه، ويسعون إلى القضاء عليه، والنجاح إذا كان كبيراً يكون أعداءه أشد وأخطر، أما النجاح المتوسط فمن الطبيعي أن يكون أعداءه من المتوسطين أيضاً، والنجاح العادي المحدود يكون أعداءه من نفس نسيجه، أي أعداء عاديون محدودون. وهكذا يكون الخطر كبيراً على النجاح الكبير الساحق.

ومثل هذا النجاح يكون من العسير تدميره عن طريق العداء الصريح الواضح ولذلك فإن أعداء النجاح الكبير دائماً يكونون أشبه بالتنظيم السري الذي يعمل في الظلام، لأنهم لو عملوا في النور وبصورة علنية فإن أصحاب النجاح الكبير يستطيعون الانتصار عليهم ولذلك فالنجاح الكبير تأتيه الضربات من داخله،وتأتيه غالباً من أشخاص يكونون موضع الثقة، ويكونون بعيدين عن أي نوع من سوء الظن فيهم.

تلك هي حقائق الحياة وهي أيضاً حقائق الأحداث التاريخية الكبرى التي تظهر فيها الخيانة وتلعب دوراً أساسياً في هدم دعائم النجاح والناجحين . فالضربات القوية القاصمة للظهر تأتي في أغلب

الأحوال من داخل معسكر الناجحين وليس من خارج هذا المعسكر، لأن العدو الظاهر "مقدور عليه"أما العدو الذي يخفى عداءه في داخل نفسه ولا يظهر أي علامة تدل على ما يخفيه ، فهو العـدو الخطـير القادر على تنفيذ مؤامراته، والذي يقوم بتدبير خططه في السر وبعيداً عن العيون وهذا ما يجعل الباحثين في شتى علوم الإنسان يتفقون على أن الإنسان فهو الكائن الوحيد في هذه الدنيا الذي لا يمكـن التنبـؤ بتصرفاته فمن الممكن التنبؤ بسلوك الأسود والعصافير وحتى الكلاب، لأن هذه الكائنات تتصرف حسب قواعد ثابتة تحكمها الغريزة وهـي قواعد لا تتغير من أسد إلى أسد ولا من عصفور إلى عصفور ولا مـن كلب إلى كلب فكل هذه الكائنات تتصرف بطريقة واحدة ومتشابهة.

أما الإنسان فهو القادر وحده على أن يفاجئ غيره بشيء غير منتظر منه، فمن الممكن أن تجد من يحبك اليوم يعلن عليك الحرب في الغد ، ومن الممكن أن يحدث ذلك دون أي مقدمـة ظـاهرة أمـام عينيك،ولعلك تستطيع عند المفاجأة بانقلاب حبيبك إلى عدو لك أن تجد السبب وتضع يديك على التفسير،بعد أن تجتهد في الأمور وتبحث في الأوراق التي لم تلفت نظرك في السابق ولكن ذلك لن يغير شيئاً من الواقع .. من كان حبيباً في الظاهر هو في حقيقته عدو كـان يخفـى العداء بقدر كبير من الدهاء، وكان يبحث عن اللحظة التي يجعل فيها من عدائه الخفي ظاهراً، والتي يستطيع فيها أن يضرب ضربته ويضمن لها النجاح.

وهذه الظاهرة الثابتة التي تجعل من الإنسان كائناً لا يمكن التنبؤ بتصرفاته هي مصدر كثير من المآسي التي تقع في حياة الناس الخاصـة وتقع أيضاً في أحداث التاريخ،فالذين قتلوا"يوليوس قيصر" لم يكونوا هم أعداءه الظاهرين فهؤلاء الأعداء أستطاع أن يحاربهم وجهـاً لوجـه

وينتصر عليهم بشجاعته وعبقريته العسكرية ولكن مصرع قيصر جاء على يد أصدقائه،أو من أتقنوا التظاهر بأنهم أصدقاؤه وأنهم يقفون معه في معسكر واحد،وعندما دخل"قيصر" صباح يوم ١٥ مارس سنة ٤٤ قبل الميلاد لم يكن يتوقع أن أعضاء مجلس الشيوخ قد تآمروا فيما بينهم ولم يكن يتوقع أن يكون بين الذين يطعنونه بسيوفهم وخناجرهم واحداً كان يعامله كما يعامل أبناءه وهو"بروتس"وكان بروتس يظهر لقيصر الحب والإعجاب والولاء،ولكنه مع ذلك شارك في مؤامرة قيصر وكان من الذين تقدموا إليه وهو جالس في "مقعده القيصري" الذي يشبه عرش الملك أو الإمبراطور وطعنه بخنجره مع الطاعنين مما جعل قيصر ينطق بكلمته الأخيرة التي أصبحت مثلاً يردده الناس في كل العالم وهى الكلمة أو الصرخة المؤثرة التي يقول فيها قيصر:

"..حتى أنت يابروتس ؟" فبروتس هو الحبيب الخائن ، والصديق الغادر ، والقريب إلى قيصر والذي لم يتوقع أبداً منه الشر على الإطلاق ، بل لعله كان يتوقع منه أن يكون سنداً له وأن يكون حارساً يحميه من أعدائه ، لا أن يطعنه بخنجره في صدره ويلوث يديه بدماء قيصر الذي كان صديقاً وأباً له،وكان ينظر إلى "بروتس" على أنه واحد من أقرب الناس إلى قلبه . وتلك حادثة كبيرة من أحداث التاريخ،وهى ليست وحيدة ولا فريدة،ففي التاريخ أحداث أخرى تتكرر فيها مفاجأة انقلاب الأحباب والمقربين إلى قاتلين لا يترددون فيما يقومون به لحظة واحدة . وهذه القاعدة التي يسجلها علماء الجنس البشرى،والتي تقول إن الإنسان لا يمكن التنبوء بتصرفاته،وأنه الكائن الوحيد في هذه الدنيا الذي يمكن أن ينقلب فجأة من حبيب قريب إلى عدو مبين..هذه القاعدة هي التي تفسر المآسي التي تقع في حياة الناس الخاصة،أو تقع على مسرح التاريخ،وهى للأسف قاعدة لا يمكن تغييرها،ولذلك سوف تظل "المفاجآت" التي تصدر عن الإنسان

تقوم بعملها السلبي في الحرب على الناجحين والسعداء،فتأتيهم الضربات من حيث لا يتوقعون . في مسرحية " عطيل " لشيكسبير نجد أنفسنا أمام هذه الظاهرة،وهي انقلاب من أبطال المسرحية إلى متآمرين يدمرون نجاح القائد العسكري الناجح الموهوب،"عطيل"ويدمرون سعادة زوجته الفتاة الجميلة النبيلة صاحبة القلب الطيب الخالي من أي ظن سيء بمن يحيطون بها ويظهرون المودة والإخلاص لها وهم يخفون في قلوبهم نارا من الحقد عليها والرغبة في تدمير سعادتها ووضع حد لما تعيش فيه من عاطفة صادقة مشرقة نحو زوجها وحبيبها "عطيل" . هذه الزوجة الرائعة في نبلها وجمالها واستقامة عواطفها وأفكارها هي "ديدمونة" وهي البطلة الأساسية في مسرحية "عطيل" وهي التي تشد انتباهنا وتجذب عواطفنا إليها ، وهي التي تجرح قلوبنا في نهاية الأمر بسبب المأساة التي انتهت إليها حياتها بعد أن استطاع واحد من ((عباقرة الشر)) أن يقنع زوجها عطيل بأن زوجته تخونه مع أحد الشبان من مساعدي الزوج . عبارة ((عباقرة الشر)) هي العبارة الوحيدة التي تنطوي تحتها شخصية " ياجو" الذي قام بتدبير المؤامرة ، وتسريب سم الشك إلى نفس "عطيل" مما انتهى بهذا الزوج المخدوع إلى قتل زوجته "ديدمونة" دون أن يكتشف المؤامرة إلا بعد تنفيذه لجريمة القتل ، فما كان منه إلا أن قام بقتل المتآمر على حياته وسعادته ، ثم قام بقتل نفسه بعد ذلك ندما على جريمته في حق حبيبته التي لم تكن خائنة، لا بجسمها ولا بعواطفها وأفكارها ، فقد كانت ضحية بريئة تماما ، و لم تكن تستحق إذن ذلك العقاب الدموي الرهيب ، وهو قتلها على يد زوجها الذي أحبته وتحدت الجميع في حبها له ، وأخلصت لهذا الحب كل الإخلاص ، ولكنها وقعت فريسة ((لعبقرية الشر)) التي كان يمثلها هذا الشخص الذي يحمل اسم "ياجو" والذي أصبح منذ أن قدمه شيكسبير في مسرحية "عطيل" اسما له شهرة عالمية

، حيث يتردد دائما على ألسنة الناس كمثل أعلى للحقد والحسد والتآمر الذي يعمل بنشاط شديد في السر والظلام حتى يتمكن من الوصول إلى هدفه وطعن فريسته طعنة قاتلة .. وهذا العبقري الشرير ياجو يمتلك كل العناصر التي تؤهله إلى تدبير مؤامراته وتنفيذ جرائمه بنجاح ، فهو حاد الذكاء ، وقادر على كتمان مشاعره والتظاهر بعكسها تماما ، وهو حسود حقود ، والحسد والحقد في داخله يشعلان نارا لا تنطفئ ، وهذه النار هي وقود للنشاط الدائم في حياة "ياجو" وإن كان هذا النشاط القوى يجرى دائما في اتجاه الهدم والتدمير والذي حدث أن "ياجو" قام بتدبير مؤامرته ضد عطيل وزوجته "ديدمونة" وأتقن التدبير، فاقتنع "عطيل" بأن زوجته تخونه فقتلها، وبعد أن تمت الجريمة انكشفت الحقيقة، وتبين أن الخيانة لم يكن لها أصل في الواقع، وإنما هي قصة ملفقة، أتقن "ياجو" تلفيقها أشد الإتقان. وهنا حل العقاب الذي لابد منه بشخص "ياجو" فقام "عطيل" بقتله قبل أن يقتل نفسه ويرى بعض النقاد وهو رأى طريف وربما كان معقولاً أيضاً أن "ياجو" قد عاش قبل أن يحل به العقاب لحظات سعيدة مليئة بالفرح والنشوة، وذلك عندما وصلت جريمته إلى هدفها وأدت إلى قتل "ديدمونة" البريئة على يد زوجها وحبيبها.

فشخصية "ياجو" هي شخصية تحب الشر للشر، والشر له جاذبية كبرى بالنسبة لهذه الشخصية، فهو لا يحس بوجوده ولا يقتنع بأن له شيئاً من الأهمية إلا إذا صنع شراً كبيراً ونجح فيه، فهو عاشق للشر متيم به لا يجد لحياته أي معنى بدونه. وذلك تفسير فيه بعض الغرابة، ولكننا لو تأملناه في هدوء لوجدناه عين الصواب، فهناك نماذج من الناس يقوم تكوينهم في الفكر والعاطفة والإحساس على هذا الأساس أي على حب الشر والتفنن في صناعته والتفكير فيه، فسعادة هؤلاء لا تتم إلا بالشر وتدمير سعادة الآخرين حتى لو جاءت النتيجة

النهائية بعقاب أليم يحل بهم ويهوى فوق رؤوسهم ولنترك "ياجو" العبقري في الشر ونعود إلى شخصية "ديدمونة" لنتساءل كيف تركت هذه الفتاة الجميلة النبيلة الجريئة المثقفة نفسها لتقع في مصيدة مكيدة تنتهي بها إلى فقدان حياتها بعد اتهامها بخيانة زوجها، وهي تهمة كبيرة لا تليق بشخصية "ديدمونة" السامية والمصنوعة من خيوط إنسانية بالغة الصفاء فهي شخصية من "الحرير" النقي الذي لا يوجد فيه عيب واحد يمكن أن تبصره العين حتى لو كانت هذه العين من العيون التي تعودت أن تبحث عن العيوب.

"ديدمونه" كانت فتاة بالغة الجمال لم تبخل عليها الطبيعة بالكمال في هذا الجمال وقد أعطاها هذا الجمال ثقة بنفسها وهى ثقة نبيلة لا شبهة فيها من الغرور والتعالي فهي تعرف أنها جميلة وتعرف أن الجميع يشهدون لها بهذا الجمال ولا يختلفون فيه.

ولكن الجمال وهو كنز ثمين لم يكن هو الفضيلة الوحيدة في شخصية "ديدمونه" فقد كانت صاحبة عقل مثقف لديه شهوة للمعرفة بغير حدود و لم تكن من النوع الذي يحب أن يجمع المعلومات لتتباهى بها على غيرها ولكنها كانت تتلقى المعلومات والمعارف بعقل حي ومشاعر متفتحة فتنفعل بالمعلومات النافعة وتنفعل ضد كل ما يبدو فيه شر أو خديعة أو خطيئة.

وقد كانت شخصية "ديدمونة" مثقفة بهذا المعنى الجميل لأنها كانت تقرأ وتسمع وترى دون أن يكون لديها أي حياد بين الخير والشر فقد كانت بفطرتها النقية تميل إلى جانب الاستقامة والصدق والأمانة وكل ما هو نبيل في الحياة الإنسانية ونتيجة لذلك كله كانت "ديدمونة" حرة وشجاعة لأنها كانت تختار مواقفها في الحياة بعقلها الحر وضميرها النقي وكانت لا تعرف الكذب أو الالتواء في اختيار

مواقفها والدفاع عن آرائها وكان أعظم موقف في حياتها هو موقفها عندما شعرت بأنها تحب "عطيل"، وقد رضيت بالزواج منه لأن هذا هو الوضع الطبيعي، فالحب القوى الصادق يرفض الاختفاء والهروب عندما تحين لحظة الاختيار لشريك الحياة ورغم الاعتراضات الشديدة على فكرة زواجها من "عطيل" فإنها لم تتردد في إتمام هذا الزواج وفى البداية تزوجت سراً لأن أباها ومجتمع مدينتها "البندقية" كله كان يرى في هذا الزواج شذوذاً ينبغي منعه والوقوف ضده. فديدمونة بيضاء وحبيبها "عطيل" أسود وكان ذلك من الأمور التي يستنكرها مجتمع مدينة البندقية فقد كان هذا المجتمع في العصر الذي جرت فيه أحداث مسرحية "عطيل" ينظر إلى اللون الأسود نظرة عنصرية فيها إنزال من قدر السواد واضطهاد صريح لأصحاب اللون الأسود، منهم أرقاء وعبيد ومكانهم في المجتمع لا يرقى إلى مكان أصحاب اللون الأبيض، وخاصة إذا كانوا من أصحاب الطبقات الاجتماعية العليا مثل ديدمونه، ابنة البيت الأرستقراطي الرفيع في مدينة "البندقية".

ولكن "ديدمونة" رفضت هذه المقاييس غير الإنسانية، وأحبت "عطيل" الأسود لأنها وجدت فيه من الفضائل ما يتفوق به على غيره، ويرفعه إلى مكانة عالية تستحق الحب والإعجاب، فهو فارس شجاع، وصاحب نبوغ عسكري متميز جعل مدينة البندقية تختاره قائداً لجيشها، ترى فيه القدرة على حمايتها وتأمينها من أعدائها الكثيرين الذين يهاجمونها ويسعون إلى حرمانها من استقلالها وحريتها وكل ما تملك من ثروات.. وبالإضافة إلى ذلك فإن "عطيل" هو شخصية إنسانية رائعة، فهو صاحب قلب نبيل، وصاحب نفسية مليئة بالخير، وصاحب تجارب مثيرة في الحياة خاضها بقوة إرادته وانتصر فيها وتغلب على كثير من الصعوبات القاسية حتى استطاع في آخر الأمر

أن يصل إلى ما وصل إليه من مجد ورفعة شأن ومركز قيادي مرموق، تحقق له عن طريق كفاءته وموهبته وليس عن أي طريق آخر.

هذه الشخصية الجذابة القوية تستحق الحب والإعجاب وهذا ما حدث مع "ديدمونة"، فقد أحبته وتزوجته سراً عندما وجدت معارضة لهذا الزواج، وفضلت هذا الزوج على غيره من شباب البندقية الأغنياء والذين ينتسبون إلى عائلات عريقة في المدينة.

وعندما انكشف هذا الزواج السري وقفت "ديدمونة" تدافع عن حقها في الحب والزواج والاختيار العاطفي القائم على الصدق والأمانة، وعندما دافعت "ديدمونة" عن نفسها أمام والدها وأمام حاكم مدينة البندقية، كان دفاعها من الشجاعة والقوة بحيث تراجع والدها عن اتهامها بالخطيئة والعصيان لأنه أدرك أنه لن يستطيع إجبارها على تغيير موقفها، أما حاكم المدينة فقد رأى دفاعاً عادلاً وقوياً فوقف إلى جانبها، واعتبر زواجها أمراً مشروعاً ولا خطأ فيه، خاصة أن حاكم المدينة كان يعرف قيمة "عطيل" وكفاءته ونبله، وكان يعرف أن المدينة بحاجة إلى هذا القائد العسكري، وقد يكون انحياز حاكم المدينة إلى "ديدمونة" موقفاً سياسياً عملياً لا بديل له، ولكنه على أي حال كان في صالح "ديدمونة" ولم يكن ضدها.

وهكذا استقرت الأمور لديدمونة ، وبدأت رحلة السعادة لها مع زوجها، خاصة أن التفاهم كان تاماً بين الزوجين، وكان الحب متبادلاً بين القلبين العاشقين ولم يكن هناك أي شيء يعكر المياه الصافية الجارية بين الحبيبين.

وهنا ظهر الشرير "ياجو" ليعكر كل شيء وينتهي الأمر بمقتل "ديدمونة" التي وقفت في وجه الجميع دفاعاً عن حبها لقاتلها "عطيل" وزواجها منه. فكيف أفلتت الأمور من يد "ديدمونة" فانهارت سعادتها وفقدت حياتها رغم تكوينها الشخصي الذي عرفنا فيه القوة والذكاء والشجاعة واتساع الثقافة؟!

يقول الناقد الإنجليزي "برادلي" عن ديدمونة في كتابه " المآسي الشيكسبيرية " ترجمة "حنا إلياس": "إن ديدمونة لا تعرف الشر إلا بالاسم" وهذه العبارة تفسر لنا ما وصلت إليه "ديدمونة" من نهاية مأساوية فهي تثق بجميع الذين يعيشون حولها ولا تجد أي مبرر لإساءة الظن بأحد فلا هي تكره، ولا تحسب أن أحداً يكرهها، لأنها تعامل الجميع بمنتهى الحنان والتهذيب والرفق، وتتعاطف مع أي شخص يحتاج إليها. فمن أين يأتي الشر بعد ذلك كله ؟!.

ولماذا يظهر في حياتها من يريد أن يلحق بها الأذى والدمار؟ لابد أن يكون لذلك أسباب والأسباب في نظر "ديدمونة" غير موجودة، وخاصة بالنسبة لها. وهذا هو الخطأ الأكبر الذي وقعت فيه "ديدمونة" دون أن تدرى به إذ أنها كانت تثق بكل من يعيشون حولها ثقة كاملة. ولم تكن تظن أن هناك ما يدعو أحد إلى التفكير في إيذائها والتخطيط لذلك في صبر ومثابرة حتى يتمكن بالفعل من تحقيق هدفه.

والحقيقة أن كل من كانوا حول "ديدمونة" وزوجها القائد "عطيل" كانوا يحبونها باستثناء شخص واحد هو "ياجو". ولو أن "ديدمونة" كانت من الذين ينظرون إلى الناس كما هم، وليس كما تتصورهم في نفسها، لاستطاعت أن تمسك بخيوط المؤامرة ضدها في وقت مناسب.

فقد كان ياجو يكره زوجها "عطيل" وكان غاضباً جداً في داخل نفسه لأن القائد "عطيل" جعل منه المساعد الثاني له أو "حامل العلم" كما جاء في المسرحية، وكان "ياجو" يعتقد أن من حقه أن يكون المساعد الأول، بدلاً من الشاب "كاسيو" الذي اختاره "عطيل" ليكون مساعده الأول، وحاول "ياجو" بالرجاء والتوسل والوساطات أن يجعل القائد "عطيل" يتراجع ويضعه في مكان "كاسيو" بحيث يكون هو الرجل الثاني في القيادة العسكرية، ولكن "عطيل" رفض ذلك وقال: "لقد اخترت مساعدي" مما يعنى أن قرار "عطيل" كان قراراً عسكرياً لا رجعة فيه. فليس من طبيعة قائد عسكري ناجح أن يتردد في اتخاذ قراراته. أو أن يتراجع عن اتخاذ قرار بعد أن أجرى لهذا القرار حساباته الدقيقة. وهذا الموقف من جانب "عطيل" حرك كل عوامل الحقد والشر في داخل "ياجو" فكان يقول ما معناه: "أنا أتبع عطيل لأنتقم منه، وسوف يرى مني في الظاهر ما لا يعبر عن حقيقتي الداخلية أو حقيقة مشاعري المعادية له، حتى تحين الفرصة المناسبة لأنتقم".

على أن الوضع الوظيفي الذي كان يشغله "ياجو" لم يكن هو السبب الوحيد للنقمة على "عطيل" وإنما كان هناك الحسد الشديد لما وصل إليه "عطيل" من مجد ومقام رفيع وتوفيق كبير في عمله كقائد عسكري يحالفه النجاح في كل معركة، ثم يسعده الحظ بأن يتزوج أجمل بنت في مدينة "البندقية" التي أحبته كل الحب وخالفت أباها في هواها، رغم أنها كانت تحب هذا الأب وتحترمه كل الاحترام، ولكنها أمام نداء قلبها اضطرت إلى أن تخالفه وتعصاه، وتزوجت من "عطيل" "الأسود" رغم دهشة جميع وجهاء "البندقية" وشبابها اللامعين من هذا الاختيار غير المألوف، وهو أن تتزوج فتاة أوروبية بيضاء ذات جمال ملحوظ، من رجل أسود قادم من الشرق، غريب على المجتمع الأوروبي

في كل شيء إلا في نبوغه العسكري الذي استفادت منه مدينة البندقية واعتمدت عليه.كان هذا كله مما يثير حقد "ياجو" علـى "عطيـل"، ويثير حقده أيضاً على "ديدمونه" التي رضيت أن تكـون وسـاماً لامعـاً على صدر "عطيل" وبذلك أصبح "عطيل" هو الرجل الـذي يكسب في الحب والحرب معـاً. وهذا حظ كامل لا يمكن السكوت عليه من جانب قلب حاقد مثل قلب "ياجو".ولأن "يـاجو" يفكـر بطريقة ملتوية، وتدور عواطفه وهواجسه على الشر والحقد والحسد. فهو يظن أن كل الآخرين يفكرون مثله، وأن جميع الأشرار في داخلهم لا يختلفون عنه في شيء سوى أن الحظ الذي خانه هو قد سـاندهم ووقف إلى جانبهم.وهذا المعنى هو الذي عبر عنه أجمل تعبير شـاعرنا العربي أبو الطيب المتنبي عندمـا قـال:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته

وأصبح في ليل من الشك مظلم

وهذا بالضبط ما كان يعاني منه "ياجو" ، فــأفعاله سـيئة وظنونه سيئة أيضـاً، وهو كثيراً ما يتوهم أشياء تخطـر علـى بالـه فيصدقها على أنها حقائق واقعية، رغم أنها تكون غير موجـودة إلا في قلبه المضطرب ونفسه المليئة بسوء الظن والشك في النـاس جميعـاً. ولذلك فقد خطر على بال "ياجو" خاطر عجيب هو أن قائده "عطيل" على علاقة في السر بزوجته "اميليا" فعطيل الذي استطاع أن يـستولى على قلب "ديدمونة" ليس من العسير بالنسبة له ولمكانته العالية الجذابة أن يسيطر على قلب "اميليا" أيضاً.ثم هناك "ديدمونه" فـإنها في نظـر

"ياجو" قد وقعت في خطيئة لابد من أن تدفع ثمنها، فكيف يميل قلبها إلى "عطيل" الأسود القادم من الشرق، ولا يميل قلبها إلى "ياجو" الذي هو أبيض وأوروبي وابن مدينتها ولا يخلو من القوة والذكاء والنجاح وإن لم يصل إلى موقع القيادة الأولى بعد.هذه الشكوك والهواجس كلها كانت تعمل في نفس "ياجو" وهي نفس مستعدة للشر ومطبوعة عليه، فقد خلقها الله لتكون صورة للشيطان على هيئة إنسان، وإذا كان الشيطان خالياً من النبل والتفكير في الخير، فإنه ليس خالياً من الذكاء والحيلة الواسعة، وهكذا كان ياجو هذا الشيطان الإنساني، فقد استخدم كل ذكائه في اختراع قصة وهمية ليست سوى مؤامرة كاملة وكاذبة من الألف إلى الياء، فأتهم "ديدمونه" بأنها على علاقة بالضابط الشاب "كاسيو" مساعد "عطيل" وقام بتدبير خطة لسرقة منديل كان "عطيل" قد أهداه لزوجته "ديدمونة" وألقى به في بيت "كاسيو" حيث التقطه دون أن يدرى عنه شيئاً، وكان منديلاً جميلاً فأخذه "كاسيو" وهو لا يعلم أن هذا المنديل سوف يكون حبلاً يلتف حول رقبة "ديدمونة" ليقضى عليها بالموت. فالمنديل هنا دليل خيانة. ويقوم "ياجو" أيضاً بدعوة "كاسيو" إلى ليلة يسكر فيها معه ويظل يسقى "كاسيو" حتى يفقد الشاب البريء وعيه ويتأخر عن عمله فيغضب عليه "عطيل". وهنا يقول "ياجو" لكاسيو أنه لن ينقذك إلا أن تلجأ إلى "ديدمونة" لتتوسل إلى "عطيل" حتى يعفو عنك. وتقع "ديدمونة" في المصيدة فتتوسل إلى "عطيل" أن يعفو عن "كاسيو" ويكون في ذلك دليل إضافي على ما همس به الشيطان "ياجو" في أذن "عطيل" من أن "ديدمونة" تخونه مع عشيقها "كاسيو" ولا يتوقف الشيطان "ياجو" عند هذه الحدود فيلقى إلى عطيل بعدد من الملاحظات : أن "ديدمونة" قد خدعت أباها عندما تزوجت في السر من "عطيل" ومن السهل عليها – وقد جربت الخداع من قبل – أن

تخدع زوجها أيضاً ثم أن "ديدمونة" في حقيقة أمرها هي امرأة شهوانية وهذا هو ما جذبها إلى "عطيل"، وبعد أن أطفأت شهواتها كان من الطبيعي أن تبحث عن شاب آخر هو "كاسيو" لتمارس معه ما يحقق لها متعتها الشهوانية الخالصة .. وفى قمة الشكوك التي ملأت نفس "عطيل" ضد زوجته التي لم تكن تعرف شيئاً عما يجرى حولها، اعترفت له "ديدمونة" بأنها فقدت المنديل، وواصلت إلحاحها عليه للعفو عن "كاسيو" وأخذت تواصل الثناء على "كاسيو" وإخلاصه ونبله واستقامته،وهذا كله أوقع "عطيل" في حالة من اليقين بأن زوجته تخونه فعلاً مع مساعده الضابط "كاسيو".

وبذلك اكتملت خيوط المأساة وأقدم "عطيل" الغاضب لشرفه على قتل زوجته "ديدمونة" التي ماتت وهى لا تدرى من أين جاءت العاصفة التي هدمت كل ما بنته مع "عطيل" من نجاح وسعادة؟!

وبعد موت "ديدمونة" انكشفت المؤامرة بكل تفاصيلها أمام "عطيل" فأدرك أن الحظ الذي ساعده في كل مراحل حياته قد تخلى عنه هذه المرة و لم يجد أمامه إلا أن يقتل "ياجو" المجرم الشرير، والإنسان الشيطان، و لم يكن هذا كافياً بالنسبة لعطيل فقتل نفسه وتخلص من حياته.

محنة ديدمونة الجميلة النبيلة أنها كانت لا تعرف شيئاً عن الشر، وأنها كانت تثق بالناس وتحسن الظن بهم، وأنها لم تعرف كلمة الحذر في حياتها وكانت لا تدرك مطلقاً أن نجاحها وسعادتها قد أثارا حقداً غير محدود وأشعلا نيران الحسد لها، لأنها كانت ملاكاً جميلاً في عالم شيطاني.



مأساة عاطفية تبحث عن تفسير

الشخصيات الأساسية في هذا الفصل
هي نفـس شخـصيات الفـصلين
السابقين وأهمهم :
عطيل ـــ ياجو ـــ ديدمونة.



كتب الناقد الإنجليزي "اس. برادلي" في دراسته عن مسرحية عطيل لشيكسبير عبارة لطيفة ومهمة يقول فيها: "إن عطيل هو أكثر شخصيات شيكسبير عزة نفس" ونحن عندما نقرأ هذه المسرحية أو نشاهدها فسوف نجد أن بطل المسرحية بالفعل هو إنسان "عزيز النفس" ففي كل تصرفات "عطيل" وأقواله نجد فيه هذه الصفة الكريمة الطيبة. ولعل ذلك يرجع إلى أصله العربي لأنه من المغرب، وكثيراً ما أشار إليه البعض في المسرحية على أنه "موروكو" أي مغربي، أو مراكشي، وما نعرفه عن حياة "عطيل" من خلال مسرحية شيكسبير أنها حياة فارس محارب نبيل خاض كثيراً من الحروب، ودخل معارك صعبة كانت النجاة منها عسيرة لولا شجاعته وإتقانه لفن الحرب.

والحروب على قسوتها هي فن، من لا يعرفه فإن نصيبه لا يكون سوى الهزيمة والخسارة، لأن الشجاعة وحدها لا تنفع في الحرب، ولابد إلى جانب الشجاعة من إتقان الفن العسكري لكي يتحقق الانتصار، وقد كان "عطيل" شجاعاً وعالماً بفن الحرب.

وعاش عطيل في بلاده العربية حياته الأولى، فهو ابن الشمس المشرقة والصحراء الممتدة الواسعة، وهو الفارس الذي عرف الخيل والسيف والليل، وقد اختطفه بعض القراصنة ولكنه استطاع أن

يتخلص من قبضتهم ويحرر نفسه من أيديهم ووصل إلى "البندقية" في إيطاليا، حيث أصبح قائداً لجيشها، يخوض المعارك من أجلها وينتصر على الدوام، مما جعل مجلس الشيوخ في "البندقية" يختاره بالإجماع قائداً للجيش وحارساً لأمن البلاد.

وكان "عطيل" أسود اللون، ويميل بعض النقاد إلى أن "عطيل" لم يكن أسود بلون الفحم، ولكنه كان أسمر مثله في ذلك مثل معظم الوجوه الشرقية، ولكن الرأي الغالب هو أنه كان أسود، وأن شيكسبير قد رسم شخصيته على هذا الأساس، وإن لم يعطنا دليلاً قاطعاً على ذلك في نص المسرحية، ومن هنا جاز لبعض الباحثين أن يتصوروا عطيل على أنه صاحب وجه شرقي أسمر.

على أن سواد "عطيل" لم يزعجه و لم يخلق لديه أية عقدة نفسية على الإطلاق، لأن شخصيته القوية كانت أكبر من أن تقف عند الشكليات والمظاهر، فلا عيب في السواد مادام الإنسان قادراً على أن يتفوق ويتألق ويتقدم الصفوف ويصبح قائداً نابغاً يرتضي الجميع بقيادته، بل يختارونه لهذه القيادة، لأن صفاته الأصلية تؤهله لهذا المكان الرفيع.

و لم يكن سواد "عطيل" عائقاً يعوق فتاة إيطالية بيضاء رائعة الجمال هي "ديدمونة" عن حبه فأحست هذه الفتاة الجميلة النبيلة بحب "عطيل" يغزو قلبها ويستولى على كل عواطفها وقد بادلها "عطيل" حبا بحب، وانتهى حبهما إلى الزواج برغم المعارضة الشديدة من جانب والد "ديدمونة" و لم تكن "ديدمونة" تشعر أنها أخطأت في اختيارها العاطفي، بل كانت في قمة السعادة بزواجها من الرجل الذي اختاره قلبها وأثبتت لها الأيام أنه أجدر الرجال بحبها وأقدرهم على أن يرفعها إلى عرش ملائكي من السعادة الحقيقية الدائمة.

ولكن هذه السعادة لم تدم، بل انتهت بمأساة كبيرة، فقد قام "ياجو" أحد مساعدي "عطيل" بتدبير مؤامرة كبيرة شديدة الإحكام، أقنع فيها "عطيل" بأن زوجته التي أحبها من كل قلبه إنما هي زوجة خائنة تخدعه وتستغفله، وأنها على علاقة آثمة مع نائب "عطيل" الضابط الشاب "كاسيو" وعندما وصل "عطيل" إلى حد الاقتناع الكامل بخيانة زوجته "ديدمونة" قام بقتلها، ثم اكتشف بعد موتها حقيقة المؤامرة فكان ما هو معروف من بقية أحداث المسرحية من قتل "عطيل" لنفسه، وذلك بعد أن قام بقتل المتآمر "ياجو" فكيف انتهت هذه القصة العاطفية الجميلة إلى هذه النهاية المأساوية المفجعة؟!. وكيف سقط الفارس النبيل "عطيل" في هذا الفخ الدموي الذي نصبه له "ياجو" وكيف لم يستطع "عطيل" أن يكتشف المؤامرة التي عصفت بسعادته وجعلته يقتل العصفورة الرائعة التي كانت تغرد في حياته بأجمل الألحان، وكانت كل أغاريدها حباً له وثقة فيه وفرحة – أكبر من الدنيا – بأنها تعيش في قلبه كما يعيش هو في قلبها الصغير النبيل.لماذا ضاعت "ديدمونة" وفيها كل هذا الجمال، وكل هذا الصفاء، وفيها أعلى درجات الصدق التي عرفها العاشقون المخلصون في كل العصور؟!.إن "ديدمونة" كانت صفحة بيضاء ناصعة البياض، ولم يكن في هذه الصفحة الرائعة بقعة واحدة من الإثم أو التفكير فيه، فهي ليست تلك الشخصية الضعيفة التي تنساق إلى الخيانة، فالخيانة لا تصدر إلا عن شخصية ضعيفة منافقة معدومة الثقة بنفسها غير قادرة على أن تعيش في النور. ولم يكن في "ديدمونة" شيء من ذلك.فقد أحبت "عطيل" وأصرت على حبها ودافعت عنه ضد جميع الاعتراضات والانتقادات الموجهة إليها من أبيها ومن بعض أفراد مجتمعها الإيطالي الذين كانوا مندهشين من أن تندفع فتاة أوروبية بيضاء فاتنة إلى حب رجل أسود قادم من بلاد الشرق البعيد..

إن الأمر الوحيد الذي تلام عليه "ديدمونة" هو أنها لم تكن تتسلح بشيء من "الحذر" لحماية السعادة التي حققتها لنفسها بانتصارها في حبها على كل الظروف، فديدمونة كانت طيبة النفس، وكان عقلها خالياً من أي شك في الآخرين، إذ أنها كانت على العكس تثق في الناس ثقة كاملة، ونموذج "ديدمونة" الذي رسمه شيكسبير في مسرحيه عطيل هو نموذج للجمال الكامل في الجسم والروح، والشكل والمضمون والظاهر والباطن وهذا النموذج يخالف ما هو شائع عن أخلاق النساء من التسلح والحذر والارتياب فالمرأة بسبب ظروفها التاريخية، تعرف أن فيها ضعفاً لابد من تعويضه بشيء من الأسلحة الخفية التي تحتفظ بها في داخلها لحماية نفسها من شرور الحياة، ولكن "ديدمونة" لم يكن عندها أي سلاح خفي تحتفظ به وتستخدمه عندما تحتاج إليه ولم يكن ذلك نقصاً في ذكائها ولا في مشاعرها المرهفة ولا في ثقافتها التي كانت - في عصرها -أعلى ثقافة يمكن أن تحصل عليها امرأة راقية ولكن انعدام الأسلحة الخفية عند "ديدمونة" كان راجعاً إلى استقامتها الشديدة وطيبة نفسها وعدم معرفتها بالشر أو عدم قدرتها على تصور وجود شر يمكن أن ينالها بسوء، لأنها هي نفسها لم تكن تفكر في أن تنال أحداً بسوء، وهذا دليل ساطع على أن كل أصحاب النفوس الطيبة في هذه الدنيا يمكن أن يصبحوا فريسة للشر إن لم يسلحوا أنفسهم بشيء من الحذر، وأن يراجعوا بين الحين والحين ثقتهم المطلقة بالآخرين، وإلا أصابهم ما أصاب "ديدمونة" من شر وسوء وسوف يأتيهم الخطر دائماً من حيث لا يعلمون ولا يقدرون، إذ أن هذا الخطر قد يكون مصدره أقرب الناس إليهم وأكثرهم بعداً عن سوء الظن فيه.على أن مأساة "ديدمونة" لا يمكن تفسيرها – فقط – بما كانت عليه من طيبة نفس واستقامة أخلاقية وثقة مطلقة بالناس.

فقد كانت "ديدمونة" عاشقة مخلصة ونبيلة، وكانت زوجة سعيدة لأنها لم تجعل من زواجها علاقة روتينية جامدة بل جعلت الحب المشتعل بالدفء الجميل أساساً لهذا الزواج، فكان زواجها محاطاً بزهور الحب وعطوره، ومثل هذا الزواج القائم على العاطفة القوية المتصلة والثابتة والمتجددة في كل يوم هو علاقة بين طرفين، فإذا اختل منها طرف اختلت العلاقة كلها وسقطت في دوامة بغير قرار، وهذا ما حدث في حالة "ديدمونة"، فقد اختل الطرف الآخر في علاقتهما العاطفية،وهو الطرف الذي يمثله زوجها "عطيل"، و لم تدرك "ديدمونة" ما حدث لزوجها في الوقت المناسب، بل أنها لم تدرك هذا الاختلال و لم تفهم أسبابه حتى وهو يقدم على قتلها، فقد كانت عاشقة نقية وكانت على يقين كامل بأنها بريئة من أي اتهام يمكن أن يمسها أو يلحق بها، وقد فارقت الحياة وهى على هذا الاعتقاد ببراءتها وبأنها ضحية لشيء غامض عليها وغير مفهوم من جانبها.فلماذا اختلت شخصية "عطيل" فاقتنع بخيانة زوجته البريئة وقام بقتلها وعندما اكتشف المؤامرة بعد فوات الأوان قتل نفسه بعد أن قتل صانع المؤامرة "ياجو"؟!.ألم يكن القائد النبيل الفذ "عطيل" قادراً على اكتشاف المؤامرة في الوقت المناسب قبل أن يقتل حبيبته ويقضى على سعادته بيديه؟

إن "عطيل" صاحب تجارب واسعة في الحياة، عرف فيها المخاطر والأهوال، فكيف فاته أن يكتشف مؤامرة صغيرة قاسية تم تدبيرها من أجل تدميره وتدمير حبيبته الرائعة ديدمونة ؟

ذلك هو السؤال، أو تلك هي الأسئلة.أما الإجابة عن ذلك كله فليس من الأمور السهلة اليسيرة، ولكننا نستطيع أن نهتدي ببعض الأضواء المتناثرة هنا وهناك لوضع اليد على الإجابة الصحيحة ولو

بصورة تقريبية، لأن الإجابة النهائية صعبة وعسيرة.وأهم ما يمكننا أن نراه في عالم شيكسبير وفي معظم أعماله المسرحية هو أن حياة البشر ومصائرهم وما يصيبهم من خير أو شر ليست خاضعة لتصرفات الإنسان فقط وليست نتيجة لهذه التصرفات وحدها، فهناك قوة كبرى في الحياة لا يسيطر عليها الإنسان ولا يتحكم فيها هي قوة "القدر" ومهما فعل الإنسان ومهما احترس في أي شيء يقوله أو يفعله ومهما وضع من الحسابات والاحتياطات، فإن القدر له كلمة لابد أن يقولها في الوقت الذي يريده، وبالطريقة التي يحددها، فالقدر قوة كبرى في حياة الإنسان، وهي قوة تفرض على الإنسان أن يتواضع مهما ارتفع شأنه وعلت منزلته، فضربات القدر تأتي على غير انتظار، والأقدار تحل فجأة وتعمل عملها بدون مقدمات، ولا حيلة للإنسان مع الأقدار إلا الاستسلام لها لأنه لا يملك أمامها وسيلة أخرى من أي نوع.وحول "قوة القدر" هناك قصة مشهورة في تراثنا الشرقي تقول: إن تاجراً في بغداد أرسل خادمه إلى السوق ليشتري له بعض احتياجاته، ولكن الخادم عاد بسرعة إلى سيده وقال له وهو خائف مذعور : إنني رأيت الموت في السوق وكان يطاردني فاسمح لي يا سيدي أن آخذ حصاناً وأذهب مسرعاً إلى مدينة أخرى غير "بغداد" هي مدينة "سامراء" حتى ابتعد عن الموت الذي يطاردني في سوق بغداد"، فسمح له السيد بذلك، ثم ذهب السيد بنفسه إلى سوق "بغداد" وسأل الموت لماذا كنت تطارد خادمي؟ فقال الموت: إنني لم أكن أطارده ولكنني مندهش لأن موعدي معه هو في مدينة "سامراء" وعندما وجدته في "بغداد" أصابتني الدهشة وهنا أدرك السيد أن خادمه قد هرب إلى قدره ولم يهرب منه. وقد هرب الخادم من "بغداد" إلى "سامراء" ظناً منه أنه يفلت من الموت، بينما هو في الحقيقة يسعى بنفسه – دون أن يدرى – إلى لقاء قدره الذي لا مفر منه.

هذه الرؤية في أعمال شيكسبير واضحة تماماً وخاصة في مسرحياته القائمة على المأساة، وهي من أعظم مسرحياته ومن أجمل وأعمق آثار الأدب الإنساني، ومنها مأساة "عطيل".فالقدر قوة كبرى له دور في حياة الإنسان، ولا يمكن تجنب هذا القدر أو الفرار منه.ومأساة "ديدمونة" فيها هذا الجانب الذي يلعب فيه القدر دور البطولة ويوجه فيه ضربته الأساسية دون مقدمات ودون أن تكون هناك وسيلة لتجنب هذه الضربة.

فالقدر قوة لا يمكن أن يفر منها الإنسان بإرادته واختياره، ومهما كانت قدرتنا على التخطيط والتدبير عالية ودقيقة، فإننا لا نستطيع أن نفلت من القدر وهنا يصح ما نقوله في أحاديثنا اليومية من أن هناك شيئاً في هذه الدنيا أسمه النصيب أو "المكتوب على الجبين" والذي لابد أن تراه العين.

تلك هي قوة القدر كما يعبر عنها شيكسبير دائماً في مآسيه فهي قوة قادرة قاهرة مفاجئة لا فرار منها بالنسبة للإنسان مهما علا شأنه وارتفع مكانه وعاش في حصن حصين، وهذا هو بعض ما أصاب "ديدمونة" الجميلة أي أن نصيبها المقدر لها هو أن تنتهي حياتها السعيدة بمأساة كبيرة على أن قوة القدر لا تكفى وحدها لتعليل اندفاع "عطيل" إلى قتل حبيبته الرائعة "ديدمونة" والأسوأ من ذلك هو أن يتهمها بما ليس فيها، أي بالخيانة الزوجية، وهي الملاك الطاهر البريء وهنا سوف نعتمد على بعض ما أورده الناقد الإنجليزي الكبير "أس برادلي" في كتابه المهم عن المآسي الشيكسبيرية" ترجمة الأستاذ "حنا الياس" وخلاصة ما يقوله برادلي في تفسير سقوط رجل عظيم مثل "عطيل" في مصيدة مساعد هو "ياجو" المليء بالشر والغل والحسد، وإن كان قد استطاع أن يخفى ذلك عن عيون الذين حوله

جميعاً بما فيهم "عطيل" وعبر عن الشر الذي فيه بالمؤامرة التي نسجها من خياله المريض لإثبات خيانة "ديدمونة" وهى خيانة اخترعها "ياجو" بالكامل واخترع الأدلة عليها حتى تسممت نفس "عطيل" واقتنع بصحة التهمة، ثم اكتشف الحقيقة بعد أن قتل "ديدمونة" فقتل "ياجو" الشرير ثم قتل نفسه في النهاية.

والأسباب الرئيسية التي يوردها الناقد "برادلي" لتفسير سقوط "عطيل" تتركز في عدة أمور أهمها : أن "عطيل" كان يثق في الناس كل الثقة. وقد وضع ثقته الكاملة في إخلاص مساعده "ياجو" .. وعلى أساس ثقته في إخلاص "ياجو" فإن من غير الطبيعي ألا يتأثر بتحذيرات صديق في مثل هذا الإخلاص، وما كان لأي زوج إلا أن تزعجه مثل هذه التحذيرات. فقد تقدم "ياجو" بتحذيراته هذه إلى "عطيل" عن خيانة زوجته "ديدمونة" بطريقة يصعب الكشف عن الكذب الكامل فيها، و"ياجو" من ناحية أخرى يتقدم بتحذيراته إلى "عطيل" وهو في الفترة الأولى من زواجه التي تكاد تكون شهر العسل أي أنه لم يكن قد عاش مع زوجته طويلاً مما يتيح له أن يعرفها معرفة وثيقة، فقد كان هذا الزواج السعيد في أيامه الأولى، مما لم يسمح بالخيانة وهى في الحقيقة منها بريئة كل البراءة.

والأخطر من ذلك كله أن "ياجو" الحاسد الدساس المتآمر، قد استخدم في إقناع "عطيل" إشارات لئيمة ومسمومة ولكنها مؤثرة، ومن هذه الإشارات أنه ليس من الطبيعي أن تقبل امرأة أوروبية بيضاء جميلة شابة أن تتزوج برجل شرقي أسود فهذا مخالف للطبيعة — كما يرى "ياجو" — ومثير للريبة، إذ أن "ديدمونة" تريد أن تحتمي بنفوذ "عطيل" وبمجده كقائد عسكري كبير وتحت هذه المظلة تمارس شهواتها

الآثمة وتعيش في أحضان عشيقها الضـابط الأوروبي الأبيض الشاب، فهو من جنسها، ومن الطبيعي أن يكون ميلها الأصلي إليه.

ومن هذه الإشارات أن "عطيل" الوافد من الشرق لا يعـرف شيئاً عن أخلاق نساء البندقية الأوروبيات ولعل معنى هذه الإشارة هو أن نساء أوروبا مختلفات عن نساء الشرق الذي جاء منه "عطيـل" ، فالنساء البندقيات الإيطاليات لهن ميل شديد إلى حب الحياة، والى أن يكن عاشقات ومعشوقات يتقلبن من أحضان عـشيق إلى أحـضان عشيق آخر.

ولكن أخطر الإشارات التي استخدمها "ياجو" لتسميم نفـس "عطيل" هو أن حبيبته "ديدمونة" قد خدعت أباها من قبل، وذلـك عندما تزوجت من "عطيل" سراً في أول الأمر، خوفـاً من معارضـة الأب.

والمرأة التي تخدع أباها .. ألا يمكن أن تخدع زوجها؟

إن الخداع هو الخداع، سواء كان للأب أو للزوج . والمـرأة التي في طبيعتها أن تخدع لا تفرق بين المخدوعين هـذه الإشـارات المسمومة كلها تركت تأثيرها في نفس "عطيل" وهى كلها إشـارات يمكن الرد عليها بسهولة، لولا أن هناك وقائع اخترعها "ياجو" لإثبات علاقة "ديدمونة" بالضـابط الشاب "كاسيو" نائب "عطيل" فقد سرق "ياجو" منديل "ديدمونة" ووضعه في بيت "كاسيو" وعزم "كاسـيو" على سهرة وظل يسقيه الخمر حتى سكر وفقد سيطرته على نفسه مما أغضب "عطيل" منه وهنا أوعز "ياجو" إلى "كاسيو" أن الحل الوحيد أمامه هو أن يطلب وساطة "ديدمونة" عند زوجها "عطيل" للصفح عنه وبالفعل ظلت "ديدمونة" تتوسط له عند "عطيل" وتدافع عنه وتـثني

عليه حتى النهاية، وهي لا تدرى أن ذلك كله هو حبل مشنقة سوف يلتف حول عنقها ويقضي عليها.

ذلك كله يؤكد أن المؤامرة التي دبرها "ياجو" كانت شـديدة الإحكام وأن اكتشافها في الوقت المناسب كان من أصعب الأمـور، وقد تم اكتشافها بالفعل ولكن بعد فوات الأوان. أي بعـد أن قـام "عطيل" بقتل حبيبته "ديدمونة". وقد لاقى "ياجو" عقابه العاجل بقتله، ولكن بعد أن أفسد سعادة حبيبين من أعظـم العـشاق وأصـفاهما وأكثرهما صدقـاً وإخلاصاً هما "عطيل" و"ديدمونة".

على أن مـأساة "عطيل" لشيكسبير معنى آخر يمكننا أن نضع أيدينا عليه وهو معنى لم يشر إليه الناقد الإنجليزي "برادلي" ولم يشر إليه في حدود علمي أحد من النقاد وهذا المعنى هو أن "عطيل" كان قائداً عظيماً ومهمـاً وأن "ياجو" كان بالنسبة إليه بمثابة المخابرات التي تمده بالمعلومات وهنا نحس أن المخابرات ما لم تكن في منتـهى الـصدق والأمانة والالتزام فـإنها يمكن أن تؤدى بالقادة الذين يعتمدون عليها إلى كوارث كبيرة وتقودهم إلى أزمات لا يفلت منها الذين يقعون فيها بناء على ما لديهم من معلومات صحيحة، وكان المقصود منها هـو التوريط والتدمير والهدم ، ولا يمكن لأحد أن يقول أن شيكسبير كان يشير إلى هذا المعنى عن قصد وتخطيط، فعالم شيكسبير ليس عالم أفكار مجردة يحاول الشاعر الإنساني أن يثبتها، فشيكسبير لا يعرف هذا النوع من الأدب القائم على الأفكار ولا يهتم به ولكنه فنان يقدم الحياة كما هي ويعرض لنا في أعماله واقع الإنسان كما هو عليه وغاية ما نستطيع أن نقوله عن أدب شيكسبير أنه يصور أحوال الدنيا ومصير الإنـسان فيها ، أما الأسباب والتعليلات والتحليلات فهي متروكة لنا لنخرج بها من أدبه كما نستطيع. فشيكسبير في أدبه الإنساني العظيم يشبه المحيط

الواسع الممتد العميق، ونحن عندما نقوم بتحليل هذا الأدب وتفسيره إنما نركب في هذا المحيط سفينة تبدو صغيرة بالنسبة للمحيط مهما كان حجم هذه السفينة.

المعاني التي نخرج بها من أعمال شيكسبير هي قطرات من المحيط الشيكسبيرى المتدفق بأمواج غير محدودة. وهناك معنى أخير أحب أن أشير إليه في مأساة "عطيل" وحبيبته "ديدمونة" وأرجو ألا يرى أحد فيه أي افتعال، فمصدر الشر في مأساة "عطيل" و"ديدمونة" هو "ياجو" وهو ايطالي وفى ايطاليا نشأت المافيا في القرن الثالث عشر ١٢٠٠- ١٣٠٠ أي قبل ظهور مسرحية عطيل سنة ١٦٠٤ بأكثر من ثلاثمائة سنة والمافيا تقوم على الجريمة المنظمة وهدفها شن الحرب على جميع السلطات بدعوى أن هذه السلطات معادية للفقراء . وكلمة مافيا تعني في الأصل الجرأة أو الشجاعة، ولا أقول هنا أن ياجو كان من المافيا، فهذا هو الافتعال المرفوض ولعل شيكسبير نفسه لم يعرف شيئاً عن المافيا في عصره و لم يسمع بها على الإطلاق، ولكن شخصية "ياجو" يمكن أن تكون متأثرة بأفكار المافيا في الحقد على كل الزعماء والقادة حتى لو كانوا صالحين، فقد كان "ياجو" حاقداً على قائده "عطيل" ويريد تدمير هذا القائد عن طريق تدبير جريمة شديدة التنظيم، ومما يساعد على أن يكون هذا الرأي موضع نظر أن "شيكسبير" لم يبتكر قصة عطيل من خياله، وإنما اعتمد فيها على كتاب اسمه "مائة حكاية" لمؤلف إيطالي هي "جيرالدى شينتيو" وقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٦٥ أي قبل ظهور مسرحية عطيل بحوالي ٤٠ سنة والأحداث الرئيسية لمأساة عطيل واردة في الكتاب أي أن المأساة كلها إيطالية في الأساس، وبذلك يظهر هذا الاحتمال بأن شخصية "ياجو" الشريرة متأثرة بأفكار المافيا الإيطالية في الجريمة المنظمة ويكون هذا الاحتمال أمراً غير بعيد.

وهكذا وقعت مأساة "ديدمونة" الجميلة النبيلة بعد أن تجمعت عناصر متعددة لتصل بها إلى النهاية الدامية، ومن هذه العناصر قوة القدر التي لا يمكن التغلب عليها ولا يمكن أن يتوقعها أو يتجنبها أحد ومنها أن "ديدمونة" نفسها كانت بعيدة تماماً عما هو منسوب إلى النساء من مكر ودهاء وحيلة واسعة فقد كانت طيبة حسنة النية واثقة كل الثقة في كل الذين حولها ووقعت المأساة أيضاً بسبب ما وصل إلى زوجها القائد العظيم من معلومات خاطئة وبسبب دقة الجريمة المنظمة التي نسجها "ياجو" الشرير في إحكام شديد.

❖

اللقاء الأول
بين روميو وجولييت

الشخصيات الرئيسية في هذا الفــصل هي:

١- **روميو**.

٢- **جولييت**.

٣-**كابوليت** ــ والد جولييت.

٤- **مونتاجيو** ــ والد روميو.

٥- القسيس " **لورنس** ".

مسرحية "روميو وجولييت " هي أشهر مسرحيات "شيكسبير" على الإطلاق ولا يكاد يوجد إنسان في هذا العالم لم يسمع باسم "روميو وجولييت" وشهرة هذين الاسمين لا تقف عند حدود المثقفين والمتعلمين فقد اتسعت هذه الشهرة وامتدت إلى الأوساط الشعبية حتى بين الأميين الذين لم يقرأوا في حياتهم حرفاً لا في الإنجليزية ولا في لغة غيرها،ولا شك أن " روميو وجولييت "هما أشهر بكثير من شيكسبير نفسه، فقد تجد في أبناء هذا العالم كثيرين لا يعرفون من هو شيكسبير ولكنك من النادر أن تجد من لا يعرف اسم روميو واسم جولييت، فمنذ أن كتب شيكسبير مسرحيته عنهما حوالي سنة ١٥٩٤ أصبح هذان الاسمان في كل مكان رمزاً للحب المخلص الصادق حتى الموت وأصبحت شهرتهما تنتقل بين الناس جيلاً بعد جيل .

ومع ذلك كله فالفضل فيما يتمتع به "روميو وجولييت" من حيوية ومحبة وتعاطف في قلوب الناس إنما يرجع إلى شيكسبير فقد استطاع هذا الفنان بموهبته العالية والنادرة أن يخلق نماذج إنسانية خالدة تصور العواطف الكبرى في حياة الإنسان، حتى لقد قال عنه أحد النقاد يوماً:" إن شيكسبير يملك أكبر المخلوقات في هذه الدنيا بعد الله"، وعبارة الناقد عبارة طريفة وفيها شيء من المبالغة ولكنها مع ذلك تشير إلى جانب من جوانب الحقيقة، فقد استطاع شيكسبير أن

يخلق في مسرحياته شخصيات كثيرة فيها من الأصالة والحيوية والعمق ما يجعلها باقية ومتجددة على مر الأيام. والإنجليز يعرفون قيمة شيكسبير وأهميته بالنسبة لهم وقد كتب المؤرخ والفيلسوف الإنجليزي الكبير "توماس كارلايل" ١٧٩٥ – ١٨٨١ يقول: "أن شيكسبير هو أعظم شيء أنجبناه، وقد نستغني عن أي شيء آخر إلا شيكسبير، فإننا لا نستطيع أن نستغني عنه أبداً في مقابل أي شيء، وإذا قيل لنا أن نتخلى عن أحد أمرين إمبراطورية الهند أو شيكسبير، فإننا سوف نختار شيكسبير حتماً،فإمبراطورية الهند زائلة على الدوام." وقد صدق كارلايل، فزالت إمبراطورية الهند وبقى شيكسبير، وكانت إمبراطورية الهند صفحة عار في تاريخ الاستعمار الإنجليزي، أما شيكسبير فهو صفحة مضيئة متألقة من المجد الخالص.

ومسرحية " روميو وجولييت " هي من روائع أدب شيكسبير، ومن روائع أدب العالم في الوقت نفسه والمادة الأساسية للمسرحية ليست من ابتكار شيكسبير، فهي في أصلها قصة شعبية إيطالية، ويبدو أنها ليست قصة من صنع الخيال الشعبي وحده، بل أن لها أساساً من الواقع، وقد انتقلت هذه القصة من إيطاليا إلى البلدان الأوروبية الأخرى وكانت القصة معروفة في إنجلترا قبل شيكسبير وفي أيامه، وقد اعتمد شيكسبير في مسرحيته على موال شعبي كتبه شاعر مغمور اسمه "آرثر بروك" وعنوان هذا الموال أو القصيدة الشعبية القصصية هو "القصة المروعة لروميو وجولييت" وقد أخذ الشاعر بروك مادة قصيدته من أفواه الناس، فقد كانت قصة "روميو وجولييت" حدوته من الحواديت التي ترويها الجدات للأطفال الصغار في ليالي الصيف أو ليالي الشتاء، ونستطيع أن نقول أن الأصل الشعبي لمسرحية "روميو وجولييت" لا يزيد في كثير أو قليل عن القصص الشعبية الشائعة عندنا مثل قصة "حسن ونعيمة" أو قصة "قيس وليلى" المعروفة في تاريخنا

العربي، ولكن شيكسبير أعاد بناء هذه القصة الشعبية ونسج لها من فنه وعبقريته تفاصيل جديدة بالغة الجمال والروعة وأعطاها حياة جديدة خالدة وجعل من هذه المادة الشعبية مادة عالمية إنسانية يتردد صـداها في كل عصر ومكان. وشيكسبير يعتمد في عدد غير قليل من أعمالـه المسرحية على القصص الشعبية فقد كان يحس بفطرته الفنية أن هـذه القصص لها صلة بحياة الناس، وأن ترديد الشعب لها ولهفته على سماعها وروايتها يثبت أن فيها من عناصر الجاذبية الفنية والإنسانية ما يغـرى أي فنان موهوب بالعودة إليها وإعادة صياغتها وتقـديمها بـصورة جديدة قوية.

على أن بعض الباحثين يفسرون اهتمام شيكـسبير بـالفنون الشعبية إلى نشـأته البسيطة الفقيرة فهو نفسه إنسان شعبي خرج من ريف إنجلترا و لم ينل من التعليم النظامي إلا القليل ، ويقـول هـؤلاء الباحثون إن سبب تأليف شيكسبير للمسرحيات هو بحثه عن الرغيف.

فشيكسبير لم يتعلم أصول الفن على يد أساتذة متخصصين في جامعة من الجامعات الكبيرة ولكنه اعتمد على جهده الشخـصي في البحث والدراسة واعتمد أكثر من ذلك على موهبتـه العاليـة الـتي ساعدته على تقديم أعماله المسرحية الغزيرة . وفي مسرحية " روميـو وجولييت " يحرص شيكسبير على الطابع الـشعبي الجميـل للقـصة الأصلية وسوف نجد في هذه المسرحية عنصرين يعملان معاً في قـوة وقدرة على التأثير، وهذان العنصران همـا: الواقعيـة والرومانـسية، فالواقعية تقدم لنا الصدق والاقتراب من الحقيقة وتصوير أحوال الناس ومشاكل الحياة.أما الرومانسية فتحمل إلينا كثيراً من العزوبة واللطف والنعومة ممـا يلقى بقطرات من الندى على جفاف الواقعية فتـصبح هذه الواقعية متفتحة مثل زهور الربيع، ومهما تعددت الآراء والمذاهب

في تعريف الفن فـإننا في النهاية بحاجة إلى هذا المزيج الرائـع بـين الواقعية والرومانسية، لكي نحس أننا نعيش مع فن جميل له تأثيره القوى على النفوس.

والجمال في أدب شيكسبير لا يعتمد على الأحداث الرئيسية في مسرحياته، ففي كثير من هذه المسرحيات ومنها " روميو وجولييت " يعرف القارئ أو المشاهد أحداث المسرحية قبل أن يقرأها أو يراها لأن شيكسبير كثيراً ما يستمد مسرحياته من أحداث تاريخية معروفة أو من قصص شعبية شائعة بين الناس، أما القيمة الأساسية في أدب شيكسبير فـإنها تعتمد على التفاصيل، هذه التفاصيل الدقيقة والـصغيرة هـي الميدان الذي يتجلى فيه ذلك الفيض الساحر مـن الجمـال في أدب شيكسبير وإغفال هذه التفاصيل يحرمنا من المتعة النادرة التي يقـدمها إلينا هذا الأدب العجيب. والأحداث الرئيسية في مـسرحية "رومـيـو وجولييت" تكاد تكون معروفة للجميع فهي قصة حب صادق مخلص بين قلبين ولكن هذا الحب تصادفه مشاكل صعبة معقـدة، فيتـزوج الحبيبان سراً وتواصل الظروف المعادية مطاردة هذا الحـب بهـدف القضاء عليه ولكن الحبيبين يضحيان بحياتهما فيموت روميو منتحـراً بالسم وتموت جولييت منتحرة بخنجر تدفعه إلى قلبها وهـي بجـوار حبيبها. وبذلك يختار العاشقان الموت لكي يبقى حبـهما خالـداً لا يموت. تلك هي الأحداث الرئيسية في خطوطها العامة لمسرحية "روميو وجولييت"، فكيف نشأ هذا الحب القوى؟ وما هي العقبـات الـتي وقفت في وجهه ؟ وهل كان موت العاشقين بلا جدوى ولا ثمن ولا نتيجة ؟ .

المشكلة الأساسية التي صادفها حب روميو وجولييت هي أن كلاً منهما كان ينتمي إلى عائلة تعادى عائلة الآخر عـداء شـديداً

مستمراً وعن هذا العداء الحاد بين العائلتين يقول الكاتبان "شارل" و"ماري لام" في كتابهما البديع "روائع شيكسبير":

"في مدينة فيرونا الإيطالية كانت تعيش عائلتان قويتان متساويتان في الجاه والثراء متنافستان على المكانة والرياسة وهما عائلتا كابوليت ومونتاجيو وكانت بين العائلتين منازعات قديمة عمل الزمن على ازديادها وتشعبها بإضافات مستمرة من الأحقاد وصغائر الحياة اليومية، إلى أن بلغ من تضخم الخلاف بين العائلتين أن أصبح هذا الخلاف عداوة وحقداً سافراً شمل أبعد الأقارب وأقل الأتباع، حتى أن أصغر خادم من خدم آل كابوليت كان لا يجرؤ على مصافحة صديق له من خدم أل مونتاجيو ، ولم يكن أحد من أفراد العائلتين يقبل لقاء فرد من العائلة الأخرى ولو بين جماعة أو في مكان عام، ولا يمكن أن يسلم عليه ولو سلاماً عابراً في هدوء ولطف على سبيل المجاملة، فما من مرة التقى فيها واحد من هؤلاء بواحد من أولئك إلا وأفلتت الأعصاب من زمامها وتناثرت الألفاظ القاسية التي يتبادلها الطرفان ، وكثيراً ما أريقت الدماء بسبب شيء عادى كهذا اللقاء الطبيعي بين قوم تضمهم مدينة واحدة بل ما كان أكثر المصادمات الدموية التي تقع بين العائلتين وتعكر الأمن في شوارع مدينة فيرونا، وكان ذلك يحدث إذا تصادف أن تلاقت أي جماعة من تلك العائلة مع جماعة من العائلة الأخرى . تلك هي صورة حية للخلاف بين العائلتين الكبيرتين كما يلخصها لنا كتاب "روائع شيكسبير"، وتشاء الأقدار العجيبة أن ينشأ الحب القوى المشتعل بين روميو الابن الشاب الجميل المهذب لرئيس عائلة مونتاجيو وبين جولييت الابنة الفاتنة الوحيدة لرئيس العائلة المعادية وهى عائلة كابوليت ، وهنا تكون البذرة الأساسية للمأساة العاطفية في مسرحية "روميو وجولييت" فكيف يمكن لهذا الحب العنيف الشريف أن ينجو من العداء الراسخ بين العائلتين ؟ وكيف

يمكنه أن ينتهي إلى هدفه المشروع وهو الزواج ؟ إن هذا الحب القوى مولود على فراش من الأشواك وهو مولود وسط أجواء تعانده وتعاديه .. فقد كان روميو هو زهرة شباب عائلته الكبيرة وكان موضع اعتزاز أبيه وافتخاره به وما كان هذا الأب مونتاجيو يتخيل شيئاً آخر غير أن ابنه النابه الجميل سوف يكون حارساً لأسم العائلة، ومصدراً لتفوقها على عائلة كابوليت المعادية وكذلك كان كابوليت والد جولييت على يقين أن ابنته الوحيدة الفاتنة الجميلة سوف تزيد مجد العائلة تألقـاً بالزواج من ثرى وجيه يختاره لها بنفسه، أما أن تتعلق قلبها بشـاب من العائلة المعادية فهذا موقف ليس له وصف إلا أنها مـأساة.

على أن السؤال الذي يخطر على البال هو : كيف تم اللقاء بين "روميو وجولييت" رغم العداء الكبير بين عائلته وعائلتها ؟! كيـف استطاع قلب العاشقين أن يتغلب على جبال الكراهية والحقد القائمين بين العائلتين والموروثة بينهما جيلاً بعد جيل؟!

إنه سر الحب وسحره. فالحب قادر على أن يتحدى العقبات، ويرتفع فوق الظروف الصعبة ويرفرف في الفضاء بجناحين جميلين قويين ليبتعد عن العواصف الترابية التي تمنعه من الوقوف فوق الأرض وهنا يلفت نظرنا كثيراً أن "الحب عند شيكسبير" في معظم أعماله التي تصور هذه العاطفة الإنسانية، ليس حباً ناعماً ليناً يمكن أن ينكسر – مثل الزجاج – بسهولة ويسر، بل هو حب قوى مقاتل، والعشاق فيه مكافحون من الطراز الأول، وهو حب يعتمد على إرادة ثابتة وهو نوع من العقيدة التي تستحق التضحية بكل شيء حتى بالحياة نفسها، ولا نجد عند عشاق شيكسبير أي استعداد للاستسلام السريع أو التنازل عن هذه العاطفة المقدسة ، فعشاق شيكسبير الأساسيون ليسوا مائعين ولا مترددين في خوض أي معركة يتم فرضها عليهم، إنهم

مستعدون في أي لحظة للدفاع عن عواطفهم الصادقة وقد يكون من السهل أن نفهم تصوير شيكسبير للحب عند الرجال بهذه الصورة القوية ولكن الذي يثير الدهشة والإعجاب هو أن شيكسبير استطاع أن يكون من السابقين في فهم القوة الكامنة في قلب المرأة عندما تحب ثم تصوير هذه القوة العاطفية عند المرأة في صورة رائعة، ورغم أن شيكسبير كان يكتب أعماله المسرحية منذ ما يقرب من خمسمائة سنة مضت، حيث كانت المرأة خاضعة لقيود كثيرة جداً، فإن عاشقات شيكسبير الأساسيات يظهرن في مظهر رفيع من قوة الإرادة والإصرار التام على الاختيار العاطفي الحر دون الخضوع لأي قيد، وهؤلاء العاشقات الأساسيات كلهن محاربات في الدفاع عن عواطف قلوبهن. ومن هؤلاء العاشقات المتحديات للظروف والصعوبات تقف جولييت في المقدمة، فعندما اختار قلبها حبيباً لها وثقت من حبه وأيقنت أنه جدير بها، لم تعبأ بأن يكون هذا الحبيب هو من أسرة معادية أشد العداء لأسرتها، ولم تستجب لرأى أبيها في أن تتزوج من شخص أختاره لها، هو في رأيه الشخص المناسب لقيمتها ومقامها الاجتماعي الرفيع.

ونترك هذه الملاحظة عن العاشقات المقاتلات من أجل عواطف قلوبهن في أدب شيكسبير لنتوقف قليلاً عند المصادفة العجيبة التي جمعت بين "روميو وجولييت" دون قصد أو تدبير من العاشقين وهنا نجد معنى كبيراً يتكرر كثيراً في أدب شيكسبير وهو أن المصادفة تلعب في حياة الإنسان دوراً شديد التأثير وقد يتفوق هذا الدور على أي خطة يرتبها الإنسان ويحسن تدبيرها والمصادفة هي أحد الوجوه القوية للقضاء والقدر وفى كثير من أعمال شيكسبير يلعب القضاء والقدر دوراً بالغ الأهمية وهو دور لا سلطان للإنسان عليه ولا يمكن التنبوء به قبل وقوعه ولا الفرار منه عندما يقع بالفعل.

كان روميو قبل لقائه بحبيبته جولييت يحب فتاة أخرى أسمهـا روزالين ولكن روزالين لم تكن تبادله الحب مما كان سبباً في شكوى روميو المستمرة وشعوره الدائم بالألم والحزن ، وقد كان روميو غارقاً في هذه الحالة النفسية عندما التقى مع جولييت لأول مرة وهذه هي قصة اللقاء كما يلخصها لنا شارل وماري لام في كتابهما "روائع شيكسبير" حيث يقولان:

" حدث أن أقام الشيخ "كابوليت" عميد عائلته ووالد جولييت حفلة دعا إليها عدداً كبيراً من أجمل السيدات ووجوه الناس في مدينة فيرونا فاحتشد في هذه الحفلة جميع الجميلات التي ترنو إليهن الأبصار وكانت الوليمة على الطراز القديم الذي لا يعرف بطاقات الدعوة. وإنما كان الباب مفتوحاً يدخله الجميع على الرحب والسعة مادام ليس من أفراد عائلة "مونتاجيو" المعادية والتي هي عائلة "روميو" وإلى هذه الوليمة في دار "آل كابوليت" توجهت "روزالين" حبيبة "روميو" ومع أنه كان من الخطر الجسيم على أي فرد من عائلة "مونتاجيو" أن يراه أحد في مثل ذلك الجمع وفي قلب دار العائلة المعادية من آل "كابوليت" إلا أن "بنفوليو" صديق "روميو" وزميله في حياه المغامرة وطيش الشباب أقنع "روميو" بأن يذهب إلى الوليمة متخفياً بقناع يضعه على نصف وجهه العلوي كما جرت العادة أحياناً في مثل هذه السهرات الراقصة وذلك حتى يتسنى لروميو مشاهدة حبيبته "روزالين" والرقص معها وأضاف "بنفوليو" إلى ذلك ملاحظة ساخرة حيث قال لصديقه "روميو" سوف تستطيع في هذا اللقاء أن تعقد المقارنة بصورة واضحة جداً بين صاحبتك "روزالين" التي تتغنى بجمالها وبين الصفوة الممتازة من حسناوات "فيرونا" الموجودات معها تحت سقف واحد في ضوء واحد وعندئذ سترى صدق رأيي في صاحبتك وسوف تكتشف أن أوزتك البيضاء ليست في الواقع إلا جاموسة.

و لم يكن "روميو" يثق ثقة كبيرة فيما يقوله صديقه "بنفوليو"لما يعرفه عنه من أنه يحب الفكاهة والسخرية ولكن "روميو" تجرأ وذهب إلى الوليمة وهو في شوق إلى مقابلة "روزالين" التي كان "روميو" يحبها في شغف كبير حتى أنه كان لا يغمض له جفن في ليال كثيرة بسبب التفكير في حبيبته تلك وقد وصل به الأمر قبل هذه الليلة إلى حد أنه أخذ يتجنب المجتمعات وسهرات الأصدقاء الصاخبة ليختلي بنفسه ويفكر في "روزالين" تلك الحسناء ذات القلب القاسي والتي لم تكن تسلس له القيادة.

وهكذا ذهب "روميو" وعلى وجهه قناع إلى بيت عدو عائلته الأكبر "كابوليت" وذهب بدافع واحد هو أن يرى حبيبته "روزالين" التي تعذبه كثيراً وتنظر إلى حبه لها نظرة استهانة ولا مبالاة. وفى تلك الليلة التقى "روميو" مع "جولييت". واشتعل القلبان الشابان منذ اللحظة الأولى بحب متبادل لا يستطيع أن يطفئ نيرانه المتوهجة أحد ولم يجد الحبيبان حلاً لوضعهما الشائك سوى أن يتزوجا سراً وقد ساعدهما على هذا قسيس طيب القلب هو الأب لورانس الذي اقتنع بصدق العاطفة عند الشابين كما أنه كان يأمل أن يؤدى زواجهما بعد الإعلان عنه في الوقت المناسب إلى إنهاء العداء بين العائلتين.ولكن المصادفات السيئة تتوالى في حياة الزوجين العاشقين فيصدر حكم بالنفي على روميو من مدينة فيرونا لأنه دخل — مضطراً — في مبارزة مع ابن عم جولييت وقد حاول روميو أن يتجنب هذه المبارزة بكل الوسائل فلم ينجح وانتهت المبارزة بمقتل ابن العم هذا والحكم بنفي روميو من مدينة فيرونا.وفى الوقت نفسه كان والد جولييت قد فرض عليها الزواج من شخص اختاره لها هو الشاب باريس فكيف تتزوج جولييت وهى متزوجة بالفعل — سراً — من روميو؟!.

والحل؟ لقد لجأت جولييت إلى الأب لورانس الـذي عقـد زواجها على روميو لإنقاذها من هذا الموقف العسير فأعطاها منوماً قوياً ونصحها بأن تتناوله فتبدو كأنها ميتة وبذلك تنجو من الـزواج المفروض عليها من جانب أبيها وتعهد القسيس أن يرسل رسـالة إلى روميو في منفاه يشرح له فيها ما حدث ويطلب منه العودة الـسريعة ويتم إعلان زواجهما بعد أن تستيقظ جولييت من تأثير المنوم ويكون في ذلك درس للعائلتين فيعود السلام بينهما ويسود الوئـام ويتقبـل الجميع هذه الحب الرائع ويتعلمون منه.

هكذا كان القسيس الطيب يتصور الأمور ولكن رسـالته لم تصل إلى روميو في الوقت المناسب وسبقها إليه خبر موت جولييـت فيعود روميو على الفور ويتناول سماً يموت بعده إلى جانـب حبيبتـه وتستيقظ جولييت من تأثير المنوم وتجد حبيبها إلى جانبها ميتاً فتطعن نفسها بخنجر وتموت هي الأخرى. ويروى القسيس القصة الكاملة في صدق وأمانة أمام الجميع فيكون في روعتها وعنفها ما يدفع العـائلتين المتحاربتين إلى التصافي والوئام وبذلك يكون الحبيبان قد دفعا حياتهما ثمناً للسلام الذي يسود مدينة فيرونا بعد صراع طويل اسـتمر بـين العائلتين الكبيرتين فيها لأجيال طويلة.

في مسرحية "روميو وجولييت" يعزف شيكسبير لحنين كبيرين الأول: هو لحن الحب العذب الجميل الذي يمثله العاشـقان الـشابان والثاني: هو لحن التنافر والكراهية بين العـائلتين الكـبيرتين وتنتـهي المسرحية بانتصار اللحن العاطفي ولا يوجد انتصار كبير بدون ثمـن ، وقد دفع العاشقان الشابان ثمن هذا الانتصار بالموت دفاعاً عن حبهما وأمام هذه التضحية الكبرى ومن دم الشهيدين يولد السلام الذي طال انتظاره وكان من العسير الوصول إليه دون تضحية أو فداء.

ومسرحية "روميو وجولييت" مليئة بالصور الجميلة الحية التي تتناثر في فصولها المختلفة ومن ذلك ما جاء فيها عن الاستعداد الكبير للخصومة بين العائلتين المتعاديتين حتى في أتفه الأمور. فقد جاء في وصف أحد أفراد العائلتين قول شيكسبير والنص من ترجمة الدكتور مؤنس طه حسين لمسرحية "روميو وجولييت": "إنك لتندفع إلى خصام رجل لأن عدد شعرات لحيته يزيد عن لحيتك شعرة واحدة أو ينقص عنها شعرة وأنت تخاصم غيرك لأنه يكسر البندقة لا لشيء إلا لأن عينيك في لون البندقة ولقد خاصمت رجلاً لأنه سعل في الطريق فأيقظ قلبك الذي كان نائماً تحت الشمس ثم خاصمت حائكاً لأنه لبس سترته الجديدة قبل العيد وخاصمت آخر لأنه ربط حذاءه الجديد برباط قديم".

فالاستعداد للخصومة كان قوياً جداً عند أفراد العائلتين و لم تكن هذه الخصومة بحاجة إلى أسباب مهمة لتشتعل بل إن أتفه الأسباب كان كفيلاً بإشعالها فإن لم تكن هناك أسباب فمن الممكن افتعالها من لا شيء.

ويرى بعض الباحثين والنقاد أن الأحداث العنيفة والخصومات الحادة في مسرحية "روميو وجولييت" تعود في جانب منها إلى البيئة ، فبيئة المسرحية هي مدينة فيرونا جنوب إيطاليا وسكان الجنوب الإيطالي معروفون بالعواطف الحادة الملتهبة وسرعة الانفعال ، وقد زاد من حدة هذا الطبع الانفعالي أن أحداث المسرحية تقع في منتصف شهر يوليو أي في عز الصيف وتوقيت المسرحية يعطي مبرراً من المبررات الواقعية الإضافية لأحداثها العنيفة.



عندما تقول العاشقة .. آه

أهم الشخصيات في هذا الفصل هي:

١- روميو.

٢- جولييت.

٣- روزالين ـــ المرأة الـــتي أحبـــها روميو قبل أن يعرف جولييت وكانت "روزالين" لا تهتم بروميو ولا تبادلـــه الحب .



كيف يهبط الحب على القلوب؟ هل يهبط فجأة وعلى غير انتظار وبدون مقدمات؟ أم أن الحب له علامات لابد أن تظهر قبل أن يولد ويستقر على عرش القلوب؟ لا شيء في هذه الدنيا يولد فجأة وبدون مقدمات.فالمرأة قبل أن تلد طفلها تكون حاملاً لمدة تسعة أشهر وكذلك تكون الأمور في جميع الأحوال فلابد من فترة الحمل قبل لحظة الولادة وقد تكون العلامات غير ظاهرة للعيون العابرة ولكن العين التي تفحص وتدقق لابد أن تهتدي للعلامات التي تمهد للمولود الجديد.وعندما نقرأ مسرحية "روميو وجولييت" لشيكسبير سوف يدهشنا عند النظرة الأولى أن الحب العنيف بين العاشقين الذين أصبحا أشهر عاشقين في التاريخ قد ولد فجأة و لم يستغرق ميلاده سوى لحظات قليلة جداً بعد اللقاء الأول الذي تم بين العاشقين وهذا لا يمكن أن يكون ، فلا شيكسبير فنان سطحي ساذج يفوته أن يبني مواقف مسرحيته الجميلة على منطق معقول ولا روميو وجولييت شخصيتان من أصحاب العواطف السريعة المتقلبة التي لا تخرج عن كونها نوعاً من النزوات . والنزوات تجئ فجأة وتنتهي فجأة لأنها قائمة على غير أساس ، ولذلك فلابد من البحث عن المقدمات أو علامات الحمل التي سبقت ولادة الحب ، وقد كان هذا الحب قوياً عنيفاً مشتعلاً صادقاً كل الصدق بحيث أنه عندما تمت ولادته ووجد

عقبات قوية تقف في طريقه قاوم هذا العقبات جميعها وعندما وصـــل هذا الحب إلى مفترق الطريق بحيث كان على العاشقين أن يتنازلا عنه أو أن تكون التضحية بالحياة نفسها من أجل التمسك بالحب عنــدما حلت هذه اللحظات لم يتردد العاشقان في اختيار الموت بــدلاً مــن التنازل عن الحب وبذلك أصبح هذان العاشقان شــهيدين في ســبيل حبهما الجميل.كل هذا الحب لا يمكن أن يولد بــسرعة أو بطريقــة عشوائية ولا بد له من مقدمات قوية تفسره بصورة صحيحة.

وسوف نتابع هذه المقدمات في شخصية جولييت أساسا حيث أن قلوب النساء أصعب في فهمها من قلــوب الرجــال . فالنــساء الطبيعيات يعتبرن الحب أخطر من أن يتسرعن فيه ويندفعن إليه دون أن تكون لديهن ثقة كاملة به ، والمرأة الكريمة تحب أن تكون مطلوبة لا طالبة ليس من باب الدلال فقط فالدلال عاطفــة مكــشوفة وســتار شفاف يكشف عما يختفي وراءه بسهولة ولكن حرص المرأة على أن تكون مطلوبة هو رغبة من المرأة في أن تكون واثقة مــن عواطــف الطرف الآخر وهو الرجل وتحب أن تتأكد في أن هواه من الصادقين ، فلا شيء يجرح قلب المرأة مثلما يجرحه أن تكون محبة غــير محبوبــة. وذلك هو الحب الذي لا مرض فيه أما إذا رضيت المــرأة أن تتعلــق برجل لا يحبها فذلك نوع عليل من العواطف حيث تجد المرأة لذة في المذلة وإسالة الدموع على أقدام المحبوب.وللحق فــإن هــذا المــرض العاطفي يصيب بعض النساء ويصيب بعض الرجال أيضا.

جولييت امرأة أخرى ، طبيعية جداً ، وجميلة جداً ، وقوية جداً ، ولذلك فإلها لم تكن مهيأة للمساومة على عاطفة الحب في قلبها و لم تكن مستعدة للحب المريض بل هي محبة من الطراز الرفيع الــذي إذا أحب فإنه يقاتل ما دام واثقاً من أنه يمشى على صراط الحب المستقيم.

كانت جولييت عندما التقت بحبيبها روميو ذلك اللقاء الأول الذي أشعلها في الرابعة عشرة من عمرها وكانت الابنـة الوحيـدة لوالدها زعيم عائلة كابوليت واحد الأثرياء في مدينة فيرونا وأبوها يعبر عن ذلك كما ورد في مسرحية شيكسبير والنص الذي نعتمد عليه هنا هو ترجمة الدكتور مؤنس طه حسين ابن عميد الأدب العربي ــ طبعة المعارف سنة ١٩٩٣ــ ففي المسرحية يدور حـوار بـين الكونـت "باريس" لوالد جولييت : "والآن يا مولاي ماذا تقـول في تقـدمي لطلب يد ابنتك جولييت" فيرد الأب قائلاً : إن ابنتي لعزلتها مازالـت غريبة عن الدنيا فهي لم تتم الرابعة عشرة بعد .. فلننتظر صيفين آخرين قبل أن نفكر في أنها تصلح لأن تصبح عروساً فيرد الكونت بـاريس قائلاً : إن اصغر منها قد صرن أمهات سعيدات . فـيرد الأب: ومـا أسرع ما يصرن إلى سوء الحال إن أصبحن أمهات قبل الأوان. إن ابنتي هي الثمرة الوحيدة المأمولة مني في كل ما أملك من الحياة ومع ذلـك فحاول أن تتقرب إليها يا "باريس" وتكسب قلبها إن قبولي أنا ما هو إلا جزء من موافقتها هي فإذا رضيت في قبولها رضاي وإجابتي إلى ما تريد.

فجولييت هي الابنة الوحيدة لوالدها زعيم عائلتـه والرجـل الثرى المشهور الشريف في مدينة فيرونا الإيطالية ، وجولييت في الرابعة عشرة من عمرها ومن الواضح أن النساء في إيطاليا في هذا العصر كن ناضجات .. فإيطاليا بلد دافئ وشمسها ساطعة إذ أنها تقع في جنـوب أوروبا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وليست من بلاد أوروبـا الشمالية ولا من بلاد الوسط الأوروبي حيث تغيب الشمس طـويلاً وحيث لا يعرف الناس الدفء والحرارة طيلة العام كله إلا في أوقات قليلة محدودة ، والبيئة دون شك لها تأثير على الإنسان في جـسمه وعواطفه، والإيطاليات معروفات منذ أقدم العصور بـسرعة النـضج

وقوة العاطفة وسحر الجاذبية ولذلك لم يكن غريباً أن تنضج جولييت وهى في الرابعة عشرة خاصة وأنها مولودة لعائلة كبيرة تعيش في رخاء ونعمة دون أن تكون مثقلة بالعمل الشاق ، فهي زهرة تلقى كل العناية في حديقة مهيأة لتفتح الأزهار ونموها دون عائق ، يضاف إلى ذلك كله ما في طبيعة جولييت من استعدادات قوية للتفكير والتأمل فهي تميل إلى العزلة مما يعنى أن لها عالماً خاصاً بها من الأفكار والخيالات والعواطف ، ولذلك فليس في المسرحية كلها ما يشير إلى أنها مدللة تميل إلى الاسترخاء أو تحب الاعتماد على الآخرين . فهي قد وصلت إلى سن النضج والتفتح وأصبحت مغرية بأن يتقدم إليها من يطلب يدها من والدها مثل الكونت "باريس" وهو شاب ثرى شريف جميل في مدينة فيرونا ويمد بصلة قرابة قوية لحاكم المدينة وما كان مثل هذا الشاب اللامع يمكن أن يفكر في جولييت كعروس له ويحرص على ذلك ويبدى فيها رغبة قوية وعاطفة مشتعلة إلا إذا كانت جولييت قد نضجت رغم أنها في الرابعة عشرة وإلا إذا كانت جميلة إلى حد يسحر القلوب ويخطف الأبصار.

ومعنى هذا كله أن قلبها كان متفتحاً للحب مثل الأرض المتعطشة للماء حتى تعطى ما في داخلها من أزهار ورياحين وتلك هي المقدمة الكبرى التي هيأت جولييت للحب فلم يكن ينقصها شيء لتشتعل عواطفها إلا أن يتقدم إليها من يشعل هذه العواطف القوية الكامنة فيها ولو بعود واحد من الكبريت.

وهذا هو ما حدث عندما التقت بحبيبها روميو فاشتعلت وأحبته من أول لحظة.

وفى المقابل كان روميو مهيئاً إلى ابعد الحدود للحب فقد كان قبل لقائه بحبيبته جولييت يحب فتاة أخرى لا تعيره انتباهاً أسمها

روزالين كانت عواطفه مشتعلة ولكنها لا تجد من يتجاوب معها وكان شاباً وسيماً جميلاً من عائلة توازى في الثراء والمكانة عائلة "جولييت" ورغم أن بين عائلة "جولييت" وعائلة "روميو" خصومة قديمة عنيفة إلا أن والد جولييت وهو العدو الأول لعائلة روميو لم يجد أن العداء بينه وبين العائلة الأخرى يمنعه من أن يقول عن "روميو: إن روميو يسير سيرة النبلاء".والحق أن مدينة فيرونا تفخر به وبحسن شمائله ورقة أخلاقه وشهادة العدو هنا تعلو على كل شهادة أخرى والمثل يقول : "إن الفضل ما شهدت به الأعداء" وهذه شهادة لروميو من عدوه الأول وعدو أبيه وعدو عائلته ومعنى ذلك أن شخصية روميو كان لها في مدينة فيرونا عطرها الرائع الذي لا يستطيع أن ينكره أحد حتى لو كان من أشد الأعداء خصومة له ولأهله.

وهكذا كانت الصورة عندما التقت جولييت مع روميو أول لقاء كان الاثنان متعطشين للحب وكانت عواطفهما قابلة للاشتعال وكانا معاً يتمتعان بصحة النفس وصحة الجسم وكان فيهما توهج الشباب الأول المليء بالحيوية والعنفوان.

وعندما التقت جولييت لأول مرة في الحفلة التي أقامها والدها وذهب إليها روميو متنكراً على أمل أن يرى حبيبته السابقة روزالين اشتعل الحب الكامن في القلبين الشابين على الفور فقد كانا على أتم استعداد لذلك وكانا يحتاجان إلى فرصة وقد جاءت الفرصة والمصادفة فقامت بدورها الساحر الجميل.

فتاة في منتهى الجمال والذكاء لها قلب حساس وعاطفة في قوة العاصفة وفتى جميل قوى مهذب متحضر له ابتسامة تنزل لها النجوم من السماء لتدور حول هذه الابتسامة في فرح مثل العصافير الجميلة.

ما الذي يمكن أن يمنع لقاء هذين القلبين "المكهربين" على هذه الصورة البديعة ؟! لا شيء.

والتقيا.

ثم انتهت الحفلة وعادت جولييت إلى حجرها وأخذت تناجي نفسها وهى تظن أن السماء وحدها هي التي تنصت لها وكان روميو قد تسلل في الظلام إلى حديقة منزلها واستمع إلى كلامها وهى تتحدث عن حبها له فأيقن أنها تحمل في قلبها ما يحمله في قلبه من عاطفة مشتعلة وبعد برهة قصيرة أحست جولييت أن روميو يقف تحت نافذها في أرض الحديقة فشعرت بالارتباك والخجل لأنها عرفت أنه قد استمع إلى نجواها واعترافها لنفسها بأنها تحبه ولأن جولييت امرأة طبيعية مستقيمة ليس لديها خبرة بأساليب بعض النساء في المكر والدهاء ، فقد خشيت أن يظن بها روميو بعض الظنون ومنها أن يتصور روميو أنها امرأة سهلة تعطى نفسها لأول من يطرق بابها وأنها كما فعلت معه يمكن أن تفعل مع غيره وبذلك تكون امرأة متقلبة معتادة على الخيانة العاطفية وتغيير الرجال في حياتها كلما شاء لها هواها الخفيف المتقلب ، وقد أبدع شيكسبير في تصوير هذا الجانب من شخصية جولييت لنخرج من هذا التصوير البديع بأنها شخصية صادقة مستقيمة لا تعرف اللف والدوران ولا تخفى على نفسها ولا على غيرها ما تحس به ، ومن هذا الموقف نستطيع أن نفهم كل ما قامت به جولييت بعد ذلك فقد آمنت بقلبها وفى سبيل هذا الإيمان قامت بخطوات بالغة الجرأة حتى انتهت حياتها بانتحارها إلى جانب حبيبها وانتحرت بخنجر غرسته في صدرها . والمعروف على مر التاريخ أن النساء حين يقرن مثل هذا القرار الخطير وهو الانتحار فإنهن يفضلن السم على طريقة "كليوبطرة" لأن السم لا يشوه الأجسام

وغريزة المرأة تأبى أن يتعرض جسمها للتشويه حتى في الموت كـذلك فإن السم لا يسبب الآلام الجسدية التي يسببها الخنجر أو السيف أو المسدس ، فالسم يضمن موتاً ناعماً للمنتحرات الناعمات . فالانتحار بالخنجر أو بالسيف يحتاج إلى شجاعة عند المرأة هي أضعاف مضاعفة لشجاعة المرأة المنتحرة بنعومة أي بالسم وقد امتلكت جولييت هـذه الشجاعة العالية لأنها صاحبة عقيدة راسخة تبدو معها كـل الأمـور العسيرة سهله وممكنه وهذه العقيدة هي ببساطة الحـب في إخـلاص وصدق وإرادة قوية تتحدى كل شيء وأي شيء.

ونعود إلى اللحظة التي اكتشفت فيها جولييت أن حبيبها روميو قد استمع إلى اعترافها لنفسها بحبها له وخشيت بعد ذلك أن يسيء الحبيب ظنه بها وينظر إليها على أنها امرأة سهلة وليست امرأة عاشقة وصادقة ، وهنا نتنفع كثيراً بالتلخيص البديع الذي يقدمه لنا كتـاب روائع شيكسبير للكاتبين " شارل وماري لام "ونتوقف أمـام هـذه اللحظة التي تدافع فيها جولييت عن نفسها وحبها حيث جاء في كتاب روائع شيكسبير ما يلي: "إن روميو العاشق لم يطق بعد لقائه الأول مع جولييت أن يظل بعيداً عن البيت الذي ترك فيه قلبه فقفز فوق سـور حديقة بيت جولييت و لم يطل وقوفه هناك وهو يفكر في حبه الجديد القوى حتى كانت جولييت تطل من نافذة حجرة نومها فكأنما جمالها قد أشرق على روميو كما تشرق الشمس من الأفق الشرقي وإذا القمر الذي كان يضيء بنوره الباهت أشجار البستان يبدو فجأة ــ في عـين روميو ــ هزيلاً حائل اللون محموماً لأن هذا الضياء الساطع من وجـه محبوبته قد طمس نور القمر كما تطمسه الشمس في رائعة النـهار ، وقد رأى روميو حبيبته جولييت تضع كفها على خدها فتمنى لو كان قفازاً في هذه اليد كي يلمس هذا الخد الجميل ، وكانت جولييت طيلة ذلك الوقت تظن نفسها وحدها فأطلقت زفرة عميقة وقالت بصوت

مسموع آه.. فاشتاق روميو أن يسمعها تتكلم وهزه نغم صوتها فقال يناجيها من غير أن تسمعه أعد القول ورجعه ترجيعاً أيهـا المـلاك النوراني.

إنك تبدو لي هكذا وأنت واقف فوق رأسي كأنك رسول ذو جناحين آت من السماء والناس جميعاً يتطلعون بأنظارهم إليـك.ولم يخطر على بال جولييت أن أحداً يمكن أن يسمعها ولما كـان حبـها الجديد الذي ولد في قلبها البكر تضيق به جوانب صدرها فقد راحت تنادي حبيبها باسمه وهي تظن أنه بعيد عنها لا يسمع من كلامها شيئا بل ولا يسمعه إنسان آخر فأخذت تقول: آه يا روميو . روميو! أيـن أنت الآن يا روميو؟ عليك أن تنكر أباك وتنكر اسم بيتك وعائلتـك من أجلي وإلا فيكفيني منك أن تحبني وتقسم لي على حبـك كـي أتخلص أنا من اسم عائلتي ولا أبقى من "الكابوليت" الذين بينهم وبين عائلتك عداء شديد وقديم.واستخف الطرب روميو وهو يسمع مـن جولييت هذا التصريح الذي ينطوي على وعد قاطع بالحـب وكـان يتمنى لو تكلم أجابها لولا أنه كان يريد أن يعرف المزيد واسـتمرت جولييت الحسناء في حديثها العاطفي الملتهب مع نفسها فراحت تلوم روميو على أنه روميو وعلى أنه من أعدائها "آل مونتاجيو" وتتمنى لو كان له اسم آخر أو لو استطاع أن يتخلص من هذا الاسم الذي ليس جزءاً من شخصه وأن يأخذ بدلاً من ذلك شخصها كله وهو لن يخسر بفقدان أسمه شيئاً من كمال حياته ومقومات كيانه وعـنـدما بلغـت جولييت من نجواها الحارة هذا الحد وأعلنت أنها تهبه نفسها من غـير تردد أو غضب لم يستطع روميو أن يمنع نفسه مـن اسـتجابة لهـا ومكاشفتها بوجوده تحت نافذتها . لم يتحدث بـصوت مرتفـع ولم يفاجئها ، بل التقط الحوار من فمها وكأنها كانت تخاطبه منذ حضوره خطاب من تنتظر منه الجواب لا خطاب الخيال ومناجاة النفس وهـي

وحيدة بعيدة عن العيون فطلب منها روميو ألا تناديه بـأي أسـم إلا باسم الحبيب أو بأي أسم آخر مما تشاء وتهوى فإنه لم يعد منـذ الآن يدعى باسم روميو مادام هذا الاسم الذي ينتمي إلى عائلة الأعداء يثير في نفسها القلق والحزن.

وفزعت جولييت لسماعها صوت رجل في الحديقة و لم تعرف من يكون هذا الرجل الذي تجرأ مستعيناً بالليل والظـلام فوصـل إلى أسرار قلبها الذي تضن بـها على كل مخلوق ولكن عندما تكلم مرة أخرى عرفته من صوته أجل .. أنها لم تسمع منه في تلك الليلة مائـة كلمة و لم تشرب آذانها من صوته إلا قطرات لا تروى الظمأ ولكـن الحب يعطى للعاشقين سمعاً مرهفاً يميزون به أصوات من يعشقون من بين أصوات الناس أجمعين.

ونواصل الوقوف أمام هذه اللحظة الدقيقة الحساسة في حيـاة عاشقين يتجاوزان كل الأسلاك الكثيفة الشائكة القائمة بين عائلتيهما المتعاديتين أشد العداء لأن القلوب العاشقة لا تعبأ بمثل هذه الاعتبارات التي يمكن أن نسميها باسم الاعتبارات السياسية كالعاطفة الإنـسانية أكبر وأقوى ألف مرة من الظروف السياسية وأنا أسميها باسم الظروف السياسية لأن الصراع الطويل القديم بين عائلة روميو وعائلة جولييت هو صراع على النفوذ والسلطة والثروة في مدينة فيرونـا الإيطاليـة ، وتلك كلها ظروف سياسية لا مكان فيها للعواطف الإنسانية وعلـى رأسها تلك العاطفة المقدسة .. عاطفة الحب ونعود إلى كتاب "روائع شيكسبير" لنقف مع هذه اللحظة الكاشفة للمترجم ــ وفى الكتـاب مقدمة طويلة إلى العربية وليس عليه اسم المترجم ـ وفى الكتاب مقدمة طويلة جميلة للأديب الراحل "عبد الرحمن صدقي":" قالت "جولييت" بعد أن عرفت أن الرجل الذي يختفي في حديقة بيتها ويقف تحـت

نافذهما هو روميو: كيف جئت إلى هذا المكان؟ من الذي أرشدك إليه ؟!.. فيجيب روميو : هداني إليه الحب.. حبي الذي كان يقود أقدامي أني لست ملاحاً ولكن لو أنك ــ يا حبيبتي ــ كنت بعيدة عني بعد أقصى الشواطئ التي تغسل رمالها بمياه البحر، أجازف بعبور البحار دون أن أبالي شيئاً لكي أصل إليك . فصبغت حمرة الخجل وجه جولييت ولكن روميو لم ير ذلك بسبب الظلام وأخذت تفكر كيف أنه عرف حقيقة شعورها نحوه وهي التي كانت تنوى ألا تدعه يعرف شيئاً من ذلك ، وتمنت لو استطاعت أن تسترد كلماتها التي تحدثت بها إلى نفسها ولكن ذلك كان مستحيلاً وتمنت لو أنها كانت قد التزمت بالحذر وخضعت للتقاليد وأبقت ذلك الحبيب بمنأى عنها كما هي عادة النساء في الأعراض عن أحباهن والتظاهر بالقسوة على جميع من يتعلقون بهن كي يعذبوهم أطول مدة ممكنة بالصدود عنهم مع أن قلوبهم مشتعلة بالهوى الدفين ، وقد تمنت جولييت لو فعلت كما تفعل سائر النساء أي تتصنع عدم المبالاة في الوقت الذي تشعر فيه بنيران الحب حتى لا يظن المحبون أنهن رخيصات قريبات المنال فالذي يكسبه الإنسان بسهولة يهون على النفس أن تفقده بعد قليل كل هذا خطر برأس جولييت وهي في تلك اللحظة الحاسمة ولكنها وجدت نفسها مكتوفة اليدين . فلا محل في موقفها هذا ــ وقد استمع إليها روميو ــ للإنكار أو للتسويف أو للتذرع بالمناورات المألوفة بين النساء والرجال فقد سمع روميو من لسانها اعترافها بحبه من غير قيد ولا شرط وتمنيها للقرب منه و لم تكن تدرى أنه يقف تحت نافذتها وأنه قد استمع إلى ما كانت تقوله بنفسها لنفسها وبالصراحة التامة التي يتطلبها موقفها أكدت له صدق ما سمعه بل زادت على ذلك أنها عدلت عن بغض اسمه بل وعدلت عن بغض اسم عائلته الكريه بالنسبة لعائلتها وأبت أن تستجيب له في مناداته باسم "الحب" أو الحبيب بدلاً من أسمه واسم

عائلته فنادته باسم "مونتاجو الجميل" قائلة :" إن الحب قادر أن يضفي الحلاوة على اشد الأسماء مرارة"

و"مونتاجو" هو اسم عائلة "روميو" وبعد ذلك طلبت "جولييت" من حبيبها ألا يفسر استجاباتها السريعة لحبه بأنه نوع من الطيش أو خفة العقل أو سوء الخلق بل يجب أن يكون المسئول عن خطئها إن كان في الاعتراف بالحب خطأ هو الليل وسكونه وسحره ، وأخذ روميو يستشهد بالسماء والأرض على أنه لم يخطر بباله شيء من ذلك فلا يمكنه أن يتصور ظل شبهة يلحق بفتاة شريفة عظيمة القدر مثل جولييت واستمر الحوار بينهما لحظات تأكداً فيها من صدق حبهما لبعضهما البعض.

وقالت جولييت لحبيبها أنه إذا كان حبه لها شريفاً حقاً وهدفه الزواج فسوف ترسل إليه في الغد رسولاً ليحدد معه زمان هذا الزواج ومكانه وحيث تضع جميع كنوزها تحت قدميه وتتبعه سيدا لها إلى أقصى الأرض وافترق الحبيبان وكل منهما يتمنى لصاحبه في تنهد مليء بالحرارة نوماً هنيئاً وراحة وأمناً.

هكذا بدأت قصة حب جولييت وهكذا تكلمت جولييت عندما سيطر حبها فجأة على قلبها كله .

وسوف نلاحظ في التفاصيل السابقة كلها أن جولييت كانت ناضجة تماماً للحب رغم أنها صغيرة السن ولم تتجاوز الرابعة عشرة بل إن بالإمكان القول أنها كانت متعطشة للحب وإنها تنتظر الشرارة التي تشعل فيها عاطفة الحب القوية الكامنة فيها ، وقد وجدت "عود الكبريت" الذي أشعل نارها العاطفية الكبيرة في شخص روميو الشاب الجميل المهذب وابن عميد العائلة المعادية لعائلته.

على أن "جولييت" كانت تنظر إلى الحب نظرة رفيعة سـامية ولذلك فإنها قصدت على الفور إلى الهدف من أي حب صـادق أي الزواج فلا شرعية لحب يقوم على العبث واللعب وعـدم احتمـال المسئولية . وعندما وعدها حبيبها بأن يكون عند حسن ظن قلبها به إذ أنه هو أيضا من الجادين في الحب وليس من العابثين اللاهين عنـدما وعدها بذلك وأحست في وعده بالصدق قالت له ما تقوله العاشـقة الصادقة لحبيبها وما معناه سوف أتبعك إلى أقـصى الأرض وسـوف تكون سيداً لي برضاي واختياري . وفى هذا معنى مهم فالمرأة المحبـة الصادقة في حبها والواثقة منه تجد سعادتها في أن تكون تابعة لحبيبـها دون أن تجد في ذلك شيئاً غير السعادة الكاملة . ولعل كلمة تابعة هنا تكون كلمة غير منصفة وغير دقيقة فالحب ليس فيه تابع ومتبوع بـل فيه توحد ومساواة ، ولكن جولييت قصدت من عبارة "تابعة لسيدها أي حبيبها وزوجها" أن تنتصر لأنوثتها الراقية فالحب ليس حرباً والمرأة التي تحب لا تتحدى ولا تستفز ولا تكشر عن أنيابها بل هي تعطـى وتفرد جناحيها لتمنح الدفء والحرارة في الرجل الذي اختارته ووثقت به وقد حذرت "جولييت" حبيبها من أن يتوهم أنها امرأة سهلة وكان تحذيرها في موضعه فلما رأت النور العاطفي الصادق يملأ وجه "روميو" اطمأنت إلى أنها لم تخطئ وبدأت رحلتها معه وكانت عند وعدها لـه فتبعته وتابعته حتى الموت .

❖

الحب على الطريقة الإيطالية

الشخصيات الرئيسية في هذا الفـــصل هي:

روميو ــ جولييـــت ــ والقـــسيس لورانس

كل عاشق في هذه الدنيا يحمل في قلبه جنسيه حبه والقلـــوب تتأثر كثيراً بطبائع الشعوب ويمكنك أن تعـرف تـاريخ أي شـعب ونفسيته وميوله المختلفة إذا درست أغانيه في الحب ، فأغاني الحب هي الباب السحري الذي إذا دخل منه الإنسان فإنه يستطيع أن يعرف كل شيء عن الشعب الذي يغني هذه الأغاني ، وهذه قاعدة لا تخطيء أبداً لأن الناس قد يكذبون في رواية الأحداث التاريخية وقد يكذبون أيضاً وهم يتحدثون في السياسة ولكن الناس لا يكذبون وهم يتحدثون عن الحب ويكتبون فيه أغانيهم ويرددونها ليسمعوها هم قبل أن يـــسمعها الآخرون ومن يغني لنفسه بألحان قلبه ليس بحاجة إلى الكذب لأنـــه لا يسعى أبداً إلى تحقيق مكاسب من أي نـــوع أو إلى الحـــصول علـــى إعجاب غيره ورضاه بل هو يسعى أولاً وأخيراً إلى راحـــة قلبـــه لأن الغناء العاطفي يريح القلوب في جميع الحالات فهو في حالـــة التوفيـــق العاطفي تعبير عن الفرح وفى حالة الإخفاق العاطفي تعبير عن المواساة وسعى لعلاج كل الجروح.

ومن بين شعوب الأرض جميعاً نجد أن الـــشعب الإيطـــالي في مقدمة الشعوب المشهورة بالعاطفة القوية ولعل ذلـــك يرجـــع إلى أن إيطاليا هي بلد من بلدان أوروبا القليلة التي لا تعانى البرد الـــشديد أو غياب الشمس عن السماء في معظم فصول العام فهي بـــلاد دافئـــة

وشمسها ساطعة في أكثر أيام السنة . أما طبيعتها فهي طبيعة جميلة فاتنة والشعب الإيطالي شعب قديم ولعله بعد اليونانيين يكون أقدم شعوب أوروبا ، وقد ظلت روما لعدة قرون متواصلة هي عاصمة أوروبا كلها وكان حاكم روما في هذه القرون هو حاكم أوروبا وسيدها الوحيد .
وفى روما بدأت تلك العصور المزدهرة المعروفة باسم "النهضة الأوروبية" فكانت روما هي أول بلد في أوروبا عرف هذه النهضة وأشاع نورها بعد ذلك في بلدان أوروبا الأخرى . وقد ظل الأوروبيون لفترة طويلة جداً – بعد بداية عصر النهضة سنة حوالي ١٣٠٠ وما بعدها – يتطلعون إلى إيطاليا ويستمدون منها المعرفة وأصول الذوق في الأزياء والفنون المختلفة لفترات طويلة ، فالأوروبيون لم يعرفوا استخدام "الشوكة" في الطعام إلا بعد أن استخدمها الإيطاليون ، والأوروبيون لم يعرفوا الأسلوب الراقي في معاملة المرأة إلا بعد أن عرفه الإيطاليون وأشاعوه ومن المعروف أن لويس الثالث عشر في فرنسا "١٦٠١ – ١٦٤٣" – والذي حكم بلاده من سنة ١٦١٠ وهو في التاسعة وحتى وفاته سنة ١٦٤٣ كان إذا أراد أن يعبر عن "تدليله" لنساء البلاط فإنه كان يبصق في وجه المرأة وهو يضحك وكان يعتبر هذا نوعاً من التعبير عن تدليله للمرأة ، وإظهار عواطفه الطيبة نحوها وكان يرى في ذلك نوعاً من "التفضل" الملكي من جانبه على نساء بلاطه وقد تغير ذلك الأسلوب الخالي من الذوق في معاملة المرأة بعد أن نقل عدد من الأوروبيين عن إيطاليا أسلوب معاملة المرأة باحترام فأصبحت أوروبا تحت تأثير إيطاليا تحرص على تقبيل يد المرأة وأصبح الرجال ينحنون أمام المرأة تعبيراً عن هذا الاحترام بدلاً من أن يبصقوا في وجهها كما كان يفعل لويس الثالث عشر. فإيطاليا هي التي قامت بتصدير أساليب التحضر والتهذيب والذوق إلى سائر أنحاء أوروبا لأنها كانت السابقة إلى معرفة هذه

الأساليب جميعاً وكانت المثل الأعلى في هذا المجال بالنسبة لجميع الأوروبيين ومن الثابت أن إيطاليا نقلت الكثير من أساليب الذوق الرفيع عن عرب أسبانيا.

أما بالنسبة لقصص الحب الشهيرة في أوروبا كلها فقد كانت هذه القصص كلها إيطالية فالإيطاليون ، هم شعب العواطف المشتعلة والقصص الكبرى التي استمد منها شيكسبير مآسيه العاطفية الأساسية هي قصص إيطالية والعاشقات الشهيرات عند شيكسبير هن عاشقات إيطاليات فديدمونة في مأساة "عطيل" إيطالية وجولييت في مأساة "روميو وجولييت" إيطالية وبورشيا العاشقة في مسرحية "تاجر البندقية" إيطالية وإذا كانت العاشقات الشهيرات عند شيكسبير هن إيطاليات فأشهر العشاق أيضا هم من إيطاليا وهل هناك في تاريخ العشق أشهر من روميو وأنطونيو؟ إنهما إيطاليان صميمان أحبا وقدما حياتهما فداء لعاطفة الحب التي ملأت قلبيهما وسيطرت على هذين القلبين سيطرة كاملة. ونتوقف هنا أمام موضوع حديثنا الأساسي وهو شخصية "جولييت" بطلة المأساة العاطفية "روميو وجولييت" لشيكسبير فشخصية جولييت هي نموذج مثالي للعاشقة على الطريقة الإيطالية .. ومأساة "روميو وجولييت" التي كتبها شيكسبير سنة ١٥٩٤ ليست من صنع خيال شيكسبير ولكنها مأساة لها أساس واقعي ، فالباحثون يؤكدون أن هذه المأساة قد وقعت بأحداثها الرئيسية في أوائل القرن الرابع عشر "١٣٠٠-١٤٠٠"أي قبل أن يعود إليها شيكسبير ويجعل منها مادة لمسرحيته بأكثر من مائتي سنة.

وحب جولييت يحمل كل عناصر الحب الإيطالي وشخصيتها تحمل الملامح الرئيسية للمرأة الإيطالية العاشقة وهنا نعود إلى كتاب رائع عنوانه "الإيطاليون" وهو من تأليف الكاتب الإيطالي "لويجي

بارزيني" وقد صدر في إيطاليا سنة ١٩٦٥ وترجمه إلى العربية ترجمة دقيقة وجميلة سنة ١٩٧٤ الدكتور أحمد نجيب هاشم سفيرنا الأسبق في إيطاليا ووزير التربية والتعليم في مصر في أواخر الخمسينات من القرن الماضي وفى مقدمة الكتاب يقول مترجمه الدكتور هاشم:

إن المؤلف يصور الإيطاليين على أنهم شعب رشيق طيب يتمسك بأهداب الفضيلة داخل الأسرة والهدف الأساسي من الحياة الزوجية في إيطاليا ليس إشباع أحلام المراهقين أو نزوات الخياليين بقدر ما هو بناء أسرة جديدة وتدعيم العائلات القائمة. فالأسرة الإيطالية تستقطب الولاء الأول من كل فرد، وشخصية المرأة في الحياة الإيطالية شخصية متفوقة ويضرب مؤلف كتاب "الإيطاليون" مثلاً لذلك بكثرة الأغاني الشعبية التي تشيد بذكر الأم Lomamma ويقول إن أكثر الصيحات في الاستغاثة شيوعاً عند الإيطاليين ساعة المحنة هي "يا أماه" Mamma Mia يصرخ بها الجندي الجريح في الحرب والمتهم ساعة صدور الحكم عليه".

ويحدثنا مؤلف الكتاب "الإيطاليون" في العديد من صفحات كتابه البديع عن المرأة الإيطالية وسحرها المعروف منذ أقدم العصور:

"فالفتيات الإيطاليات يتمتعن بصحة طيبة ويتميزن بظرفهن وتحررهن وجرأتهن، وقد اكتسبن على نحو مذهل سيقاناً طويلة جميلة التكوين ولهن وجوه فاتنة مفعمة بالحيوية والنشاط وخصور نحيله وصدور عالية وأرداف متناسقة وفضلاً عن ذلك فإنهن يتميزن بطباع أليفة ساذجة غير معقدة ويمكنهن التحدث بكلمات حنون رقيقة في صراحة تحطم القلوب".

تلك هي صورة عامة للمرأة الإيطالية منذ أقدم العصور إلى اليوم ومن الطبيعي أن تتغير هذه الصورة في بعض تفاصيلها من عصر إلى آخر ولكن الوضع العام للمرأة الإيطالية يبقى محتفظاً لها بصفتين أساسيتين وهما: قوة العاطفة والجاذبية الأنثوية العالية.

نعود بعد ذلك إلى شخصية جولييت ونتساءل : كيف انعكست الطبيعة الإيطالية على شخصيتها ومأساتها العاطفية كما صورها لنا شيكسبير في مسرحيته الشهيرة "روميو وجولييت" ؟!.

إن جولييت في مسرحية شيكسبير فيها تجسيد حي للكثير من الطبيعة الإيطالية فقلب جولييت مشتعل بعاطفة الحب كما هو شأن الإيطاليين الذين لا يعرفون الاعتدال أو البرود في عواطفهم. فالحب على الطريقة الإيطالية هو حب عنيف قوى صريح ، وهكذا كانت جولييت فعندما أحست بالحب يغزو قلبها تركت هذا الحب يسيطر على حياتها سيطرة كاملة وأعلنت حبها بصراحة تامة لحبيبها "روميو" ولم تلجأ في ذلك الإعلان الصريح إلى أيه حيلة نسائية من أي نوع ، على أن الحب عند جولييت لم يكن مغامرة من أي نوع ، بل هو التزام ومسئولية فعندما أعلنت حبها لحبيبها روميو وتأكدت من أنه يبادلها الحب كان مطلبها هو أن الحب الحقيقي لابد أن يعبر عن نفسه بأن يرتبط برباط مقدس هو الزواج ، فإذا كان حبيبها صادقاً حقاً في عواطفه فلابد أن يعبر عن صدقه بالزواج منها وقد كان الحبيب هو روميو صادقاً أشد الصدق فوافق على الزواج وهكذا فإن جولييت تربط بين الحب والزواج أو بين العاطفة والمسئولية برباط قوى وثيق وهى بذلك تجسد احترام الإيطاليين لفكرة الأسرة وبنائها والولاء لها فليس الحب عند الإيطالية الحقيقية علاقة حرة "سائبة" لا ضابط لها بل هي علاقة تهدف إلى بناء عائلة وهى علاقة لا تستقيم في صورتها المثالية

إلا إذا قامت على أساس من الالتزام والمسئولية ، على أن حب جولييت لحبيبها روميو يصطدم بعقبة رئيسية فوالدها — وهى ابنته الوحيدة— يرفض مثل هذا الحبيب لأن روميو هو ابن العائلة المعادية عداء طويلاً وقديماً لعائلة جولييت فكيف تتزوج جولييت من عدو أبيها وعائلتها ؟!، والعداوة هنا ثابتة وقديمة وليست عداوة مؤقتة يمكن القضاء عليها بسهولة . هنا يظهر عنصر التحدي في شخصية جولييت والتحدي يثبت قوة الشخصية واستقلالها وقدرتها على اتخاذ القرار الخاص بها ، وقد رأت جولييت أنها ليست مسئولة عن العداء بين عائلتها وعائلة حبيبها وليست مشاركة في هذا العداء القديم كما رأت جولييت أن حبيبها روميو هو أيضاً ليس مسئولاً عن هذا العداء ولا مشاركاً فيه وهو برئ تماماً من العداوة التقليدية القديمة بين عائلته وعائلة جولييت.

ولذلك رأت جولييت أن الحل المناسب لهذا الموقف الصعب هو التحدي والإصرار على حبها القوى فهذا الحب صادق وحقيقي أما العداء بين العائلتين فهو قائم على أسس غير مقبولة وغير عادلة فإذا كانت هناك كراهية متبادلة بين الأجداد والآباء فما ذنب الأبناء حتى يرثوا مثل هذه الكراهية التي لا يجدون صدى لها في نفوسهم وعلى العكس من ذلك فهم يجدون في نفوسهم عاطفة صافية نقية أسمها الحب وهى عاطفة قادرة على إزاحة جميع الغيوم من سماء الحياة الإنسانية .

كانت جولييت قوية الشخصية مقتنعة تمام الاقتناع بحبها الصادق القوى ولذلك استطاعت أن تتحدى رفض والدها لمثل هذا الحب وتقبلت أن تتزوج سراً من حبيبها فأصبح حبها شرعياً ليس فيه أي خطأ أخلاقي أو ديني وليس فيه أي معنى من معاني الفوضى أو

التقصير أو انعدام الشعور بالمسئولية تجاه هذه العاطفة النبيلة.وهكذا تكون جولييت صاحبة قلب مشتعل بالعاطفة وتكون على وعى كامل بأن مسئولية الحب لابد أن تعبر عن نفسها في الزواج وعندما تجد أمامها عقبة صعبة فإنها تلجأ إلى التحدي والاستعداد للتضحية بأي شيء في سبيل الحب.

إنها كانت صادقة عندما أحبت.. وهى لم تنظر إلى الحب على أنه عاطفة بلا هدف بل وربطت بين هذه العاطفة وبين الزواج لكي تكون العاطفة مسئولية ومشروعة، وعندما وجدت معارضة لهذا الحب المشروع القوى أعلنت التحدي.

وكان باستطاعة جولييت أن تنجح في حبها وتسعد بحبيبها لولا ما حدث بعد ذلك مما هو خارج تماماً عن سيطرتها وإرادتها.

لقد انتهى حب جولييت إلى المأساة برغم أنها بذلت جهدها لينتهي بها الحب إلى السعادة وكانت المشكلة الأولى أمامها هي أن العداء بين عائلتها وعائلة حبيبها كان من القوة والعنف بحيث أنه أدى إلى أن يضطر روميو ــ مرغماً إلى مبارزة ابن عمها "تيباليت" وأن ابن العم هذا كان عدوانياً متغطرساً مفتوناً بنفسه ومندفعاً إلى مشاعر العداوة العمياء ، فقد خسر المعركة التي ابتدأها بنفسه مع روميو حيث قتله روميو دفاعاً عن النفس ورداً للعدوان ولذلك فإن روميو قد تعرض لحكم بالنفي من مدينته ومدينة حبيبته وهى مدينة فيرونا.

وهكذا بعد أن تزوجت جولييت سراً أصبح زوجها وحبيبها محكوماً عليه بالنفي الذي لم يكن هناك مفر من تنفيذه فهو حكم أصدره حاكم فيرونا ولا مهرب منه.

وبذلك وضعت العداوة العنيفة بين العائلتين خيطاً من الدماء يحول بين الحبيبين وبين السعادة وهذا الخيط من الدماء هو الذي سال عندما تصدى روميو لعدوان ابن عم جولييت وقتله .

وكان يمكن النجاة من هذه المأساة بشيء من الصبر وشيء من الحيلة بحيث تنتهي الأمور إلى إقناع حاكم فيرونا بالعفو عن روميو البريء ليعود إلى مدينته ويضم حبيبته وزوجته إلى صدره من جديد.

ولكن الحيلة التي أعدتها جولييت بمساعدة القس "لورانس" لم تنجح فقد شربت جولييت مشروباً منوماً ودفنوها على أنها ميتة لتتجنب بذلك أن يفرض عليها أبوها الزواج من شخص آخر غير زوجها وحبيبها روميو وتكفل القس لورانس بإرسال رسالة إلى روميو في منفاه يخبره فيها بالحيلة حتى يعود عندما تكون جولييت قد استيقظت من النوم الذي يشبه الموت ولكن الرسالة تضل الطريق إلى روميو وتصل إليه — على العكس أنباء تقول أن جولييت قد ماتت فيعود مسرعاً ليجدها في قبرها فيشرب السم وينتحر به لأن الحياة بدون حبيبته لا معنى لها. وعندما تستيقظ جولييت من نومها وتجد حبيبها قد مات فإنها تنتحر هي الأخرى وهذا السلوك — على عنفه — يتفق مع طبيعتها كفتاة قوية صاحبة قلب مشتعل وعاطفة حادة وإصرار بألا تكون لإنسان آخر غير ذلك الذي اختارته بإرادتها الحرة ومشاعرها الصادقة.

هنا تتكشف لنا المعاني الأساسية في هذه المأساة العاطفية وأول هذه المعاني هو أن جولييت كانت تحب على الطريقة الإيطالية أي تحب بعنف وحرارة وإرادة قوية وقدرة على تحدى العقبات والمصاعب وهو إلى جانب ذلك حب ملتزم أي أنه لا يقبل أن يكون حباً غير مرتبط بالزواج . فالإيطاليون عاطفيون ولكنهم يميلون ميلاً قوياً إلى

بناء الأسرة ويحرصون على ذلك. فقوة الحب عندهم لا تعني الفوضى العاطفية لذلك حرصت جولييت منذ أن شعرت بالحب يتدفق في قلبها على أن تطلب الزواج من حبيبها روميو إن كان صادقاً في حبه وقد كان من أصدق العاشقين فلم يتردد في الزواج من حبيبته وإن كان الزواج قد تم سراً بسبب العداء بين العائلتين ولكن "سرية" الزواج لم تحرمه من أن يكون حباً قائماً على علاقة شرعية ومما يؤكد أن هذه العناصر جميعاً هي جزء من الطبيعة الإيطالية ، إننا نجد شبيهاً له عند إيطالية جميلة أخرى هي "ديدمونة" في "مأساة عطيل" لشيكسبير أيضاً فديدمونة هي الأخرى أحبت ووجدت رفضها لحبها من أبيها فتزوجت من حبيبها سراً وهو نفس ما فعلته جولييت ، فالحب الإيطالي عنيف ومشتعل ولكنه حب يقوم على النظام والشرعية ولا يقبل الفوضى أو عدم الالتزام ويلفت نظرنا أن الحب عند جولييت هو " حب مقاتل" فكأن جولييت كان يجرى في عروقها دماء المقاتلين الرومان الذين اشتهروا في الزمن القديم بالقوة والعزيمة والقدرة العالية على خوض المعارك في استبسال عجيب ونستطيع أن نقول عن جولييت إنها كانت باسلة في حبها لأنها لم تهرب من أي معركة كانت مفروضة عليها دفاعاً عن الحب ولم تتراجع عن كفاحها العاطفي حتى اللحظة الأخيرة ، وهذا القتال والاستبسال في الحب يرفع من شأن جولييت ويجعل لها مكاناً عزيزاً في تاريخ الكفاح العاطفي للإنسانية ، وقد نالت جولييت جزاءها على إخلاصها وقوة إرادتها واندفاعها النبيل للدفاع عن عاطفتها الجميلة فأصبحت جولييت أشهر الشهيرات في دنيا الحب على مر التاريخ وأصبح اسمها على كل لسان فهي بطلة وميدان بطولتها هو الإيمان بالحب والدفاع عنه وتلك معركة من أشرف معارك الإنسان والذي يخوضها كما خاضتها جولييت بكل قوة وإخلاص جدير بأن يكون مثلها من أبطال التاريخ.

ونترك هذا الجانب الإيطالي في شخصية جولييت لنقف أمام معنى آخر وهذا المعنى توحي به النهاية المأساوية التي وصلت إليها جولييت فبرغم كل ما بذلته هذه الفاتنة الإيطالية المقاتلة من أجل الحب والسعادة به وإضفاء الشرعية عليه إلا أن هذا الحب انتهى بانتحار روميو عندما تصور أن حبيبته جولييت قد ماتت بينما هي كانت نائمة بعد أن شربت سائلاً يؤدى إلى نوم عميق يشبه الموت وعندما استيقظت جولييت ورأت حبيبها قد انتحر لأنه لم يطق الحياة بدونها انتحرت هي الأخرى لأنها لم تكن أقل منه في قدرتها على التضحية بحياتها عندما تكون الحياة خالية من حبيب قلبها الوحيد.

نكاد نشعر أمام هذه النهاية أن الحبيبين كانا يستحقان نهاية سعيدة وقد كافحا من أجل ذلك كفاح الأبطال. فنحن نشعر بالأسى والأسف أمام هذه النهاية المؤلمة ونكاد نقول في صوت واحد ونحن نتابع فصول هذه المأساة : لماذا هذه النهاية المأساوية أيها الفنان العبقري شيكسبير؟ ألم يكن في إمكانك أن تضع لهذه القصة نهاية أخرى تليق بها أي نهاية سعيدة؟ على أن شيكسبير يشبه الحياة فهي تمشى في طريقها المرسوم دون أن تكلف نفسها بالرد على أسئلتنا وعلينا نحن أن نخرج بالإجابة الصحيحة ونجتهد في الوصول إليها ، وهنا فلابد أن تكون الإجابة هي أن شيكسبير في فنه العظيم شديد الوفاء للحياة وهو نسخة طبق الأصل من هذه الحياة فهو لا يفرض على الواقع ما ليس فيه . وقد سبقت الإشارة إلى أن قصة "روميو وجولييت" هي قصة لها أصل واقعي أي أنها حدثت في الحياة وانتهت فيها نهاية مشابهة لما جاء في مسرحية شيكسبير .وليس فنانا حقيقياً ذلك الذي يلوى عنق الحياة ليخرج منها بنهاية سعيدة في قصة لم تعرف مثل تلك النهاية وشيكسبير هو الفنان الأعظم ومثل هذا الفنان لا يخطر على باله أن يكذب على الحياة.

على أن شيكسبير لم يترك الأمر دون أن يضع له تفسيره الذي يؤمن به ويكرره باستمرار عجيب في كثير من أعماله المسرحية الرائعة وهذا المعنى هو أن الحياة فيها قوة لا سيطرة للإنسان عليها مطلقاً ، هذه القوة هي قوة الأقدار فمهما بلغ الإنسان من الاجتهاد في التخطيط والإتقان في الحسابات فإنه لا يستطيع أن يفلت من الأقدار التي تأتي فجأة وتعمل عملها دون إذن أو انتظار أو توقع .وهذا ما يعبر عنه شيكسبير في "روميو وجولييت" على لسان الراهب لورانس حيث يقول ": إن قوة أشد بأساً من أن نعاندها قد أخلفت تدبيرنا".

وهذا هو المعنى الكبير في مسرحية "روميو وجولييت" وهو المعنى الذي يؤكده شيكسبير في معظم أعماله المسرحية ، فالإنسان يسعى ويجتهد والأقدار والحظوظ تهبط عليه عندما تشاء وخارج جميع الحسابات ،وتلك هي معادلة الحياة الإنسانية التي لا ينبغي فيها أبداً أن نستبعد دور هذه الأقدار والحظوظ.

على أننا لو تأملنا النهاية المأساوية لمسرحية "روميو وجولييت" بصورة أكثر عمقا ،فسوف نجد أن هذه النهاية المأساوية قد انطوت في داخلها على نهاية سعيدة ،ذلك أن موت الحبيبين شهيدان لحبهما الكبير قد وضع حداً للعداء الكبير والقديم بين العائلتين ،أي أن "روميو وجولييت " قد قدما تضحية غالية انتهت بإحلال السلام في مدينة "فيرونا" وهذه سعادة أخرى أكبر وأعم وأشمل من أي سعادة أخرى، فكأن التضحية الكبيرة بالحياة كانت بذرة قوية،وكانت الثمرة الناضجة هي السلام الذي ملأ الحياة وأنهى الصراع الدموي بين العائلتين ،وهذا هو ما تقدمه لنا مسرحية "روميو وجولييت" في مشهدها الأخير حيث يقول "كابيوليت" والد "جولييت" لعدوه القديم "مونتاجيو" والد "روميو" :أي أخي مونتاجيو ، هات يدك فإن الصلح

بيننا هو "مهر" أبنتي ،ولا أستطيع أن اطلب أكثر من ذلك فيرد عليه "مونتاجيو" قائلاً : ولكني سوف أعطيك أكثر من ذلك مهرا لأبنتك بالإضافة إلى الصلح بيننا ،فسوف أقيم لها تمثالاً من الذهب الخالص،ومادامت مدينتنا "فيرونا" معروفة بهذا الاسم ،فلن تكون فيها صورة أجدر بالإجلال أو أرفع من صورة الصادقة الأمينة "جولييت" .وهنا يرد "كابيوليت"والد "جولييت" قائلاً : "وسيكون تمثال "روميو" مثله وقد رقد إلى جانب حبيبته ضحية لما كان بيننا من عداء".

وهكذا عاد السلام إلى مدينة "فيرونا" وانتهى العداء الدموي بين العائلتين،ولم تذهب حياة "روميو وجولييت" هباء ولم تكن تضحيتهما بلا ثمن.

❖

كليوبطره والمجنون

الشخصيات الرئيسية في هذا الفــصل هي:

- **كليوبطره .**
- **أنطونيو .**



كان نابليون "١٧٦٩-١٨٢١" يحذر دائما من خطورة اشتغال المرأة بالسياسة،وكان يقول عن زوجته الأولى ،"جوزفين" والتي كان يحبها أشد الحب: "إنه إذا رأت جوزفين يوماً أن أمراً ما يجب أن تفعله حكومتي دعاني رأيها هذا إلى أن أفعل نقيضه على خط مستقيم" ويعود نابليون في عبارة أخرى له إلى التأكيد بأن عنده من المشاغل الكبرى ما يصرفه عن التفكير في الحب وحده ،إذ يتعرض أي رجل مشغول بالحب إلى أن يخسر الكثير من المجد ،إذا كان يسعى إلى مثل هذا المجد،ثم يقول نابليون :"لقد رسمت لنفسي خطة في حياتي ،وأقسمت ألا أجعل أجمل عين ساحرة في هذه الدنيا تستطيع تحويلي عن خطتي قيد شعرة واحدة" ومن أقوال نابليون أيضا : "إن الرجل الذي تقوده امرأته هو رجل قليل الاعتبار في نظري"

هذه بعض آراء نابليون صاحب العبقرية العسكرية المعترف بها من الجميع حتى من أعدائه ، ولكن نابليون هو إلى جانب ذلك سياسي صاحب ثقافة عميقة وهو أيضا شخصية لها تجارب واسعة في الحياة وأقوال نابليون عن المرأة متأثرة بثقافته وتجاربه الخاصة وهذه الآراء بالطبع لا يمكن أن تحظى باتفاق كامل حولها فلا شك أن بعض هذه الآراء يبدو من الطراز الرجعي القديم ،ونابليون له آراء كثيرة أخرى تدل على أنه أقرب ما يكون إلى شخصية "سي السيد" بطل رواية

نجيب محفوظ المعروفة وهي "بين القصرين ."وسي السيد " هو الرجل الذي يفرض سلطانه على زوجته وأبنائه ويطلب منهم الطاعة الكاملة له والامتثال لكل ما يقوله ويأمر به ،ومن ذلك يقول نابليون :"أنه لا ضرورة لإتعاب أنفسنا بوضع مشروع لتعليم الفتيات فلا يوجد خير لهن من تربية أمهاتهن ، أما التعليم العام فلا يوافقهن لأنه ليس مطلوباً منهن أن يقمن بعمل بين الناس ،وتربيتهن على الأخلاق الفاضلة هو الكل في الكل وهن في العادة لا يتطلعن إلى شيء غير الزواج ويقال إن إحدى السيدات سألت نابليون مرة عن أي النساء أعظم في نظره فقال :"إن أعظم النساء هي أكثرهن ولدا".

على أن أهم ما يعنينا هنا في آراء نابليون هو تحذيره المستمر من أي ربط بين الحب والسياسة وخلاصة رأيه في ذلك يتمثل في قوله : " إن الحب هو شغلة الفاضي وضيعة المحارب ودمار السلطان " ؟

ولا يوجد في أقوال نابليون عن المرأة ما يشير من قريب أو بعيد إلى مأساة ""أنطونيو وكليوبطره" التي وقعت قبل الميلاد بحوالي ثلاثين سنه أي منذ أكثر من ألفى سنه ولكنها رغم ابتعادها في أعماق التاريخ لا تزال حية إلى الآن في ذاكرة الناس وعلى ألسنتهم .ومع أن نابليون لم يتحدث عن هذه المأساة أبداً فيما أعلم فأظن أن نابليون كان متأثراً أشد التأثر بهذه المأساة التاريخية وخاصة في آرائه حول المرأة والحب وما لهما من تأثير في السياسة والحرب .فقد كان "أنطونيو" مثل نابليون صاحب عبقرية عسكرية نادرة المثال ،بل لقد كان "أنطونيو " معروفاً عنه في عصره انه أعظم القادة العسكريين على الإطلاق ،فهو القائد المنتصر دائماً كلما خاض معركة من المعارك مهما كانت ظروف هذه المعركة صعبة وقاسية ولكن حياة "أنطونيو" انتهت بانتحاره بعد المعركة العسكرية الكبرى التي خسرها وهي

معركة "اكتيوم" البحرية سنة ٣١ قبل الميلاد وكان السبب الأرجح لهزيمة "أنطونيو" هو انه وقع في حب "كليوبطره" وكان حبه لها قويا مشتعلاً إلى حد الجنون ، وبذلك أصبح "أنطونيو" مضطرباً بسبب تشتت عواطفه وأفكاره بين قلبه العاشق وبين واجباته الكبرى كقائد عسكري وسياسي .وبسبب هذا التشتت وانعدام التركيز حلت الهزيمة بأنطونيو الذي لم ينهزم من قبل وانتصر عليه أعداؤه الذين لم يكن بينهم من يرقى إلى مستوى قوته ونبوغه العسكري ،وانتهت حياته بالانتحار المأساوي بعد الهزيمة لأنه وقع في الخطأ الذي يحذر منه نابليون ،أي أنه شغل قلبه بالحب مع عمله بالسياسة والقيادة والحرب.

هذه المأساة المشهورة في تاريخ العالم القديم بتفاصيلها الكثيرة والمعروفة على وجه الخصوص في تاريخ أوروبا ،لابد أنها كانت تعيش في عقل نابليون وقلبه وكان يخشى أن تضطرب أموره وتنتهي حياته بمأساة مثل مأساة "أنطونيو" إذا ما وقع في حب كبير مشتعل يشغله ويشتت انتباهه وتركيزه في أمور السياسة والحرب ، ومما يزيد في قوة هذا الافتراض أن "أنطونيو" كان قائداً "رومانياً" أي انه كان من ايطاليا ،ونابليون رغم انتمائه إلى فرنسا ،فإنه – بالميلاد والنشأة – هو من جزيرة "كورسيكا" التي كانت جزءاً من ايطاليا حتى سنة ١٧٦٨ حين باعتها ايطاليا لفرنسا .وهذه الجزيرة تبعد عن فرنسا بمقدار ١٦٩ كيلو متراً . بينما لا تبعد عن ايطاليا بأكثر من ٨٢ كيلو متراً فجزيرة "كورسيكا" هواها مع ايطاليا حتى الآن رغم أنها أصبحت جزءاً من فرنسا ولا شك أن نابليون مثل موطنه الأول "كورسيكا" هو صاحب هوى إيطالي والأهم من ذلك انه كان صاحب ثقافة ايطالية رومانية ، ومن خلال هذه الثقافة فإن نابليون لابد أن يكون قد درس شخصية أنطونيو وفكر كثيراً في مأساته وخرج من هذه المأساة بالعبرة الكبيرة فيها وهي خطورة الخلط بين الحب والسياسة وبين الحب والحرب ثم

خطورة الاستسلام لمشورة المرأة المحبوبة في الأمور السياسية والعسكرية.

إن مأساة انطونيو بدأت حين انشغل بالحب وغرق فيه حتى أذنيه ففقد توازنه وضعفت قدرته كقائد عسكري عبقري وزعيم سياسي متميز على كل زعماء عصره .وكان الطرف الثاني في هذه المأساة العاطفية هي " كليوبطره" وشخصية كليوبطره في المأساة هي في مقام "ليلى" في القصة العاطفية العربية المعروفة " امرؤ القيس" أو مجنون ليلى بالنسبة لكليوبطره فهو انطونيو وإن كانت القصة العربية رقيقة لطيفة حزينة ناعمة ، و لم تنته بانتحار ولا سالت فيها الدماء ، بينما انتهت قصة أنطونيو نهاية مأسوية حيث انتحر العاشقان وسالت دماء كثيرة حولهما بسبب غرامهما الذي لم يشهد له تاريخ الغرام العاطفي مثيلاً له في قوته وعنفه . وهناك فرق أساسي آخر بين مأساة ليلى والمجنون ومأساة كليوبطره وانطونيو .ففي القصة العربية كان الحب روحانيا خالصاً ليس فيه أي عنصر من عناصر الشهوة الجسدية ،وأما أنطونيو وكليوبطره فكان حبهما بالقلب والجسد معاً وقد لعبت فيه شهوة الجسد دوراً بالغ القوة وهو لا يقل في تأثيره عن الدور الذي لعبته عواطف القلوب.

وقد كانت مأساة أنطونيو وكليوبطره مادة لكثير من الأعمال الفنية المختلفة و لم تفت هذه المأساة شيكسبير.فتناولها بعبقريته الفنية في مسرحية من أبدع مسرحياته وهي مسرحية "أنطونيو وكليوبطره" الشهيرة وهي المسرحية رقم ثلاثين بين إعمال شيكسبير الرائعة ، ونرى كيف نظر شيكسبير إلى المأساة والي الشخصية التاريخية بالتحديد فلعل من المفيد أن نتوقف أمام الشخصية التاريخية لكليوبطره

نفسها ففي ذلك متعة يقدمها لنا التاريخ ،وفيه ما قد يساعدنا على فهم موقف شيكسبير من هذه الشخصية النسائية الفريدة في قوتها وصلابتها وعواطفها وحظها الذي تراوح بها كثيراً بين السعادة والشقاء.

تشير المعلومات التاريخية الأساسية عن كليوبطره إلى أنها ولدت بالإسكندرية سنة ٦٩ قبل الميلاد ،أما انتحارها فقد كان سنة ٣٠ قبل الميلاد أيضا،ومعنى ذلك إنها ماتت وهي في التاسعة والثلاثين من عمرها .وهناك رأي ضعيف يقول به بعض المؤرخين:وهو أن انتحار كليوبطره إنما هو قصة ملفقة من اختراع "أكتافيوس"عدوها وعدو حبيبها أنطونيو ،وأن الحقيقة هو أن "أكتافيوس" قد قتلها بعد هزيمتها وبعد أن رفضت أن تصحبه إلى روما ليستعرضها ضمن غنائمه في موكب انتصاره.وهذا الرأي التاريخي الذي يقول إن كليوبطره ماتت مقتولة لا منتحرة هو رأي شديد الضعف والبراهين عليه قليلة والرأي الراجح عند المؤرخين هو أنها ماتت منتحرة بالطريقة المشهورة ،أي بلدغة حية كانت مخبأة في سلة تين من ذلك التين الإسكندراني المعروف في الإسكندرية منذ أقدم العصور.

تولت كليوبطره حكم مصر وأصبحت ملكة عليها وهي في التاسعة عشر من عمرها ،وكان ذلك سنة ٥١ قبل الميلاد. وأسرة كليوبطره هي أسرة يونانية أسسها بطليموس الأول "٣٦٧- ٢٨٥ قبل الميلاد" ،وهو أحد كبار قادة الإسكندرية العسكريين.وبعد وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ قبل الميلاد استولي بطليموس الأول على عرش مصر وأسس الأسرة المعروفة باسم "البطالمة" وكان أول ملوكها هو مؤسسها بطليموس ،أما آخر ملوكها فهي كليوبطره .وبذلك تكون كليوبطره ملكة تنتمي إلى عائلة عريقة هي عائلة البطالمة ،وهذه العائلة

قد عاشت في مصر وتمكنت من حكمها خلال هذه المدة الطويلة وهي مائتان وخمسون عاما على التقريب ومن الطبيعي أن يرى كثير من المؤرخين أن هذه العائلة قد تمصرت ،أي أنها أصبحت أسرة مصرية رغم أصولها اليونانية . وبذلك فإن النظر إلى كليوبطره على أنها مصرية رغم الدماء اليونانية التي تجري في عروقها وهو أمر لا يخلو من الصواب وفيه جانب كبير من الحقيقة وقد كانت كليوبطره في تاريخها كله تعمل للمحافظة على استقلال مصر وعاصمتها الإسكندرية ،وبالطبع فإن كفاحها من أجل الاستقلال وعدم السماح بأن تتحول مصر إلى مجرد ولاية تابعة لغيرها كان فيه حرص على استمرار عائلتها و أولادها على وجه الخصوص في حكم مصر والبقاء فوق عرشها ، وبذلك تكون كليوبطره مصرية بقدر ما هي يونانية بل ربما كان الصواب أن نقول إنها مصرية أكثر بكثير مما هي يونانية .وللكاتب الكبير يحيى حقي رأى له قيمته يمكن أن يكون منطبقا بصورة كاملة على شخصية كليوبطره حيث يقول يحيى حقي في كتابه الجميل "فجر القصة المصرية" عن الأديب الفنان محمد تيمور:" وإنك لتحس أن نزعة محمد تيمور في الأدب مبعثها حب صادق لمصر وأهلها وليس من الغريب كما نظن أول وهلة أن الذي يضمر هذا الحب كله ويحمل لواء المناداة بالأدب المصري الصميم لا تجري في عروقه دماء مصرية بل دماؤه خليطة من التركية والكردية والإغريقية ،فهذه ظاهرة طبيعية مألوفة عند الغير كما عندنا في أن العرق الحديث هو أشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباهاً إلى فضائله" .

هذا الرأي العميق الدقيق الذي عبر عنه يحيى حقي يمكن أن ينطبق بالكامل على شخصية "كليوبطره" فالدماء التي تجري في عروقها دماء يونانية ،وليست دماء مصرية ،ولكنها ولدت في مصر لأسرة يونانية كانت تعيش في مصر قبل ميلادها بأكثر من مائتي سنة .فالدماء

اليونانية لم تمنع "كليوبطره" من أن تكون مصرية عاشقة لمصر مؤمنة بها ،حريصة عليها أشد الحرص ،ولم تمنعها من أن تبذل كل جهدها طيلة حياتها في المحاولة القوية المستمرة التي لا تهدأ للمحافظة على استقلال مصر وجعلها بلداً عزيزاً مرفوع الرأس ،حر الإرادة ليس تابعا لأي قوة خارجية .وهذا الرأي في "مصرية "كليوبطره هو الذي يبدو لي أقرب إلى الصواب من رأي آخر يقول أن كليوبطره لم تكن سوى امرأة تسعي لتحقيق بعض المصالح الفردية الخاصة بها ،وأنها كانت امرأة شهوانية تجري وراء عواطفها وغرائزها فقط، وفي أحسن الأحوال فإن كليوبطره كانت تتحرك بدافع من طموح سياسي شخصي للاحتفاظ بعرش مصر لنفسها وأولادها من بعدها أما مصر نفسها ومكانتها واستقلالها فكلها أمور لم يكن لها حساب عند كليوبطره.

والحق أن هذا الرأي الذي يجرد كليوبطره من الوطنية المصرية بالمعنى الممكن والمتاح للوطنية في ذلك العصر القديم أ ي منذ أكثر من ألفي سنة ،وليس بالمعنى العصري للوطنية كما نعرفه الآن ..هذا الرأي الذي يجرد كليوبطره من الوطنية بمعناها القديم هو رأي فيه ظلم كبير لشخصية كليوبطره وتاريخها وهو رأى لا يتفق أبداً مع أي دراسة متأنية ومنصفة لمواقفها وحياتها العاصفة .فلو أن كليوبطره كانت تسعى إلى تحقيق مصالحها الخاصة فقط وكان هدفها الوحيد هو أن تبقي ملكة على عرش مصر ،دون أن تهتم بمصر نفسها ،ودون أن تحرص على أن تجعل مصر بلداً قوياً مستقلاً مرفوع الرأس وغير تابع لأحد ، فإن كليوبطره كان لديها وسائل عديدة لتحقيق أهدافها الشخصية الخاصة ولو أنها كان لديها الاستعداد لإهمال أمر مصر نفسها لما وصلت إلى ما وصلت إليه من هزيمة ،ولا انتهت حياتها إلى المأساة التي انتهت إليها.

على أن هناك أسئلة أخرى عديدة حول كليوبطره غير ذلك السؤال حول "وطنيتها "وإحساسها العميق بحب مصر والانتماء إليها ودفاعها عنها وإيمانها – في قلبها –بأن مصر هي بلدها وليس لها بلد آخر سواه ، تحبه وتهواه .وفي مقدمة الأسئلة جميعا سؤال حول شخصية كليوبطره كامرأة .. ما الذي كانت تملكه من سحر وصفات خاصة بها جعلت منها شخصية تاريخية جذابة لا يستطيع التاريخ أن يهملها أو يمر عليها مرور الكرام ،أي مروراً سريعا دون مبالاة بها أو التفات إليها وانتباه شديد لها؟!.

سوف نجد وصفا دقيقا لكليوبطره يلخص لنا الكثير مما قيل عنها في كتب التاريخ المختلفة وذلك في كتاب "كليوبطره – سيرتها وحكم التاريخ عليها" للمؤرخ الكبير الدكتور زكي على أحد الباحثين والأساتذة البارزين في التاريخ الروماني حيث يقول "صفحه ١٠ وما بعدها :" كليوبطره هي امرأة في مقتبل العمر أوتيت قسطاً لا بأس به من الجمال على الرغم من أنفها الطويل المحدودب وفمها الكبير وفوق ذلك فإنها كانت على قدر من الذكاء والجاذبية وحسن استغلال الظروف المتاحة أمامها . وكان المعاصرون لكليوبطره يعرفون جيداً أن قوة جاذبيتها هي في مواهبها العقلية وطباعها ودماثة أخلاقها .وفي حين أن أحدا من السابقين عليها من ملوك البطالمة وملكاتهم في مصر لم يستطع أن يقنع نفسه بضرورة تعلم اللغة المصرية ، فإن كليوبطره أوتيت موهبة مرموقة في هذا الشأن فتعلمت الكثير من اللغات الأجنبية وبالإضافة إلى اللغة المصرية واللغة اليونانية فقد كانت تعرف لغة الإثيوبيين "الأحباش" ولغة العرب فضلاً عن لغات شعوب آسيا الغربية مثل السريانية والآرامية. واستطاعت بفضل هذه المقدرة اللغوية أن تستغني عن المترجمين، وأن تجرى أحاديثها المختلفة بكل يسر وسهولة، فكانت تنتقل من لغة إلى أخرى في براعة تستهوي الأسماع والأبصار

وتستحق إعجاب الجميع ، وفوق ذلك كله فإن نبرات صوتها كانت أشبه بصوت الآلة الموسيقية فقد كان لصوتها رنين مختلف النغمات وبهذه الصفات جميعا كانت كليوبطره شخصية جذابة حاضرة الذهن تألق في شخصها ما بقي لتاج البطالمة ورثة الإسكندر في مصر من روعة وجلال.

تلك هي العناصر الأساسية في شخصية كليوبطره كما رسمها المؤرخ الكبير الدكتور زكي علي ، فكليوبطره امرأة ناضجة فيها أنوثة عالية وفيها ذكاء نادر ولها ثقافة رفيعة وكانت إلى جانب ذلك كله مشهورة بأنها أكثر نساء عصرها أناقة وذوقا رقيقا وراقيا في حديثها وأزيائها وعطورها.

يبقى السؤال الأخير والهام حول شخصية كليوبطره وهو:لماذا ربطت سياستها وحياتها الشخصية بأباطرة روما وقادتها وبخاصة "انطونيو"؟ولماذا لم تحاول أن تستقل بنفسها وبعرشها عن دوامة الصراعات الرومانية الرهيبة التي كانت دائرة في عصرها مما كان من المحتمل أن ينجو بها من نهايتها المأسوية المفجعة ؟!.

الجواب عن هذا السؤال واضح من واقع تاريخ تلك الفترة فقد كانت الإمبراطورية الرومانية مثل أمريكا الآن هي القوة العظمى الوحيدة في العالم كله في ذلك الزمان ، وكانت الدول المعروفة في ذلك الوقت وخاصة دول البحر الأبيض المتوسط ومنها مصر لا بد أن تخضع بصورة من الصور لسلطان الإمبراطورية الرومانية وكان أمام مصر طريقان لا ثالث لهما في عصر كليوبطره : الطريق الأول هو أن تكون مجرد ولاية تابعة يتولى أمرها حاكم ترسله روما إليها ، وإما أن تكون دولة مستقلة لها عرشها الخاص بها وهذا الاستقلال المصري الكامل لم يكن بالإمكان أن يتحقق إلا إذا وافق الرومان عليه

واحترموه وسمحوا به ، وكان من الطبيعي أمـام امـرأة لهـا ذكـاء كليوبطره وثقافتها ومعرفتها الدقيقة بأسرار اللعبة السياسية في عصرها أن تختار الطريق الثاني للمحافظة على استقلال مصر وهو طريق توثيق علاقتها بقادة روما الأساسيين . وقد انتهى كفاح كليوبطره من أجل التحالف السياسي مع زعماء روما إلى التحالف مع "أنطونيـو" فقـد ظنت كليوبطره أن أنطونيو هو أقوى رجل في الإمبراطورية الرومانيـة ،وكانت كل الشواهد تدل على صحة هذا الرأي فأنطونيو هو القائد العسكري الذي لم ينهزم في كل المعارك فإن أصابته هزيمة اسـتطاع بعبقريته العسكرية أن ينقلب بها إلى نصر لا شك فيه ، وكان أنطونيو إلى جانب ذلك سياسياً بارعا حسن التصرف في الأمور بصورة تضمن له أن يكون في مركز القوة دائماً.

ولكن المشكلة حدثت عندما وقع انطونيو في حب كليـوبطره وبادلته كليوبطره حبا بحب وبذلك تحول التحالف السياسي العسكري بينهما إلى تحالف عاطفي اشتعلت فيه نيران القلوب وشهوات الأجساد وهنا انقلبت الموازين وبدأ حظ أنطونيو وكليوبطره يميل إلى الغـروب فهل كان اجتماع الحب والسياسة في حياة كليوبطره وحياة أنطونيـو المجنون بها هو سبب الهزيمة التي أصابتهما ومصدراً للمأساة التي حلت بهما في النهاية ؟!.

نعم هذا ما يراه معظم المؤرخين وهو مـا رآه شيكسـبير في مسرحيته الرائعة وهو ما عبر عنه نابليون عندما رأى استحالة الجمـع بين الحب والسياسة الذي يشبه الجمع بين النار والماء وهما لا يجتمعان لأن كلا منهما يقضي على الآخر. وتفاصيل المأساة التي وقعت فيهـا كليوبطره مع أنطونيو كما سردها التاريخ وكمـا رآهـا وفـسرها شيكسبير في الفصل القادم .

الاختيار بين العار والانتحار

الشخصيات الرئيسية في هذا الفصل هي:

١- الملك الزمار ــ والد كليوبطره .

٢-كليوبطره .

٣- أنطونيو .

٤- اكتافيوس .



يتصور البعض أن " الدعاية السياسية " هي وليدة العصور الحديثة فقط ، وان هذه الدعاية وما يتصل بها من حروب إعلامية ونفسية قد ازدهرت مع ظهور وسائل الإعلام المتقدمة مثل الصحافة والإذاعة والتليفزيون والسينما والإنترنت وغير ذلك.

ولكن الحقيقة أن الدعاية السياسية كانت معروفة بنفس القوة منذ أقدم عصور التاريخ والفارق بين ما كان يجري في الماضي وما يجري الآن هو فارق في الوسائل فقط ، فالدعاية الحديثة تعتمد على وسائل لم تكن معروفة إلا في القرن العشرين وما بعده باستثناء الصحافة التي يعود تاريخها إلى سنة ١٥٩٤ عندما ظهرت أول مجله في أوربا في مدينة "كولون" الألمانية وبعدها توالي ظهور الصحف وتقدمها حتى وصلت الصحافة إلى ما هي عليه الآن من ازدهار كبير وباستثناء الصحافة فإن كل وسائل الدعاية والإعلام الأخرى قد ظهرت في القرن العشرين وبعضها كانت له مقدمات صغيرة وبشائر محدودة في أواخر القرن التاسع عشر.

ورغم اختلاف الوسائل فإن الدعاية السياسية كانت دائماً معروفة على مر التاريخ الإنساني وكانت الوسائل القديمة في هذا المجال تعتمد على ما يكتبه الشعراء والمؤرخون على وجه الخصوص عندما

يكونون معاصرون للأحداث التي يكتبون عنها فإنهم في الغالب ينحازون للمنتصر ويلقون اللوم على المهزوم ويتوسعون في سرد عيوبه وأخطائه بالحق والباطل ،أما المؤرخون المعتدلون المنصفون فهم ينظرون بعد جيل أو أجيال من المعارك التي يتحدثون عنها بحيث لا يكونون موضعاً للضغط عليهم من أي قوة خارج ضمائرهم العلمية وفي هذه الحالة وحدها يكون السعي إلى معرفة الحقيقة الخالصة هو الهدف وذلك ما لم يكن المؤرخ نفسه متعصباً لرأي من الآراء أو شخص من الأشخاص فمثل هذا التعصب يؤدي إلى إضعاف القدرة على الكتابة التاريخية العادلة والمنصفة والنزيهة.

وشخصية كليوبطره "٦٩-٣٠ قبل الميلاد " التي هي موضوع حديثنا في هذا الفصل كانت من أكثر الشخصيات التي تعرضت لدعاية سياسية قوية منظمة ضدها لفترة طويلة من الزمان ولا تزال آثار هذه الدعاية السياسية المعادية لها باقية إلى الآن ، فكثيراً ما يردد الذين يتحدثون عنها القول بأنها كانت مجرد "غانية عاهرة " حاولت أن تتكسب ببيع جسدها لعدد من القادة الرومانيين الأقوياء في عصرها وذلك مقابل أن تحصل على ما وصلت إليه من سلطان ونفوذ سياسي . وأعداء كليوبطره الكثيرون يرددون القول بأنها كانت امرأة بلا قلب وأنها لم تعرف شيئاً أسمه الحب الحقيقي على الإطلاق بل كانت تعطي جسدها للرجال مقابل ثمن معلوم ، مثلها في ذلك مثل كل من يشبهها من النساء الرخيصات.

تلك هي الصورة التي ظلت تطارد أسم كليوبطره لفترة طويلة والحقيقة أن هذه الصورة إنما كانت ثمرة للدعاية السياسية ضد هذه الشخصية التاريخية المهمة . فقد شهد عصر كليوبطره صراعا رهيبا بين قائدين من عظماء القادة الرومان هما "أنطونيو "و"أوكتافيوس" وكان

التنافس بين هذين القائدين على القمة لا يسمح إلا بالقضاء على أحدهما ليبقى الآخر ويشعر أن يده مطلقة في سلطانه وزعامته وإدارته للأمور ومثل هذا الصراع يكون في العادة خالياً من أي حل وسط وخاصة في ذلك العصر القديم الذي كانت فيه سلطة القادة والزعماء مطلقة ،و لم يكن أمام كليوبطره في هذا الصراع الضخم إلا أن تقف إلى جانب "أنطونيو" فأنطونيو هو زوجها وهو القائد الروماني الذي يحكم بلاد الشرق بما في ذلك مصر ، فحتى لو أرادت أن تقف إلى جانب "أكتافيوس" فإنه لن يقبل ذلك ،لأن خطة "أكتافيوس " كانت قائمة على تحويل مصر إلى ولاية تابعة لروما بينما كان "أنطونيو " يقبل استقلال مصر ويعترف بأن "كليوبطره" هي الملكة الشرعية لها.

وفي هذه المعركة الفاصلة من معارك التاريخ انتصر "اكتافيوس" بعد تدبير طويل وعناء شديد على منافسه "أنطونيو " وبذلك أصبحت "كليوبطره " في المعسكر المهزوم ويا ويل المهزوم في مثل هذه المعارك الحاسمة ،فإن الذي يتحدث بعد الهزيمة هو المنتصر وحده أما صوت المهزوم فلا يسمعه أحد كما أن المهزوم لا يجد من يدافع عنه أو يلتمس له الأعذار أو يرد عنه الاتهامات التي تنهال عليه مثل السهام المسمومة .

وفي كل المعارك يدفع المهزوم ثمناً غالياً وإذا كانت للهزيمة دائماً مثل هذا الثمن في كل أمور الحياة فإن الهزيمة في ميدان الحرب والسياسة تكون هي الأقسى والأشد،لأن المنتصرين عسكرياً وسياسياً ينبون مجدهم وتدعيم سلطانهم ونفوذهم على تجسيد أخطاء المهزومين والتأكيد المستمر على هذه الأخطاء والتوسع في الحديث عنها ولو كان في ذلك ما يخالف الواقع ويبتعد عنه بصورة كبيرة.

وهذا ما فعله " أكتافيوس" بعد انتصاره العسكري الحاسم على "أنطونيو " و"كليوبطره" فقد جعل "اكتافيوس " من انتصاره انتصارا لبلاده وقام بالتركيز على "كليوبطره" واقامها بأنها كانت تضمر الشر لروما وتسعى لحكمها والسيطرة عليها وتحويلها إلى ولاية تابعة للإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الوقت ، وبذلك استطاع "أكتافيوس" أن يثير الرومان جميعاً ضد "كليوبطره" واستطاع بعد أن أصبح السيد الوحيد للإمبراطورية الرومانية دون أي منافس له أن يدفع بأجهزة الإعلام في عصره إلى مهاجمة "كليوبطره " وتشويه صورتها وفضحها بكل الوسائل والأساليب ،وكانت أهم أجهزة الإعلام في ذلك العصر تتمثل في الشعراء والمؤرخين فانهال عليها الجميع يمزقونها ويكشفون عن جوانب النقص والشر التي يلصقونها بها حتى لو كانت بعيدة عن الحقيقة .

فقد كانت كليوبطره في نظر الجميع عدوة لروما والرومانيين ساعية بالجنس والأساليب الرخيصة لتدمير الإمبراطورية الرومانية والسيطرة الكاملة عليها. والنصوص الكثيرة في الأدب الروماني القديم وحتى عصر النهضة كلها كانت تردد الحديث عن كليوبطره من خلال الصورة السيئة التي رسمها لها "أكتافيوس" فالشاعر الروماني القديم هوراس "٦٥ –٨ قبل الميلاد" يقول عنها:" أن كليوبطره ليست بشراً سوياً إنما هي وحش كاسر بعثت به الأقدار لتعيث في الأرض فساداً وتنشر الذعر والرعب في أرجائها :"أما أديب إيطاليا الأكبر في عصر النهضة وهو "دانتي" " ١٢٦٥–١٣٢١" فقد كان يرى أن كليوبطره ما هي إلا امرأة منحلة محبة للترف وقد وضعها في كتابه الشهير " الكوميديا الإلهية"في الدائرة الثانية من الجحيم مع الزانيات الآثمات وهناك أديب إيطالي شهير آخر هو "بوكاشيو" (١٣١٣–١٣٧٥"فإنه يتحدث عن "أنطونيو" فيقول:"إنه كان قاسياً طموحاً تدهورت أحواله

إلى حد السقوط في هاوية العار المهين وكل ذلك قد وقع له بسبب حبه الطاغي لكليوبطره وهي : "عاهرة استحقت ما وصلت إليه من نهاية " .وهذه النماذج من الدعاية الرومانية المعادية لكليوبطره نجدها هي وكثيراً غيرها ،في كتاب فيه بحث تفصيلي ممتاز عن كليوبطره في الأدب والتاريخ هو كتاب "كليوبطره وانطونيو" للدكتور احمد عتمان.

وقد استمرت الدعاية السياسية المعادية لكليوبطره أكثر من ألف وخمسمائة سنه يتوارث الناس ما فيها من أفكار جيلاً بعد جيل وكل هذه الدعاية السياسية كان مصدرها روما التي زرع فيها اكتافيوس — بعد أن أنفرد بالسلطة — بذرة الكراهية لكليوبطره والاحتقار لها والنظر إليها على أنها عدوة شرسة كان هدفها تدمير روما وزعمائها وأهلها جميعاً وأن وسائلها إلى ذلك كله كانت وسائل امرأة رخيصة .

والصورة التي رسمتها الدعاية السياسية المعادية لكليوبطره لا يوجد في التاريخ ما يجعل منها صورة صادقة ومنصفة وكل ما في هذه الصورة هو تعبير عن قسوة الدعاية السياسية وخاصة ضد الطرف المهزوم الذي حرمته الهزيمة من الدفاع عن نفسه ، على أن الدعاية السياسية في نهاية الأمر لا تستطيع أن تسيطر على التاريخ إلى الأبد فلابد من لحظة تتحقق فيها صحوة تؤدي إلى إعادة النظر فيما يتردد من أقوال ، وهذا ما حدث بالنسبة لكليوبطره فقد ظهر مؤرخون ليس لهم مصلحة في تشويه صورتها. كما ظهر شعراء كبار – وفي مقدمتهم شيكسبير – نظروا إلى شخصية كليوبطره نظرة إنسانية ودرسوا هذه الشخصية في عمق فوجدوا أن الصورة التي رسمتها الدعاية السياسية ضدها كانت ظلماً لها وافتراء عليها فقد أخذت الصورة القديمة تتغير

وإن كانت لا تزال تظهر بين الحين والحين بالأسلوب القديم ولكنها لم تعد الصورة الوحيدة لهذه الشخصية التاريخية فهناك إلى جانبها صورة أخرى هي أقرب إلى الحق والصدق وحقائق التاريخ وهي صورة تختلف تماماً عن الصورة التي رسمها لها أعداؤها الرومان.

وأهم ما في هذه الصورة الجديدة هو اختفاء الفكرة التي كانت تقول إن "كليوبطره" كانت غانية وبائعة هوى رخيصة وحول هذا المعنى يكتب المؤرخ الكبير الدكتور زكي على وهو يرد على هذه التهمة في كتابه "كليوبطره" وسيرتها وحكم التاريخ عليها " صفحة ١٤ فيقول :"إن التهمة التي ألصقت بكليوبطره وهي أنها كانت امرأة ترغب في إشباع شهوتها ليس من العسير الرد عليها وتفنيد ذلك القول الذي كثيراً ما أطلقه بعض المؤرخين عليها من أنها كانت امرأة عاهرة، فليس هناك من الحقائق ما يبرر هذه التهمة في حياتها الخاصة إذ إنها أخلصت في علاقتها بكل من القائدين الرومانيين يوليوس قيصر وأنطونيو وكانت تأمل في أن تصبح زوجة للأول وأصبحت بالفعل زوجة للثاني"

ومن المعروف بالإضافة إلى ما قاله الدكتور زكي على أن كليوبطره كان لها ابن من قيصر هو "قيصرون"،وأن قيصر أعترف بهذا الابن تمهيداً لما كان ينويه من إعلان زواجه الرسمي من كليوبطره وهو الزواج الذي لم يتم بسبب اغتيال قيصر و لم يشك أحد حتى من أعداء كليوبطره في أن "قيصرون" هو ابن يوليوس قيصر كما لا يوجد من يشككون في أن يوليوس قيصر كان ينوي الزواج من كليوبطره لو امتد به العمر قليلاً .أما انطونيو فقد كانت العلاقة بينه وبين كليوبطره علاقة زواج علني معروف للجميع ،وقد أنجبا بعض الأبناء من هذا الزواج و لم تكن العلاقة بينهما علاقة سرية تقوم على اللهو والعبث

والتسلية المؤقتة ، وقد ازدادت هذه العلاقة قوة واشتهرت على مر التاريخ لأنها كانت علاقة زواج قائم على الحب القوي المشتعل وكان هذا الاشتعال العاطفي مشتركا بين الحبيبين وإن كان من الثابت عند الكثيرين ممن بحثوا في أمر هذا "الحب التاريخي" أن قلب أنطونيو كان أكثر اشتعالاً وانشغالاً بهذا الحب من قلب كليوبطره. المهم في ذلك كله أن هناك تهمة ألصقتها الدعاية السياسية المعادية بشخصية كليوبطره وهي أنها كانت مجرد امرأة شهوانية منحرفة تبيع جسدها لكل من يشتريه من الأقوياء ويدفع فيه الثمن المناسب.

فقد سقطت هذه التهمة بمرور الزمن وبعد ضعف الدعاية السياسية وانتهاء أسبابها الأولى ورغم أن هذا الاتهام ظل ملتصقا بشخصية كليوبطره لمدة تزيد على ألف وخمسمائة سنة فقد ، أبى التاريخ أن يبتلع هذا الاتهام أو يهضمه فليس مما يقبل العقل أو يحتمله التاريخ أن تكون كليوبطره رخيصة إلى هذا الحد ثم تبقى رغم ذلك نجمة متألقة يتنافس الأدباء والشعراء والمؤرخون في الحديث عنها والبحث عن أصدق تفسير لشخصيتها . وقد أنقسم الجميع في شأنها إلى حزبين: حزب قوي يدافع عنها ويؤيدها ويرى فيها فضائل كثيرة مثل الشجاعة واتساع الثقافة وقوة الحيلة والقوة القادرة على خوض التجارب السياسية الصعبة التي قد لا يحتملها أقوى الرجال ،أما الحزب الثاني فهو حزب أعداء كليوبطره وقد أخذ هذا الحزب المعادي يضعف بمرور الزمن لأن الدعاية السياسية ضدها لم يعد لها من يغذيها ويشعل نارها بعد أن انتهت الإمبراطورية الرومانية ولم يعد لها وجود إلا على صفحات التاريخ.

على أننا إذا تركنا الأدلة التاريخية التي تقدم البراءة الكاملة لكليوبطره مما وصفها به أعداؤها السياسيون المنتصرون عليها والذين

كانت لهم كل المصلحة في تشويه سمعتها إلى أبعد الحدود ..إذا تركنا تلك الأدلة التاريخية جانباً فإن هناك ــ ولا شك ــ أدلة عقلية قوية جدا لصالح كليوبطره ولا يصعب على العقل السليم أن يهتدي إلى مثل هذه الأدلة .فكليوبطره تنتمي إلى أسرة ملكية عريقة هي أسرة البطالمة وهي الأسرة اليونانية التي أسسها قائد عسكري مهم من قادة الاسكندر هو بطليموس الأول وقد حكمت هذه الأسرة مصر منذ سنة ٣٢٣ قبل الميلاد وحتى انتحار كليوبطره سنة ٣٠ قبل الميلاد .ولا شك أن كليوبطره كانت تدرك معنى انتمائها إلى هذه الأسرة ذات الشأن الرفيع ، ولذلك فإنه لم يكن عندها أي إحساس بالنقص من ناحية أصلها وعائلتها ، فهي لم تكن دخيلة على الطبقة الحاكمة في مصر بحيث تسعى إلى الانتساب لهذه الطبقة بأساليب رخيصة ملتوية أخرى ، فقد كان لديها من الصفات ما سعت إلى اكتسابه بجهدها مثل الثقافة الواسعة والمعرفة الدقيقة بعدد من أهم لغات العالم في عصرها ولو كانت امرأة رخيصة كما قال عنها أعداؤها لما كانت بحاجة إلى ثقافة عالية أو إتقان لغات متعددة ، إذ أن المرأة الرخيصة لا تستخدم الثقافة واللغات وغيرها من فضائل العقل وإنما تستخدم جسدها فقط ولا تحتاج إلى إجهاد نفسها في شيء سواه .أما الدليل العقلي الحاسم لصالح كليوبطره فهو أن أثنين من عظماء قادة الرومان وقادة العالم في عصرها قد مالا إليها وأحباها وهما قيصر وأنطونيو وهذان القائدان الكبيران قد هزا العالم وكانا معروفين بالنبوغ في المجالات السياسية والعسكرية وكانا معروفين أيضاً بالبلاغة والقدرة على التأثير في الناس من خلال الخطب القوية المثيرة ، فهل كان هذان القائدان الكبيران من التفاهة وقلة العقل والسذاجة والسطحية بحيث يقعان في حب امرأة رخيصة كما قيل عن كليوبطره؟!.

إن حب هذين القائدين لكليوبطره كان حباً جدياً وعميقاً ولم يكن حبا عابرا هدفه اللهو والعبث .وهذا الحب هو دليل قوي وبرهان ساطع على أن كليوبطره كانت بريئة من الاتهام القاسي لها بأنها امرأة رخيصة وعاهرة .إذ لو كانت كذلك لما "ملأت عين " القائدين الرومانيين الكبيرين بحيث يعتزم أولهما وهو قيصر أن يتزوجها لولا اغتياله ، أما الثاني فهو انطونيو فيتزوجها بالفعل ويموت منتحراً على صدرها بعد هزيمته أمام غريمه ومنافسه وصديقه القديم "اكتافيوس".

بعد أن تسقط التهمة الأساسية التي ألصقتها الدعاية السياسية المعادية بشخصية كليوبطره وهي تهمة الدعارة تعود كليوبطره إلى مسرح التاريخ كشخصية إنسانية وسياسية طبيعية لها جوانبها الإيجابية وجوانبها السلبية ولكنها بعد تحريرها من اتهامات أعدائها لا تكون أبدا شخصية ساقطة أو شاذة أو مجرد امرأة دخلت التاريخ عن طريق جسدها ، وهنا نضع أيدينا على ثلاثة عناصر أساسية تحكمت في شخصية كليوبطره ومصيرها وهذه الجوانب نستطيع استخلاصها وتلخيصها من بين آلاف الصفحات المكتوبة عن هذه الشخصية المثيرة من المتعاطفين معها والكارهين لها على السواء ، وأول هذه العناصر أنها كانت شخصية سياسية من الدرجة الأولى أي أن السياسة بالنسبة لها لم تكن موضوعا ثانويا بل كانت موضوعاً أساسيا أخذت تفكر فيه منذ صباها الأول ، فقد كانت تريد أن تحكم مصر ، فهي وريثة شرعية لوالدها ملك مصر بطليموس الثاني عشر والذي كان يسمى باسم "أوليتيس" ومعناها "الزمار" وكان هذا الملك ضعيفاً لاهياً مسرفا وكان تابعا ذليلا لقادة الدولة العظمى الوحيدة في ذلك الوقت وهي الإمبراطورية الرومانية كما كان عديم الرحمة بالنسبة لرعاياه المصريين، فكان مكروهاً منهم لقسوته عليهم وتحميلهم بغير ما يطيقونه من الضرائب التي أحالت حياتهم إلى جحيم ودفعتهم إلى

الثورة عليه في مناسبات عديدة. على أن الملك المشهور باسم"الزمار" قد كتب وصيته قبل موته وفيها يختار كبرى بناته"كليوبطره " لتكون خليفته على عرش مصر على أن تشترك في الحكم مع أخيها الصغير بطليموس الثالث عشر وكانت كليوبطره عند وفاة والدها في الثامنة عشر ،أما أخوها فكان في العاشرة.

وعندما تولت كليوبطره الحكم مع أخيها بدأت تخوض لعبة السياسة بما يدل على أنها كانت صاحبة " فطرة سياسية " قوية جدا ،وفي السياسة العملية على مر التاريخ تتوارى المبادئ الأخلاقية إلى الصفوف الخلفية فالمهم عند أصحاب السياسة العملية هو النجاح وتحقيق الأهداف.أما كيف يتم ذلك فكل الوسائل ممكنة ومقبولة المهم أن تؤدي دورها المطلوب منها ، وهذا ما فعلته كليوبطره فقد ركزت على هدف أساسي هو أن تنفرد بالسلطة دون أن يكون هناك منافس لها حتى لو كان هذا المنافس هو أخاها ،خاصة أن رجال القصر الملكي في الإسكندرية كانوا يلتفون حول أخيها ويحرضونه على الخلاص من أخته ولو بقتلها وكان رجال القصر يهدفون بذلك إلى أن تكون لهم الكلمة العليا في البلاد مع ملك صغير السن يمكن تحويله إلى لعبة في أيديهم.أما "كليوبطره" فقد بدت لرجال القصر أذكى وأقوى وأعلى طموحاً من أن تكون لعبة في يد أحد ، ولذلك قرر هؤلاء الرجال المتآمرون أن يتخلصوا من كليوبطره ويضعوا أخاها وحده فوق العرش .وتلك كانت أول وأخطر معركة في بداية حياة "كليوبطره" وكانت قد وصلت إلى العشرين من عمرها وهي تخوض هذه المعركة وكان مصيرها في هذه المعركة يحدد مستقبلها فإما أن تنتصر وتصبح ملكة وصاحبة الكلمة الأولى والأخيرة وإما أن تنهزم فتفقد كل شيء حتى حياتها لأن رأسها كان مطلوباً بأوامر من أخيها الغشيم الضعيف الألعوبة ، وتصدت كليوبطره لمعركة الإنفراد بالسلطة والقضاء على

أعدائها ومنافسيها وكان عليها أن تخوض حرباً وتقود جيشاً وتستعين بالمكر والدهاء إلى جانب القوة العسكرية وقد خاضت المعركة وتعرضت للمخاطر واندفعت نحو مغامرات عسيرة كادت تعصف بها وتقضي عليها ولكنها نجت ونجحت وحققت ما كانت تهدف إليه من الانفراد بعرش مصر وانتقمت انتقاما قاسيا من أعدائها فأطاحت برؤوسهم جميعاً بمن فيهم أخوها الصغير المتآمر عليها: بطليموس الثالث عشر.

وهكذا انتصرت كليوبطره بذكائها وقوة حيلتها وشجاعتها في أكبر معركة يخوضها أي سياسي في التاريخ وهي معركة الانفراد بالسلطة والوصول إلى قمتها دون أن يكون فوقها شريك أو منافس. وقد استخدمت كليوبطره جميع الوسائل في هذه المعركة من الحرب إلى التآمر إلى الرشوة وإطلاق الوعود لكسب الأنصار وعندما انتصرت لم ترحم أحدا ممن عادوها أو ممن كانت تشك فيهم أو لا تضمن ولاءهم لها ،وأثبتت بذلك أنها مولودة وفي فمها "ملعقة" من السياسة ومن المؤكد أنها كانت صاحبة فطرة سياسية قوية وأصيلة.

وعندما نقارنها في معركة الوصول إلى السلطة بأي سياسي آخر فإنها لا تكون أقل قدراً من أعظم دهاة السياسة في التاريخ.

وبعد أن استقر لها حكم مصر وأصبحت ملكة لا ينافسها أحد واجهتها المشكلة الثانية العسيرة ، فقد كانت مصر في مهب الريح وكان هناك الدولة العظمى الوحيدة في هذا العصر وهي الإمبراطورية الرومانية وكانت عين هذه الإمبراطورية دائماً على مصر فكيف تحمي كليوبطره مصر من أن تفقد استقلالها وتبتلعها روما وترسل "جنرالا " من جنرالاتها "لحكمها كولاية تابعة وليس كدولة مستقلة لها عرشها وملوكها الأحرار ؟ كانت هذه المشكلة من أصعب المشاكل وأعصاها

أمام كليوبطره ولكن كليوبطره نجحت خلال فترة حكمها التي تقترب من عشرين سنة في المحافظة على استقلال مصر وضمان صداقة روما وحمايتها للعرش المصري المستقل وقد بذلت في ذلك جهداً خارقاً واستخدمت علاقاتها الشخصية الحميمة بقائدين من أعظم قادة روما في ذلك العصر وهما القيصر وأنطونيو فأحباها وقدما إليها كل ما تحتاج إليه من دعم وعون وتأييد.

وهنا يأتي ذلك العنصر الثالث الذي وضع نهاية مأسوية لكل جهود كليوبطره وما حققته من انتصارات وهذا العنصر هو "الحظ" وهو أمر لا يتحكم الإنسان فيه ولا تجدي معه أي جهود بشرية حتى لو كانت هذه الجهود خارقة.

فقد تعرض قيصر للاغتيال سنه ٤٤ قبل الميلاد وبذلك فقدت كليوبطره نصيرا جبارا لها كان على عزم صادق في الزواج منها وتحقيق كل آمالها وطموحاتها السياسية في الإنفراد بحكم مصر بحيث يصبح ميراثاً لأولادها من بعدها وبعد اغتيال القيصر ارتبطت بقائد عظيم آخر وهو انطونيو الذي أحبها حبا أصبح مضرب الأمثال في تاريخ العواطف الإنسانية ، وقد تزوجها أنطونيو وأعطاها عشر سنوات من الاستقرار فوق عرش مصر ولكن السياسة مثل الحياة متقلبة وسوء الحظ يهب عليها مثل العاصفة بين الحين والحين وفوق القمة ليس هناك حلول وسط فإما العرش وإما المشنقة أو القبر أو ضربة الخنجر في الصدر أو لدغة الثعبان القاتل . فقد دخل انطونيو معركة كبرى ضد اكتافيوس ، وكان اكتافيوس أكثر حيلة ودهاء وكان سياسيا فقط لا تعنيه أمور الحب ولا أي أمور أخرى غير السلطة والنفوذ والسيطرة ، وكان رجلاً عليلاً مريضاً ولكنه كان بعيد النظر شديد التركيز على أهدافه فنجح وانتصر على أنطونيو وكليوبطره وكان على العاشقين أن

يختارا : إما عار الهزيمة وما يتبعها من هـــوان ومذلـــة أو الانتحـــار والخلاص من قبضة العدو فاختارا الانتحار بدلاً من العار أمـــا بطـــل المأساة كلها فهو "سوء الحظ" وكان الاختيار بين العـــار والانتحـــار يحتاج إلى شجاعة وكانت كليوبطره في منتهى الشجاعة.

❖

فن الحب
على مذهب كليوبطره

الشخصيات الرئيسية في هذا الفصل هي:

كليوبطره ــ أنطونيو ــ اكتافيوس شرميان وصيفة كليوبطره .

كانت كليوبطره ولا تزال لغزاً من أكبر ألغاز التاريخ الإنساني والذين حاولوا أن يفهموها اختلفوا فيها واحتاروا في أمرها فالبعض يقدسها ويرى أنها انتحرت دفاعا عن عزة نفسها وكرامة مملكتها المصرية والبعض الآخر يلعنها ويرى أنها كانت امرأة لعوبا تحب اصطياد الرجال الأقوياء لتجني من وراء ذلك متعة شخصية ومكاسب سياسية . ولغز كليوبطره فيه جاذبية شديدة للباحثين والمؤرخين والفنانين وكثير من هؤلاء كانوا يغامرون من أجل أن يفهموا حقيقة هذا اللغز الغامض ، ولذلك فإن تاريخ الأدب والفن يسجل كما يقول الدكتور أحمد عتمان في دراسته الرائعة عن "كليوبطره وانطونيو" انه خلال الستمائة عام الأخيرة ظهر عن كليوبطره سبع وسبعون مسرحية وأربعون أوبرا وخمسة عروض من عروض الباليه ولا أظن أن هناك شخصية أخرى من شخصيات التاريخ – باستثناء أنبياء الله – قد حظيت بمثل هذا الاهتمام الذي حظيت به كليوبطره ولا تزال تحظى به حتى الآن وكأن كليوبطره لم ترحل عن الدنيا إلا بالأمس القريب ، برغم أنها قد رحلت منذ أكثر من ألفي سنه وانتحرت وهي في التاسعة والثلاثين من عمرها.

وإذا أردنا في ختام رحلتنا مع كليوبطره أن نقرأ تلخيصا لحياتها ومغامراتها ومأساتها في صورة موضوعية موجزة خالية من الهوى

والغرض فلن نجد أفضل مما كتبته "الموسوعة العربية الميسرة " عنها حيث تقول صفحة ١٤٧٧:

"كانت كليوبطره" ٦٩-٣٠" قبل الميلاد سيدة شجاعة ، واسعة الثقافة والأطماع ، قوية الإرادة تجمع إلى الجمال رقة أخاذة وعذوبة مغرية في حديثها وقدرة فائقة على استهواء من تريد اكتسابه إلى صفها . عندما تولت حكم مصر كانت روما أقوى دول العالم في حين كانت مصر في الحضيض وكادت مصر منذ فترة قصيرة أن تصبح ولاية رومانية فاعتزمت كليوبطره استخدام مواهبها لتحقيق آمالها في بناء إمبراطورية واسعة يكون مركزها مصر وعاصمتها الإسكندرية . أوقعت أولا يوليوس قيصر في شباكها وسيطرت عليه إلى حد يبدو معه أنهما اتفقا على إعلان زواجهما بعد المناداة به ملكا على روما وعندما اغتال الجمهوريون الرومان "قيصر" أجهزوا أيضاً على آمال كليوبطره ، وبعد بضعة سنين انتعشت آمالها ثانية عندما استمالت "أنطونيو" الذي تزوجها سنة ٣٧ قبل الميلاد ،وبعد ذلك دفعته إلى محاربة أكتافيوس لتسيطر هي وأنطونيو على العالم الروماني كله .لكن هزيمتها في معركة "اكتيوم" البحرية سنة ٣١ قبل الميلاد قضت نهائياً على كل آمالها وعندما اقترب " اكتافيوس " من مصر ،وأدركت استحالة الدفاع عن مملكتها قررت أن تضحي بنفسها في سبيل أبنائها فأرسلت إلى "اكتافيوس" تاجها وصولجانها، والتمست منه تتويج أحد أبنائها مكانها ، وعندما أيقنت أن "اكتافيوس" المنتصر لن يلبي رغبتها ، وأنه سوف ينقلها إلى روما ليعرضها في مهرجان انتصاره آثرت الانتحار وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أنها لم تكن غادرة ولا غانية مبتذلة ، وتبعاً لذلك بطلت مزاعم القدماء الذين لطخوا سمعتها انتقاما منها وتقرباً لاكتافيوس الذي أصبح اسمه "الإمبراطور أغسطس" بعد انتصاره على كليوبطره وأنطونيو وإنفراده بالسلطة ، وفيما كتبه كبار الشعراء في

عصر "أغسطس" تتجاوب أصداء المشاعر التي أهاجتها هزيمة كليوبطره في صدور الرومان مع مشاعر الشماتة والفرح لخلاصهم من الفزع الذي أثارته كليوبطره في نفوسهم ، وإذا كانت آمال كليوبطره قد خابت فإن سيرة حياتها قد استرعت انتباه أجيال من الكتاب والشعراء فاتخذوا منها مادة لقصص كثيرة لعل أشهرها ما كتبه عنها "شيكسبير".

تلك هي خلاصة عادلة وعاقلة وغير متحيزة لحياة كليوبطره وكفاحها ومأساتها ، ومنها ننتقل إلى الصورة التي رسمها شيكسبير لكليوبطره في مسرحيته البديعة التي تحمل أسم "أنطونيو وكليوبطره ".

إن أهم ما يميز فن شيكسبير في مسرحياته التاريخية كلها أنه فنان "موضوعي" أي أنه لا يتعصب لشيء ضد شيء آخر ، ولا يحاول أن يفرض عواطفه الشخصية الخاصة به على الأحداث والشخصيات في مسرحياته المختلفة ، وهذا الموقف ارتفع بفن شيكسبير إلى مستويات عالية ورفيعة، لأن الفنان الذي يفرض مشاعره الخاصة به وحده على أعماله لا يقدم للناس سوى آرائه الشخصية ولا يستطيع أن يقدم تصويراً أميناً للحياة الإنسانية كما هي عليه في الحقيقة والواقع.

وفن شيكسبير ليس به شيء من التعصب أو الرؤية الشخصية ولكنه فن فيه رحابة الحياة وفيه أمانة عالية في تصوير الواقع الإنساني.

كيف نظر شيكسبير إلى كليوبطره وكيف صورها في مسرحيته الجميلة ؟

إننا نجد في هذه المسرحية وجوهاً متعددة لكليوبطره ، وقد حرص شيكسبير على أن يعطى لكل وجه منها حقه وأن يستخدم فنه

وموهبته في توضيح هذه الوجوه المختلفة ، وهى وجوه تتفـرق هنـا وهناك وتلتقي جميعاً بعد ذلك في شخصية واحدة اسمها كليوبطره .

وأول وجه من وجوه كليوبطره في مسرحية شيكسبير هو وجه " المرأة " وهى هنا امرأة تحب قائداً قوياً وفارساً نبيلاً ورجلاً أكملت له الطبيعة كل معاني الرجولة في شخصه وهو: أنطونيو والمـرأة الـتي تحب تشعر بالغيرة ، واللهفة والقلق على حبيبها ، وخاصة إذا كـان حبيباً في قيمة " أنطونيو " وما يتعرض له باستمرار من رغبـة نـساء أخريات كثيرات فيه ، فقد كانت أجمل نساء العالم وأرفعهن مقاماً في ذلك العصر يطمعن في قلب " أنطونيو" ويتنافسن مع" كليـوبطره " على الفوز بقلب هذا الفارس القوى الشهير وبرغم أن " كليـوبطره " استطاعت أن تنتصر على غيرها من نساء الأرض وتـستأثر بقلـب أنطونيو فإنها كثيراً ما كانت تخشى أن تفلت منها الأمور وتفقد قلب أنطونيو ولذلك كانت تشعر بالقلق وتتابع في جهد كبير كل أخبـار أنطونيو وكل حركاته وسكناته، وخاصة إذا غاب عن مصر في رحلة له إلى روما ، وأصبح بعيداً عن عيون " كليوبطره " حيث تستطيع أن تؤثر عليه وتمارس سحرها للإبقاء على حبه لها في أعلى درجـة مـن درجات الاشتعال.

وتصوير شيكسبير للجانب الأنثـوي العـاطفي في حيـاة " كليوبطره " هي لوحة حية خالدة للقلق الوجداني عند امرأة عاشـقة تخشى أن تفقد قلب حبيبها فينساها ويهجرها إلى امرأة أخرى غيرها . ولننظر في طبيعة المرأة العاشقة والخائفة من فقدان حبيبها كما يصورها لنا شيكسبير في مسرحيته ، والنص الذي نعتمد عليه هنا هو ترجمـة الدكتور لويس عوض لمسرحية " أنطونيو وكليوبطره " فكليـوبطره ترسل أحد أفراد حاشيتها ليأتيها بأخبار أنطونيو وتقول له : " أبحـث

عن مكانه ، عمن معه ، وعما يفعل ، لا تقل له أبداً أني أرسـلتك .، فإن وجدته حزيناً فقل له إني أرقص وإن وجدته سعيداً ومرحاً فقل له إني مرضت فجأة . هيا أسرع وعد إليّ دون إبطاء ".

وهنا نحس بأن كليوبطره بقلب المرأة العاشقة تريد أن تحـتفظ بانتباه أنطونيو ، فإذا كان حزيناً فإن رسولها سوف يقول لـه " إنهـا ترقص " وإن كان سعيداً فسوف يقول له أنها أصيبت بالمرض فجأة ، وما ذلك كله إلا لكي " ينتبه " إلى وجود كليوبطره ويحس بهـا ولا يغفل عنها أبداً وتزداد صورة " المرأة العاشقة " وضوحاً عندما يقـدم شيكسبير حواراً آخر طريفاً بين كليوبطره وبين وصيفتها القريبة منها "شرميان" وهذا هو نص الحوار :

شرميان : يخيل إليّ ياسيدتي أنك لو كنت تحبينه من كل قلبك فأنت لا تعرفين السبيل إلى اجتذابه حتى يعطيك من حبه بقـدر مـا يأخذه منك .

كليوبطره: وماذا ينبغي على أن اعمله وفاتني أن اعمله أو أقوم به؟

شرميان : أطيعيه في كل شيء ولا تعارضيه في شيء .

كليوبطره : هذه تعاليم المغفلين ، وإذا ما تصرفت على أساسها فإنني سوف أفقده.

شرميان : لا تسرفي في معاكسته ، وأرجو منك أن تتوقفي عن ذلك ، فنحن نبغض مع مضى الزمن ما يقلقنا كثيراً .

هذا هو الحوار الطريف الذي دار بين كليوبطره ووصـيفتها المخلصة " شرميان " وفي هذا الحوار نكتشف أن كليوبطره هي امرأة

عاشقة تخطط للاحتفاظ بحبيبها تخطيطاً دقيقاً لا يختلف عن تخطيط أي امرأة حساسة ذكية أخرى ، فهي هنا تتصرف حسب طبيعتها الأنثوية الفطرية ، فترى أن حبها ليس حباً يسيراً سهلاً ، بل هو حب صعب عسير ، وأن احتفاظها بمثل هذا الحب لا يمكن أن يتم بالأساليب التقليدية ، أي بالطاعة المطلقة لحبيبها كما تنصحها بذلك وصيفتها

"شرميان" ، فالطاعة المطلقة والدائمة سوف تؤدى إلى اطمئنان كامل من جانب أنطونيو ، وعندما يطمئن هذا الحبيب فإنها سوف تفقده أو هكذا كانت "كليوبطره" تتصور ، ولعلها كانت على صواب فالحب الذي تعيش فيه ليس حباً تقليدياً عادياً ، بل هو حب تحيط به المخاطر من كل جانب ، والحبيب وهو أنطونيو معرض لأن تخطفه نساء أخريات أو مشاغل كبيرة أخرى ، ولذلك فإن على كليوبطره أن تشغله بحبها وأن تشعل لهفته عليها بصورة مستمرة ولو أنها كانت تحب شخصاً عادياً لا خطر منه ولا خطر عليه لما احتاجت إلى هذا المذهب في الحب ، ولا إلى هذا الأسلوب المليء بالالتواء الأنثوي والتعقيد النسائي للمحافظة على هذا الحبيب حتى لا يفلت من قفص حبها ، وحتى لا يتوقف لحظة عن التفكير فيها والتعلق بها .

وهذا الجانب الأنثوي العاطفي يملأ صفحات مسرحية شيكسبير ، وقد أبدع شيكسبير بحيث يمكن أن نقول إن المسرحية تقدم دراسة حية للحب الصعب على مذهب كليوبطره الذي تحاول فيه امرأة ذكية جذابة ساحرة أن تحتفظ بحبيبها وأن تجعل قلبه مشغولاً بها في صورة دائمة ومستمرة مهما كانت المشاغل والإغراءات الأخرى المحيطة به ، وتستطيع أي امرأة عاشقة لحبيب صعب المنال تخاف عليه وتخشى أن تفقده أن تجد في مسرحية شيكسبير " وصفة رائعة " للاحتفاظ بهذا الحبيب ، فهي تتمارض حتى لو كانت في منتهى الصحة

لكي يبقى حبيبها مشغولاً عليها شاعراً بالحنان الشديد نحوها لأنها تبدو في حاجة ماسة إليه .. وهى تتهمه كثيراً في عواطفه نحوها حتى يدافع عن نفسه بإظهار مزيد من الحب لها وتقديم الأدلة المتواصلة على هذا الحب ، وهى تمدده بالافتراق عنه بين الحين والحين حتى يشعر بأن حبه في خطر فيحرص عليه أشد الحرص وينتبه إليه دائماً حتى لا يفلت من يديه.

كليوبطره كما يصورها شيكسبير هي أستاذة في فن الحب الصعب وخاصة ذلك الحب الصعب الذي يكون الطرف الثاني فيه حبيباً مثل أنطونيو بالغ الجمال والكمال والقوة ، وكل العيون تتجه إليه وتسعى لاختطافه من العش الذي يسكن فيه قلبه ، وما أكثر الحاسدين والحاسدات لكليوبطره لأنها تمكنت من السيطرة على هذا القلب الكبير .

علي أن هذا الوجه الأنثوي لكليوبطره كما يصوره شيكسبير ليس هو وجهها الوحيد ، فهذه الشخصية التاريخية لم تفقد توازنها أبدا بسبب حبها الكبير ، فهي ليست من الشخصيات السطحية التي يمكن أن تغرق في بحر الحب وتنسى واجباتها الكبيرة الأخرى ، فهي ملكة علي مصر ، ولديها طموح سياسي وخطة أساسية تسعي لتحقيقها ، ولو أن حبها لانطونيو كان يتناقض مع طموحها وخططها السياسية لكان من المؤكد أن كليوبطره سوف تتخلي عن هذا الحب وتتركه وراء ظهرها ، لأنها كانت تحمل في داخلها حلماً قوياً آخر هو أن تصبح ملكة لمصر المستقلة ، بل مصر التي يجب أن تكون في نظرها وفي عهدها سيدة الدنيا وحاكمة العالم وصاحبة الكلمة العليا فيه .

ولكن كيف يتحقق هذا الحلم الكبير الذي يسيطر علي كليوبطره ؟ لقد كانت مصر عندما وصلت كليوبطره إلي عرشها بلداً

ضعيفاً لا يملك شيئاً من أسباب القوة العسكرية أو الاقتصادية ، و لم يكن وصول مصر إلي هذا الحد من الضعف هو ذنب كليوبطره بل كان ذنب الذين سبقوها من أجدادها وآبائها ملوك "البطالمة " الذين ورثوا مصر عن (الإسكندر الأكبر)

لقد وجدت كليوبطره نفسها أمام حقيقة ثابتة من حقائق التاريخ في مصر ، فعندما تكون مصر ضعيفة فلابد لها من حليف قوي يحميها ويحفظ عليها استقلالها ، فان لم تجد مصر هذا الحليف القوي تحولت من بلد مستقل إلي مستعمرة . ومعني ذلك أن مصر لا تستطيع أن تعيش " في حالها " وهي " ضعيفة " فضعفها يغري بها ، وموقعها علي خريطة الدنيا لا يترك أمامها سوي واحد من اختيارين : إما أن تتحالف مع قوة كبري تجد فيها الأمان والحماية وإما أن تقع فريسة في يد قوة خارجية تستعمرها . وتسيطر عليها . وقد رسمت كليوبطره خطتها خلال الأعوام العشرين التي حكمت فيها مصر علي أن تكون حليفة لأقوي دولة في العالم في عصرها وهي الإمبراطورية الرومانية ، بل امتد بها الطموح إلى حد الأمل في أن تتحول الإمبراطورية الرومانية مع مصر إلى دولة واحدة تحكم العالم كله وتكون مصر هي المركز ، والإسكندرية هي العاصمة بدلاً من روما . وكانت الخطة الأخيرة والنهائية عند كليوبطره هي أن تراهن علي انطونيو . أكبر وأشجع قادة الرومان ، ولو نجح انطونيو كما كانت كليوبطره تنتظر وتتمني لتحقق لها كل ما كانت تريده من خطة سياسية شديدة الطموح لإنقاذ مصر وجعلها مركزاً للعالم .

ولكن أنطونيو انهزم مع كليوبطره في معركته ضد اكتافيوس ، فضاعت آمال كليوبطره ، ووقع ما كانت تخشاه وفقدت مصر استقلالها وأصبحت ولاية تابعة لروما .

وهذا الجانب السياسي الأساسي في شخصية كليوبطره واضح تماما في مسرحية شيكسبير ، إذ أن شيكسبير حرص علي تصوير هذا الجانب في شخصيتها بمنتهي الأمانة والعمق ، فلم يصورها علي أنها امرأة عاشقة ومحبة بل صورها أحسن تصوير في جانبها الآخر " أي جانبها السياسي " الذي كان يسعي بقوة إلي الاحتفاظ باستقلال مصر وسيادتها وعدم التفريط في ذلك حتى لا تتحول مصر إلي مستعمرة تابعة لدولة أخري . وهو ما حدث لمصر بعد هزيمة انطونيو وكليوبطره أمام " اكتافيوس " في معركة " اكتيوم " البحرية .

وقد كانت الهزيمة زلزالاً له توابع ، ومن توابع هذا الزلزال أن انطونيو لم يجد أمامه كقائد عظيم وشريف إلا إنهاء حياته بيده ، أي بالانتحار ، فهكذا كان كل قائد روماني صاحب مقام كبير يتصرف في حياته إذا حلت به هزيمة لا سبيل إلي الخلاص منها . وبعد انتحار "انطونيو" وجدت كليوبطره نفسها أمام أزمة كبيرة، وقد حاولت أن تضبط أعصابها ومشاعرها لعلها تري مخرجاً من هذه الأزمة ، أي أنها لم تفقد السيطرة علي نفسها بعد الهزيمة وبعد انتحار انطونيو ، وبذلت جهدا لمحاولة النجاة بمصر والنجاة بنفسها وأبنائها أيضا ، لذلك فإنها بذلت جهداً مثيراً للإعجاب من أجل التفاهم مع المنتصر " اكتافيوس " ولكنها أدركت بخبرتها وذكائها أن التفاوض مع " اكتافيوس " لن ينتهي إلي أي نتيجة إيجابية ، فقد كان " اكتافيوس " رجلا جافاً صارماً لا يستسلم لعواطفه ، بل يمكننا القول إنه لم تكن لديه أي عواطف ، فهو مثال نموذجي للرجل السياسي الذي تعلو السياسة عنده على كل شيء آخر .

وقد كانت لديه فكرة واحدة أعطاها كل جهده و أوقف عليها حياته كلها وقام بتركيز اهتماماته كلها علي هذه الفكرة

وحدها، وهي أن يكون إمبراطورا وحيداً على روما لا يـشاركه في حكمها أحد ، وأن تكون روما تحت سلطانه هي سيدة الدنيا وحاكمة العالم الوحيدة ، وقد حقق " اكتافيوس " ما يريده لأنه لم يشغل نفسه بأي هدف آخر سوى هذا الهدف ، على عكس أنطونيو الذي كـان قائداً عسكرياً وسياسياً وكان عاشقاً في الوقت نفـسه ، فاضـطربت حياته بين مسئوليتين متناقضتين ... مسئولية السلطة ومسئولية الحـب العاصف الذي ملأ قلبه لكليوبطره ... وبعد انتحار أنطونيو ومحاولـة كليوبطره للتفاوض الذي لم يـنجح مـع " أكتـافيوس " أدركـت كليوبطره أنه لم يعد لها مكان في هذه الدنيا غير مكان الملكة المهزومة والفريسة الذليلة بين يدي " أكتافيوس " فاختارت أن تصنع مـصيرها بنفسها وآثرت الانتحار . وكان قرارها دليلا على عزة نفسها وعمق فهمها للأمور وحرصها على ألا تعطى لعدوها فرصة كان يحلم بهـا ، وهى أن يجرها بالسلاسل في موكب انتصاره ويعرضها على الجميع في شوارع روما حيث يبصقون عليها ويلقـون في وجههـا بـالطوب والحجارة ثم ينتهي أمرها بعد هذه المذلة بالإعدام .

على أننا نجد في مسرحية شيكسبير أنغاماً ثانويـة أخـرى إلى جانب تصويره الرائع لكليوبطره العاشقة وكليوبطره الملكة وصـاحبة الخطط السياسية المليئة بالطموح ، وكليوبطره المتحكمـة في نفـسها عندما تشتد الأزمات وتعصف عواصف الحياة . ومن هـذه الأنغـام الثانوية الجميلة تلك النغمة التي تتكرر كثيراً في مـسرح شيكـسبير وتشير إلى دور الحظ في حياة الناس . فالعراف يقول لأنطونيو وهو في قمة مجده واطمئنانه على نفسه :" إن حظ اكتافيوس من السماء وهو بهذا يتفوق عليك برغم أنك أفضل منه وهذا الحظ لا سلطان لأحـد عليه وهو يهبط حيث يشاء ويكون النصر دائما في جانبه.

وهذا ما حدث فقد خان الحظ أنطونيو ، ووقف إلى جانب صاحب الكفاءة الأقل وهو" اكتافيوس"

وهنا نغمة أخرى عذبة وجميلة جداً في مسرحية شيكسبير تلك هي نغمة الإيمان الذي يتملك قلب كليوبطره بأن هناك عالماً آخر غير هذه الدنيا ، وهذا الإيمان بالعالم الآخر كان ثمرة للثقافة المصرية عند كليوبطره ، فالمصريون منذ أيام الفراعنة وقبل ظهور الأديان السماوية كانوا يؤمنون بأن هناك عالماً آخر أكثر عدلاً وجمالاً من هذا العالم الدنيوي ، وعلى أساس هذا الاعتقاد بوجود العالم الآخر الأسمى والأنقى تركت كليوبطره الأفعى تلدغها في صدرها وذراعها واختارت أن ترحل وهى تلبس أجمل ثيابها وتضع تاجها على رأسها أملاً منها في أن تجد في السماء ما عجزت عن أن تجده فوق الأرض .

❖



طموح النساء يقتل الرجال

الشخصيات الرئيسية في هذا الفـــصل هي:

١- الملك **دنكان** .

٢- القائد العسكري **ماكبث** .

٣- **الليدى ماكبث** زوجة ماكبث .

عندما تكون المرأة شديدة الطموح فإن الرجل الـــذي تحبـــه وترتبط به يكون في خطر كبير ويكون مصيره في الغالب مصيرا مؤلما، وقد ينتهي الأمر إلى ضياع حياة الرجل الذي تقف وراءه امرأة من هذا النوع. والحقيقة أن الطموح في حد ذاته هو فضيلة من أكبر الفضائل ، ولكن الطموح عندما ينحرف عن هدفه ويتجاوز حدوده الطبيعية فإنه ينتقل من قائمة الفضائل ليصبح مرضاً يؤذى أصحابه . والطموح إذا انحرف تحول إلى طمع ، واستباح في طريقه مـــالا تبيحـــه الأخـــلاق والمبادئ والسلوك الإنساني المستقيم . والشيء الذي يحافظ على ما فى الطموح من نبل هو أن يحرص صاحبه على ألا يخلط بين الطمـــوح والطمع ، فالطموح النبيل هو قوة محركة للاجتهاد من أجل الوصـــول إلى أهداف جميلة ولكنها صعبة ، أما الطمع فإنه شعور ينطوي علـــى التدمير والهدم .

الطموح النبيل لابد أن يعتمد على نفس صافية طاهرة لـــيس فيها عدوان على أحد، أما الطموح الشرير فهو الطمع في شيء لـــيس للإنسان حق فيه، بل هو حق للآخرين.

وفى هذا الطموح الشرير فإن كل الوسائل مباحة ، حتى لـــو كانت هذه الوسائل هي الجريمة والتآمر والخداع والغدر وخيانة الثقـــة

والأمانة .. والمهم عند أصحاب الطموح الشرير هو النجاح والوصول إلي الهدف ولو كان ذلك على أشلاء أعز الناس في هذا الوجود . وفي مسرحية شيكسبير الجميلة " ماكبث " نجد دراسة عالية القيمة للطموح القبيح وما يترتب عليه من نتائج بالغة السوء . فهذا النوع من الطموح يؤدي إلي نشر الفوضى في الحياة وينتهي بفقدان أصحابه لكل ما كسبوه من غنائم وانتصارات ، لأنهم وصلوا إلي ذلك بطرق ملتوية وأياد ملوثة وضمائر غير مستقيمة ونيات سيئة .

وهناك نقاد وباحثون كثيرون يستنكرون القول بأن شيكسبير هو فنان فيه بساطة وسهولة وشعبية .

فهؤلاء النقاد يظنون أن شيكسبير هو فنان أكبر وأعمق وأكثر تعقيداً من أن يهتم بالمشاكل الشائعة والمعروفة بين الناس . ويحاول هؤلاء النقاد أن يفتشوا في كل عمل من أعمال شيكسبير عن المعاني الصعبة والتي تختفي وراء الأحداث الظاهرة في مسرحياته وقصائده . وكثيرا ما نجد تناقضاً شديداً بين أعمال شيكسبير السهلة الواضحة وبين تفسير بعض نقاده لهذه الأعمال وما يحمله هذا التفسير من تعقيدات غير محدودة .. والحقيقة أن شيكسبير كان في الأصل فناناً شعبياً يكتب المسرحية الشعرية للعرض علي جماهير واسعة ، وكان يحرص ، قبل كل شيء آخر، علي أن يجتذب هذه الجماهير الكبيرة ويكون مفهوماً منها وقريباً من قلبها وقادراً علي أن يجمعها حول أعماله الفنية الجميلة .

ولم يكن شيكسبير في حدود المعلومات القليلة المتاحة عنه يكتب أبداً من أجل الخلود الأدبي ، بل لعله كان أقل الناس حرصاً علي شيء من ذلك ، وكل ما كان يعنيه قبل أي شيء آخر هو أن يقدم فناً يهتم به الناس ويعالج مشاكلهم ويحقق لهم المتعة التي يحققها

كل فن جميل دون أي تعقيد أو ثرثرة ، ومن حق شيكسبير أن يقـال عنه إنه فنان شعبي بالدرجة الأولي ، وهذه الروح الشعبية الصادقة هي التي حققت له ما لم يفكر فيه أو يسعي إليه ، أي أنها حققت له الخلود الأدبي الذي يزداد نوراً وتوهجاً من جيل إلي جيل .

وهذه الشعبية في فن شيكسبير هي التي جعلت من المـشاكل الإنسانية الشائعة موضوعات أساسية في مسرحياته ، حيث كان يهتم بمعالجة هذه المشاكل دون أن يخجل من ذلك ، و دون أن يشعر بأنهـا موضوعات شائعة ودارجة وأنها ميسورة بالنسبة لأي فنان عـادي ، وقد عالج شيكسبير موضوعات مثل " الغيرة العمياء" في مـسرحية " عطيل " و " الحب المثالي " الذي يتعرض أصحابه في سـبيله للخطـر والتضحية بحياتهم في مسرحية "رومـيو وجوليـيت" ، والحقيقـة أن شيكسبير قد عالج مثل هذه الموضوعات بعبقرية فنية فريدة ، وكـان يدرك أن هذه الموضوعات رغم إنها شائعة إلا أنها في النهاية تمثل حياة الناس ، وأنها هي المشاعر والعواطف الرئيسية التي تتحكم في البشر في كل العصور والأجيال .

في هذا الإطار نستطيع أن نقرأ مسرحية " ماكبث " التي تعالج مشكلة الطموح الإنساني عندما ينحرف وينقلب إلي طمـع فيغـري أصحابه بارتكاب الأخطاء لتحقيق ما يطمعون فيه ، وينتهي الأمر بهم إلي إهلاكهم وتدمير حياتهم والقضاء علي ما كانوا يعيشون فيه مـن سعادة ممكنة .

وقد أطلق بعض مؤرخي الأدب على مسرحية " ماكبث " اسم مسرحية " الطمع والطموح " فهذا هو الموضوع الأساسي للمسرحية ، إذا أردنا أن نفهمها علي حقيقتها دون تعقيد أو افتعال.

وخلاصة مسرحية ماكبث باختصار شديد هي أن القائد العسكري "ماكبث" يقتل الملك الطيب " دنكان " عندما كان الملك يقوم بزيارة ماكبث قام الملك بهذه الزيارة تعبيراً منه عن الشكر والتقدير لقائده العسكري الشجاع ، بعد أن انتصر هذا القائد في معركة كبيرة ضد أعداء اسكتلندا التي تدور فيها الأحداث .

وهكذا قام ماكبث بقتل الملك وهو يزوره في قصره ، وكان الملك عند ارتكاب الجريمة نائما في قصر ماكبث حيث كان الملك واثقاً من ماكبث مطمئناً إليه وإلي ولائه الصادق وإخلاصه الكبير .

فما الذي دفع " ماكبث " إلي ارتكاب الجريمة القائمة علي الغدر والخيانة واستغلال ثقة الملك به ؟ إن المحرض الأول علي هذه الجريمة هي الزوجة أو"الليدي ماكبث" و " ماكبث " ليس بريئاً تماماً من التفكير في الجريمة فقد راودته نفسه علي أن يكون ملكاً بدلاً من الملك الشرعي ، وظن بعد أن حقق انتصاره في المعركة العسكرية التي خاضها أنه أولي بالعرش من الملك .

وهذه مشكلة إنسانية كبيرة تتكرر في مراحل التاريخ المختلفة . فالعسكريون عندما ينتصرون في الحروب فإنهم يشعرون بالميل الشديد إلي أن تكون السلطة العليا بأكملها في أيديهم ، فما داموا قد انتصروا في الحرب فإن ذلك يعطيهم الحق في أن يجلسوا علي العروش وأن يحكموا الناس وحدهم بغير شريك لهم في ذلك . فالسيف عند العسكريين هو الذي يحقق شرعية السلطان . ولكن "ماكبث" مع ذلك كان متردداً في ارتكاب جريمته ، وكانت شخصيته منقسمة علي نفسها بين الرغبة في أن يكون ملكاً بدلاً من الملك وبين الإحساس بأن الجريمة لابد أن يرتكبها ليصل إلي هدفه . هي جريمة تخلو من الشرف وتقوم علي الغدر والخيانة . وعندما كان " ماكبث " يعاني من هذا

القلق بين طموحه وإحساسه بالواجب تجاه الملك الشرعي . ظهرت زوجته " الليدي ماكبث " لتقول : إنما باسم حبها له تريد أن تراه ملكاً ، فهذا هو ما يستحقه في نظرها ، والحقيقة أن " الليدي ماكبث " هي نفسها كانت شديدة الطموح لأن تكون ملكة علي العرش . وهذا لن يتحقق إلا إذا قام زوجها بقتل الملك وحل محله . ولذلك فقد أخذت الزوجة باسم حبها لزوجها تحرضه تحريضاً شديداً علي ارتكاب جريمته ، وأخذت تؤنب الزوج علي تردده وتؤكد له أن كل شيء وحتى الجريمة ، يبدو وسيلة عادية في سبيل تحقيق هدف كبير هو الوصول إلي العرش . بل حاولت الزوجة أن تقوم هي بنفسها بقتل الملك وهو نائم في قصرها ، ولكنها عندما نظرت إلي وجه الملك المستغرق في نومه باطمئنان ، رأت في هذا الوجه ما يشبه وجه أبيها ، فاهتزت يدها و لم تستطع تنفيذ جريمتها . وإذا كانت قد انسحبت من ارتكاب الجريمة بيدها لعجزها عن ارتكابها فإنها لم تنسحب من طموحها الذي كان يسيطر عليها إلى حد الجنون ، فاستجمعت كل قوتها وتأثيرها العاطفي علي زوجها حتى تدفعه إلي ارتكاب الجريمة ، فارتكبها فعلا وقام بقتل الملك ، وأصبح ملكاً ، وأصبحت زوجته ملكة .

ولكن الجريمة لا تفيد، والمجد القائم على الدماء مصيره إلى الفناء. وهذا ما حدث . فقد أراد " ماكبث " القاتل أن يحمي عرشه الجديد بكل الوسائل والأساليب ، وكان يقول لنفسه بعد تمام الجريمة "ليست العبرة في أن تكون ملكاً بل العبرة في أن تكون آمناً " .

وهكذا أدرك " ماكبث " وأدركت معه زوجته أن السلطان والعز والملك لا قيمة لها جميعاً إذا لم يكن الإنسان آمناً . ولم يكن "ماكبث" آمناً بعد وصوله إلي العرش ، فقد وصل إلي ما يريد عن

طريق الجريمة والتآمر وذبح الملك الشرعي وخيانة ثقته وقد كان ماكبث يتصور أن ما فعله ضد مليكه يمكن أن يفعله أي شخص آخر به هو نفسه .

وهنا نتذكر بيتين جميلين لشاعرنا العربي " المتنبي " يقول فيهما:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه   وصدق ما يعتاده من توهم
وعادي محبيه بقول عداته   وأصبح في ليل من الشك مظلم

وهذا ما حدث لماكبث بعد ارتكاب جريمته ، فامتلأت نفسه بالهواجس والمخاوف التي أخذت تطارده في يقظته ونومه ، وبسبب هذا الاضطراب وانعدام الشعور بالأمان واصل ماكبث عملية القتل لكل من يشك فيهم ويخشى منهم . وانتهي الأمر بأن اجتمع أعداؤه الكثيرون وخاضوا ضده حرباً انهزم فيها ولقي مصرعه قتيلاً في إحدى المعارك .

أما زوجته " الليدى ماكبث " فقد وصل بها الاضطراب إلى حد الجنون أو ما يشبه الجنون ، ففقدت السيطرة على نفسها ، ثم فقدت السيطرة على جسمها الذي لم يحتمل اضطراباتها الروحية العنيفة فسقطت ميتة .

وهكذا كان طموح " الليدى ماكبث " قوة شريرة دفعتها مع زوجها إلى الهلاك والموت ، وذلك بعد أن وصلا إلى العرش كما كانا يحلمان ، ولكن العروش وغيرها من مظاهر القوة والسلطان لا يمكن أن يقوم شيء منها على الجريمة أو يقف راسخاً على بحيرة من الدماء .

فليس المهم كما يقول ماكبث نفسه أن تكون ملكاً أو صاحب سلطان ولكن المهم أن تكون آمناً وكيف يكون آمنا من كان قاتلاً ؟

وكيف يحظى بسعادة السلطة وعزها من يقيم ذلك على النذالة والاغتصاب والطمع وفراغ العين ؟!.

هذا هو موجز شديد لمسرحية " ماكبث " وأحداثها الرئيسية والمسرحية نفسها هي عند مؤرخي الأدب إحدى المآسي الأربع الكبرى التي كتبها شيكسبير في مرحلة واحدة من حياته تمتد من سنة ١٥٩٦ إلى ١٦١٠ أي إلى ما قبل وفاته بست سنوات، حيث إنه توفى سنة ١٦١٦ ، وهذه المآسي الأربع الشهيرة هي :

" عطيل " و " الملك لير " و " هاملت " ثم " ماكبث " ويبدو أن شيكسبير كتب هذه المآسي جميعاً في فترة حزينة من حياته ، وذلك بعد أن تعرض لبعض الأحداث الشخصية التي أثرت في نفسه أشد التأثير ، وكان أهم هذه الأحداث هو موت ابنه الوحيد " هامنت " سنة ١٥٩٦ وهو في الحادية عشرة والنصف من عمره ، وعن تأثير وفاة هذا الابن على نفسية شيكسبير يكتب المؤرخ الأدبي العربي الفلسطيني " جريس القسوس " في كتابه الهام والشامل " عبقرية شيكسبير " فيقول إن هذه الفاجعة الكبيرة قد ألهبت خيال شيكسبير وأرهفت حسه وصقلت نفسه وزادته حزناً على أحزانه ، فاكتسب تفكيره ، ولاسيما في المرحلة الأخيرة من حياته الفنية ، لوناً فلسفياً عميقاً ، وهل هناك ريب في أن هذه المأساة التي أفقدته ابنه كانت من أكبر الحوافز وأقوى البواعث التي هزت نفسه وأثرت في مزاجه وأدبه ودفعت به إلى كتابة تلك الروائع من المآسي الخالدة التي تعد المثل الأعلى للأدب المسرحي في العالم كله ؟!.

وهكذا نجد أن فترة الأحزان كما يقول مؤلف " عبقرية شيكسبير " هي الفترة التي كتب فيها مآسيه الكبرى ومنها مأساة "ماكبث" .

وقد كتب شيكسبير في حياته ما يقرب من أربعين مسرحية، والرقم تقريبي ، لأن هناك مسرحيات مختلف على نسبتها إليه ، وإن كان الرقم الذي يميل مؤرخو الأدب إلى الأخذ به هو ٣٨ مسرحية . ومن بين هذه المسرحيات جميعاً جاءت مسرحية " ماكبث " من أقصر مسرحيات شيكسبير ، ويحدثنا الناقد والمؤرخ الأدبي الإنجليزي " ا.س.برادلي " في كتابه " التراجيدية الشيكسبيرية "ترجمة الأستاذ حنا إلياس " عن " ماكبث " فيقول :" إن مسرحية ماكبث قصيرة جداً ، فهي أقصر مسرحيات شيكسبير باستثناء مسرحية " كوميديا الأخطاء" ، و"ماكبث" لا تتألف إلا من ١٩٩٣ بيتاً" ، في حين تتألف مسرحية " الملك لير " من ٢٢٩٨ بيتاً ومسرحية " عطيل " من ٣٣٢٤ بيتاً ومسرحية " هاملت " من ٣٩٢٤ بيتاً .

وهذه الملاحظة التي يشير إليها " برادلي " قد تهم الباحثين المتخصصين تخصصاً دقيقاً في أدب " شكسبير " ولكنها ملاحظة لها أهميتها العامة إلى جانب ذلك إذ أنها تقدم لنا ما يؤكد أن الفن الجميل لا علاقة له بالحجم ، فنحن لا نحس عند قراءة " ماكبث " أنها قصيرة بصورة تقلل من قيمتها وعمقها وتأثيرها في النفوس، وذلك لأنها على قصرها الذي لا نحس به مشحونة بالأحداث القوية المتلاحقة التي تجعلنا نلهث ونحن نتابعها .

والإيجاز بصورة عامة هو ميزة كبرى من ميزات الفن الرفيع. وقد تكون صفحة واحدة لها من القيمة والتأثير أكثر من مئات الصفحات ، إذا كانت هذه الصفحة جميلة وصادقة وقادرة على التعبير عن رؤية إنسانية حقيقية وهذا كله ينطبق على مسرحية " ماكبث " التي وصل فيها فن " الإيجاز " عند شكسبير إلى درجة عالية من الإتقان والجمال والقدرة على تحريك النفوس.

والنغمة الأساسية في مسرحية " ماكبث " هي نغمة الطموح المليء بالطمع والذي يدفع أصحابه إلى عدم القدرة على التفرقة بين الخطأ والصواب ، ويدفعهم إلى استباحة كل شيء في سبيل الوصول إلى أهدافهم .

والمحرك الأكبر للطموح والطمع في المسرحية هو " الليدى ماكبث " ولذلك كان بعض النقاد يرون أن من الأنسب تسمية المسرحية باسم " الليدى ماكبث " وليس باسم " ماكبث " فالزوج في المسرحية هو أداة ، والزوجة هي التي تستخدم هذه الأداة وتحركها كما تشاء ، فهي تحرض زوجها إلى التخلص من تردده وتدفعه دفعاً إلى أن يقتل الملك " دنكان " وهو يزوره في قصره ، وقد كان الملك عند ارتكاب الجريمة نائماً وكله ثقة واطمئنان إلى إخلاص " ماكبث " وأمانته ، ولكن " الليدى ماكبث " لم يهدأ لها بال حتى تمت الجريمة على يد زوجها ، فقد تحول طموح هذه الزوجة إلى مرض عصبي عنيف حاد ، و لم تعد ترى أمامها إلا عرش الملك الذي تريد لزوجها أن يجلس عليه لتصبح هي أيضاً ملكة وزوجة للملك . وقد كان هذا الهدف من وجهة نظرها هدفاً كبيراً ، وكان كل شيء يبدو إلى جانبه صغيراً وعديم القيمة والأهمية .

وهذه النفسية المريضة الملتوية التي تمثلها " الليدى ماكبث " هي انحراف يتكرر كثيراً ، وقد تعرضت شخصية " الليدى ماكبث " لهذا الانحراف الكبير وذلك عندما تجردت من عواطفها الطبيعية وهي عواطف الحب والحنان والرحمة فمثل هذه العواطف هي النور الذي يهدى الإنسان في ظلمات الحياة . وهى عواطف لا يمكن أن تدفع إلى الشر بل إنها على العكس تساعد على التخلص منه والابتعاد عنه .

والغريب أن " الليدى ماكبث " كانت تحرض زوجها على ارتكاب الجريمة بقولها له : إنما تحبه وأن حبها يدفعها إلى الأمل في أن تراه في مكان يستحقه ويليق به . أي أن تراه ملكاً.

والحب الحقيقي الصادق لا يمكن أن يسلك طرقاً ملتوية أو يلجأ إلى وسائل إجرامية ، فهذا كله ليس من الحب في شيء ولكنه أنانية عمياء ، وهذه الأنانية هي قوة مدمرة للجمال والخير في حياة الإنسان . ولا شك أن ما في نفس هذه الزوجة لم يكن حباً لزوجها ولكنه كان نوعاً من الاستغلال لهذا الزوج ، وتحويله إلى وسيلة تستخدمها للوصول إلى أهداف تحلم بها وتتمناها لنفسها دون أي حساب للعواقب . وإطلاق صفة " الحب " على عواطف " الليدى ماكبث " أو أي امرأة من هذا النوع الذي يعميه الطموح والطمع ليس إلا خداعاً في خداع. فليس هذا السلوك الذي سلكته تلك المرأة دليلا على أي عاطفة طيبة وحقيقية ، بل هو دليل على الشر الكامن في نفس هذه المرأة . وأين هو الحب عندما تقود المرأة حبيبها إلى طريق مليء بالمخاطر وتستخدم تأثيرها على من تحبه لتقضى عليه بالهلاك ؟!

إن المرأة التي تحب بصدق وبصيرة نورانية يملكها كل المحبين الحقيقيين إنما تسارع إلى منع أي شبح للأذى والضرر يمكن أن يقف في طريق الحبيب ويسد عليه منافذ الهواء النقي. والحب الصادق هو في حد ذاته مملكة للسلام والسعادة تفوق كل الممالك، فماذا يفيد السلطان إذا كانت النفس ممزقة يعصف بها القلق والتوتر ؟!. وماذا تضر الحياة البسيطة إذا كانت النفس سعيدة مطمئنة تشعر بالنشوة والبهجة والانشراح ؟!.

إن الحب الصادق ليس عائقاً للطموح ولكنه عائق رافض مستنكر للطمع الذي يصحب معه الشرور ويلوث الأيدي النظيفة

والمشاعر الطاهرة ، والحقيقة أن النفس الإنسانية قابلة بصورة عامة للتلف والانحراف وعلى الإنسان أن ينتبه إلى ذلك ، فيراجع ما يدور في داخله من هواجس وأحلام وأفكار وطموحات ، ثم يستبعد كل ما هو سلبي وكل ما يغريه بارتكاب الأخطاء والاندفاع إلى تبرير الأخطاء بأنها كانت ضرورية ولا مهرب منها .

فالأخطاء شر ، والواجب هو التخلص من الشر حتى لو بدا أمامنا في صورة جذابة ومظهر حسن وأغرانا بأنه يمكن أن يحقق لنا بعض المصالح والأهداف . ولقد كانت " الليدى ماكبث " غارقة في الشر ، وإن كانت تتظاهر بأنها تحب زوجها ، ولعلها توهمت أنها صادقة في حبها ولكنها في الحقيقة كانت تحب نفسها وتعشق أهدافها غير المشروعة ، فقادها طموحها وطمعها إلى قتل زوجها وموتها هي نفسها . فحبها كان كاذباً ومليئاً بالخداع ، أي أنه كان حباً قاتلاً ومهلكاً لأصحابه.

فالحب جميل وكل ما يتصل به ينبغي أن يكون جميلاً أيضاً.

❖



الزوجة شيطان ..
والزوج نصف إنسان

الشخصيات الأساسية في هذا الفصل
هي نفسها شخصيات الفصل السابق
وهي:
الملك دنكان ــ ماكبث ــ
الزوجة "**الليدى ماكبث**".

كيف خرج آدم من الجنة ؟ لقد كان يعيش في النعيم ويشعر بالسعادة والاطمئنان، ولم يكن يحس بأي خوف أو قلق ولكن الشيطان تسلل إليه وأغراه فوقع منه العصيان لأمر ربه وأكل من الشجرة المحرمة عليه. وقد كان موقف حواء هو مشاركته في خطيئة العصيان للأمر الإلهي ، فحواء لم تلعب دور الضمير الذي يمنع زوجها آدم من الخطأ وارتكاب المعصية ، بل على العكس من ذلك فإنها شجعته وشاركته في خروجه عن الطاعة الواجبة عليه وعليها وبذلك خرج آدم وحواء من الجنة ، وفقدا نعمة السعادة والأمان ونزلا إلى الحياة ليواجها ما فيها من صراعات ومتاعب وآلام بعد أن كانا في غنى عن ذلك كله .

وحكاية آدم وحواء وخروجهما من نعيم الجنة إلى جحيم الحياة تتكرر كثيراً في حياة الإنسان ، وذلك عندما يفكر البعض أن ما يملكونه من السعادة والطمأنينة يمكن لهم أن يحققوا أكثر منه فيندفعون إلى السير في طرقات مظلمة أملا في الوصول إلى أهداف أكبر مما وصلوا إليه بالفعل . وفى معظم الأحوال تكون النتيجة هي أن يفقد الإنسان ما تحقق له من سعادة ممكنة في سبيل سعادة وهمية تداعب خياله وأحلامه ، وما هي فى الحقيقة سوى لعنة تحل به وتقضى عليه .

وهذا هو ما حدث لبطل مسرحية شيكسبير المعروفة "ماكبث" وما حدث لزوجته " الليدى ماكبث " أيضا وهذه المسرحية بالتحديد ينظر إليها بعض النقاد علي أنها أفضل ما كتبه شيكسبير بين مسرحياته العديدة . ففي هذه المسرحية تتكرر قصة آدم وحواء بصورة عنيفة وقاسية.

وآدم هنا هو "ماكبث" وحواء هي " الليدي ماكبث" وماكبث وزوجته كانا يعيشان في هدوء واطمئنان ونعمة واسعة . فقد كان ماكبث قائداً عسكرياً لامعاً يحالفه النصر في كل معاركه مما جعله موضع الثقة والحب من جانب الملك "دنكان" وبعد أن أصبح قريباً من صاحب العرش ومحبوباً منه وموضع ثقته وتكريمه تسلل إليه الشيطان وبذر في داخل نفسه بذرة الشر، وقال له الشيطان: لماذا لا تكون أنت الملك ، ولماذا تكون الشخص الثاني أو الثالث في المملكة وأنت قادر بما لك من مواهب عسكرية عالية أن تكون الشخص الأول ؟!. وجاءت وسوسة الشيطان إلي ماكبث علي شكل " ساحرات " ثلاث قلن له : انه سوف يصبح ملكاً في يوم من الأيام . وقد كانت فكرة "الساحرات" القادرات علي التنبؤ بالمستقبل شائعة بين الناس في عصر شيكسبير . أي في النصف الثاني من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، حيث عاش شيكسبير بين سنة مولده وهي ١٥٦٤ وسنة وفاته وهي ١٦١٦ .

ونحن الآن بعد أن وصلنا إلى القرن الحادي والعشرين لا نستطيع أن نقتنع بوجود هذا النوع من السحر القادر على أن يكشف ما سوف يحدث في المستقبل. ولكننا مع ذلك نستطيع من خلال علم النفس وغيره من العلوم الحديثة أن نقول إن الإنسان كثيراً ما يستجيب

لأصوات تتردد في داخل نفسه وتحرضه وتفرش لـه الأرض بـالورد، وذلك لكي يحقق لنفسه أهدافا أعلي مما تحقق له بالفعل.

فالمشاعر الداخلية في النفس الإنسانية تلعب دور "الساحرات" في الماضي ، وتخلق خيالات كثيرة وأحلاما زاهية ، وتدفع الإنسان إلي القيام بأفعال لا ينبغي أن يقوم بها لو أنه احتكم إلي ضميره وإحساسه بالواجب ، ولو استطاع أن يسيطر علي مطامعه ويميز تمييزاً دقيقاً بين ما هو خير وما هو شر ، ثم يفرض علي نفسه بعد ذلك أن يبتعد عن الشر ، لأن الشر لا يحقق السعادة لمن يرتكبونه ، بل علي العكس من ذلك فإن الشر لا يقود إلا إلي مزيد من الشرور الجديدة .

ونعود إلي مسرحية " ماكبث " لنجد أن الساحرات أوحين إليه أنه سوف يكون ملكاً، وهو ليس بملك وليس وريثاً للملك، وإنما هو قائد عسكري صاحب سمعة طيبة، وصاحب تاريخ حافل بالانتصارات الكبيرة ، مما رفع من قدره وجعله في مقام الرجل الثالـث في بلـده " اسكتلندا " بعد الملك "دنكان" وابنه وولي عهده " مالكولم".

وهذا المقام الرفيع الذي وصل إليه " ماكبث " كان كفيلاً بأن يمنحه السعادة والطمأنينة ويجعله في حالة تشبه حالة " آدم " في الجنـة قبل أن يرتكب معصيته ويأكل من الشجرة المحرمة عليه . وبعد أن سمع "ماكبث" ما أنبأته به الساحرات من أنه سوف يصبح ملكاً "لعبـت" الفكرة في رأسه ونفسه وخيالاته ولم يعد قادراً علي التخلص منـها ، وعندما داعبه هذا الخاطر الشيطاني لم يجد أمامه سوي وسيلة وحيـدة لتحقيق ذلك وهي أن يرتكب الخيانة الكبرى ويقوم باغتيال مليكـه " دنكان " ويعلن عن نفسه ملكاً بدلاً منه .

وعندما فكر ماكبث بهذه الطريقة أحس بالرعب ، لأنه لم يكن " معجوناً " من الشر الخالص ، بل كان في شخصيته جانب نبيل يسيطر عليه الضمير والإحساس بالمسئولية والتزام الجانب الصحيح الذي يفرضه عليه الواجب .

وبذلك أصبح " ماكبث " ضحية لصراع كبير داخل نفسه بين الشر والخير . وقد حاول الجانب الطيب النبيل في شخصيته أن يقاوم إغراء الجانب الشيطاني له بارتكاب جريمة قتل الملك وفرض نفسه علي العرش ، ملكاً جديداً بدلاً من الملك القتيل . وبعد صراع عنيف انتصر الجانب الشيطاني في نفس " ماكبث " علي الجانب الملائكي النبيل ، فاندفع ماكبث إلي ارتكاب جريمته وحقق هدفه باعتلاء العرش ، وبذلك يكون " ماكبث " قد أكل من الشجرة المحرمة عليه ، كما فعل آدم في الجنة، وحلت اللعنة علي ماكبث بعد الجريمة برغم أنه وصل إلي ما كان يحلم به، أي إلي العرش .

وكل من يصل إلي السلطة بالقوة، يظن في أول الأمر إنه أطمأن وتخلص من العقبات التي كانت تقف في طريقه ، ولكنه يكتشف في لحظة الاطمئنان إنه يجلس فوق بركان ، وأن عليه أن يدافع عن السلطة التي وصل إليها بالغدر والخيانة والاغتيال واستغلال الثقة فيه وليس هناك من دفاع عن السلطة التي تم اغتصابها إلا بالإرهاب ، فاغتصاب السلطة لابد أن ينتهي بإقامة حكم إرهابي ، لأن المغتصب يشك في كل الذين يحيطون به ، ويظن أنهم يتآمرون عليه كما قام هو نفسه بالتآمر لتحقيق هدفه . وكما يقول ماكبث نفسه انه " ليس المهم أن تكون ملكاً ولكن المهم أن تكون آمنا بعد الوصول إلي العرش" ، ولم يكن ماكبث آمناً بعد أن أصبح عن طريق الاغتيال ملكاً يجلس على عرش الملك القتيل.

وهكذا انتصر نصف الإنسان الشرير فى داخل " ماكبث " على نصف الإنسان الطيب فيه .

أين كانت الزوجة " ليدى ماكبث " من هذه المأساة الكبيرة ؟ إننا بعد أن نقرأ مسرحية شيكسبير أو نشاهدها على المسرح سوف نجد أن " ماكبث " كان نصف إنسان ، لأن النصف الشرير فيه انتصر على النصف الثاني المليء بالخير، أما زوجته "ليدى ماكبث" فهي تبدو لنا فى صورة "شيطان" كامل . فقد عرفت منذ البداية بنيات زوجها، لأنه صارحها بهذه النيات ، وإن كان قد أبدى قلقه واضطرابه من الإقدام على قتل الملك خاصة أن الملك — فى المسرحية- كان طيباً عادلاً محباً للخير، ومحباً على وجه الخصوص لماكبث وزوجته . ولكن " الليدى ماكبث " التقطت فكرة قتل الملك من لسان زوجها وتحمست لها حماساً لا يعوقه شيء على الإطلاق. وعندما أدركت أن زوجها متردد فى ارتكاب جريمة اغتيال الملك ،فإنها شنت حملة نفسية قوية جداً على زوجها، واستخدمت كل تأثيرها المعنوي الكبير عليه لدفعه إلى ارتكاب جريمته والتخلص من تردده . بدأت الزوجة " ليدى ماكبث" بعزف النغمة الأولى وهى أنها تحب زوجها ، وأن كل ما تقوله إنما هو بدافع الحب ، وبذلك أصبحت كلمة الزوجة مسموعة عند زوجها ، لأنه أصبح واقعاً تحت تأثير حبها له وثقته فى أن هذا الحب لا يمكن أن يصدر عنه إلا نصائح طيبة وصادقة وفى " محلها " .

على أن ماكبث كلما أقترب من تنفيذ جريمته المخلة بالشرف ازداد ارتباكاً وأوشك فى اللحظة الأخيرة أن يغير رأيه ويمتنع عن ارتكاب هذه الجريمة . وهنا كان على الزوجة أن تعزف أنغاماً أخرى أقوى ، وأن تسقى زوجها " خمرة " جديدة يكون تأثيرها مثل السم الذي لا نجاة منه . وأخذت الليدى ماكبث تعرف الأنغام

الأخرى لكي تدفع زوجها دفعاً إلى ارتكاب الجريمة ، لأنها هي نفسها كانت مسكونة بحلم لا يفارقها وهو أن تكون هي أيضاً " ملكة " بعد أن يجلس زوجها على العرش ويستقر فوقه، ولو كان ذلك عن طريق تلويث يديه بالدماء .

وكانت النغمة التالية لنغمة الحب هي النغمة التي تقول إن الأهداف الكبيرة لا يجوز أن تقف فى طريقها عقبات صغيرة ، مثل القول بأن الوسيلة إلى ذلك يجب أن تكون شريفة ونظيفة . فالوسائل كلها تهون ، وهى كلها مقبولة وسليمة مادام هناك هدف كبير .

وهذه النغمة التي استخدمتها "ليدى ماكبث" هي ما يسمى فى العلوم السياسية والإنسانية باسم " الماكيا فيللية " نسبة إلى الفيلسوف الايطالي الشهير " نيقولو ماكيافيلي" ١٤٦٩ ــ ١٥٢٧ ، فقد قال هذا الفيلسوف فى كتابه الأمير :

"إن الغاية تبرر الوسيلة" ومعنى ذلك أن الهدف المحدد الواضح يمكن أن يستخدم أي وسيلة حتى لو كانت هذه الوسيلة ملتوية ، وهذا المبدأ هو مبدأ غير أخلاقي ، بل هو مبدأ يمكن ترجمته إلى كلمة واحدة هي " الانتهازية " ، فليس من الشرف ــ فى حساب الأخلاق القوية ــ أن يسعى الإنسان إلى هدف صحيح وكبير بوسائل خسيسة وغير نبيلة . وحتى " ماكيافيلي " نفسه والذي ينتسب إليه هذا المبدأ غير الأخلاقي ، لم يكن فى رأى بعض الباحثين يدعو إلى استخدام هذا المبدأ ، ولكنه كان يقدم وصفاً لما يحدث فى تاريخ السياسة والسياسيين حيث جرت العادة على تبرير الوسائل الملتوية بأنها ضرورية لتحقيق الأهداف الكبيرة الناجحة ، ومن هنا لا يكون " ماكيافيلي " ــ حسب هذا الرأي ــ داعية إلى مبدأ غير أخلاقي ، بل هو مجرد مكتشف لوجود هذا المبدأ فى تاريخ الإنسان .

وهكذا أخذت " ليدى ماكبث " تدس فى نفس زوجها هـــذا المبدأ المسموم ، أي مبدأ استخدام أي وسيلة حتى لو كانت على شكل جريمة قتل ، وذلك لتحقيق هدف كبير هـــو الوصـــول إلى العـــرش والجلوس عليه ، ليصبح زوجها ملكا وتصبح هي ملكة أيضاً .ولكـــن هذه النغمة التي استخدمتها " ليدى ماكبث " لإقناع زوجها بالعمـــل السريع لقتل الملك لم تكن كافية لكي تدفع الزوج إلى اللحظة الحاسمة التي يتخلص فيها من التردد ويقوم بارتكاب الجريمة .

وهنا عزفت الزوجة نغمتها الأخيرة، والتي بعدها أندفع الزوج إلى ارتكاب الجريمة وهذه النغمة الشريرة هي قولها لزوجهـــا إنـــه لا يكون " رجلا " بالمعنى الكامل للرجولة إذا أحس بالضعف واستـــسلم للتردد فمثل هذه الصفات الناعمة اللينة لا تليق بالرجولـــة الحقيقيـــة. وهذه النغمة هي التي قضت على الجانب الطيب فى شخصية "ماكبث" فكيف يقبل أن تتهمه زوجته بالنقص فى رجولته ؟ لابد أن يثبت لهـــا أنه "رجل" كامل الرجولة، وقد صورت له الزوجة أن الدليل المطلوب لإثبات رجولته هو ارتكاب جريمته دون تراجع عنها أو تردد فيهـــا. وهكذا انتصرت الزوجة التي ركبها الشيطان ولم يترك فى نفسها شيئاً من النبل والخير ، بل كان " العفريت " الذي ركبها هو تحقيق هدفها بأن تصبح ملكة ، ولو جاء ذلك عن طريق قتل الملك الشرعي، أثنـــاء زيارته لها ولزوجها فى قصرهما الخاص ، وأثناء نومه آمنـــا فى هـــذه الزيارة المفجعة .

ويقوم "ماكبث" بارتكاب الجريمة ، بينما زوجته تقوم بتقديم خمر قوية فيها منوم ثقيل للحارسين المصاحبين للملك، وبعد الانتـــهاء من الجريمة التي ارتكبها الزوج يتم تلويث خناجر الحارســـين بـــدماء الملك، ويتم تلويث أيديهم وثيابهم بهذه الدماء، ثم يقـــوم "ماكـــث"

بقتلهما وهما غارقان فى النوم تحت تأثير الخمر والتخدير ، ويدعى ماكبث بعد ذلك أنه قتلهما انتقاما للملك ، فهما المتهمان بقتله ، والدليل على ذلك آثار الدماء على الخناجر والأيدي والثياب .

الزوجة هنا دخلت إلى حياة زوجها فى لحظة حاسمة هي لحظة الصراع فى نفسه بين الخير والشر ، وبدلاً من أن تكون الزوجة نوراً يضيء الظلام كانت ناراً تشعل الحقد وتحض على الجريمة وإسالة الدماء . واستطاعت الزوجة بما لها من تأثير على زوجها أن تنزع من قلبه وضميره كل ما يدعوه إلى التراجع والتخلص من فكرة التآمر، فأندفع إلى الشر وارتكب جريمته، وخان الملك الذي وثق فيه وأحبه.

وبعد ارتكاب الجريمة حلت اللعنة فخرج ماكبث وزوجته من النعمة الهادئة الراقية التي كانا يعيشان فيها إلى جحيم من الحياة المليئة بالقلق والتوتر . اندفع ماكبث إلى ارتكاب المزيد من الجرائم لأن "الخوف" سيطر عليه من أن يكتشف جريمته أحد ، وأخذ يظن أن كل الذين حوله سوف يعرفون الحقيقة ، وأنهم يتشككون فى موقفه ويشعرون فى داخلهم انه هو الذي ارتكب الجريمة . وهكذا دفعه القتل إلى مزيد من القتل ، أي أنه عندما انتزع السلطة وجلس على العرش فإنه اندفع إلى حكم الإرهاب وأعمل سيفه فى كل الذين يشك فيهم ، وكان يشك فى الجميع على التقريب .

وكان العقاب الذي حل بشخصية " ماكبث " أليماً وبدأ هذا العقاب من أتساع شكوكه فى الآخرين حتى لو كانت هذه الشكوك بغير دليل ، فالشكوك فى حد ذاتها مدمرة لأي هدوء واطمئنان داخل النفس ، وهذه الشكوك قادت "ماكبث" إلى الخوض فى مزيد من الدماء ، وكلما انتهى من سفك دم ، بدأ فى سفك دم جديد . على أن المأساة لم تتوقف عند حدود الشك وسفك الدماء ، فقد بدأ

" ماكبث " يرى خيالات قوية أمامه تداعبه وتعبث به وتقول لـه إن يديه ملوثتان بالدماء وإن " مياه البحار " لو اجتمعت كلها فإنها لا تستطيع أن تزيل آثار الدماء من هذين اليدين . وظل ماكبث يهـذى بالإشارة إلى يديه الملوثتين وأصبح فى حالة هي الجنون أو مـا يـشبه الجنون . حتى انتهت الأمور فى آخر المكـان إلى اجتمـاع أعـداء " ماكبث " لمحاربته ، وقد حاربوه بالفعل وانتصروا عليه وقتلـوه ، وفى اللحظات الأخيرة التي أكتشف فيها عبث جريمته قال كلماتـه الـتي أصبحت مشهورة فى أدب العالم كله وهى : " إن الحياة ليست سوى حكاية يرويها مجنون، وهى حكاية مليئة بالصخب والعنف ، وليس لها معنى ولا قيمة " .

وكان أشد عقاب وقع على " ماكبث " وزوجتـه " الليـدى ماكبث " هو حرمانه التام من النوم ، فمسرحية ماكبث يمكن أن يقال عنها إنها مسرحية العقاب بالحرمان من النوم الـذي حـل بالقاتـل وزوجته التي شجعته على الجريمة وكل أحداث المسرحية تدور فى الليل وقبل طلوع الفجر، ويقول الناقد الإنجليزي " يان كوت " فى كتابـه المهم ، " شيكسبير معاصراً " ترجمة جبرا إبراهيم جبرا : إن الليـل فى مسرحية ماكبث قد خلا من النوم ، وليس هنـاك مـسرحية مـن مسرحيات شيكسبير ورد فيها حديث عن " النـوم " بقـدر مـا فى مسرحية " ماكبث " من حديث عنه . " ماكبث " قتل " النـوم " ، ولن يستطيع أن ينام بعد ارتكاب جريمته.

فى " اسكوتلندا " كلها حيث تدور أحداث المسرحية لم يعد أحد يستطيع النوم. فلا نوم هناك بل الموجود والمتاح هو "الكوابيس" فقط.

والعقاب بالحرمان التام من النوم هو عقاب " طبيعي " أقسى من أي عقاب آخر، فكل المخطئين والمجرمين والمتسلطين فى هذا العالم لا ينامون ، وإنما يخضعون لكوابيس قاسية تحرمهم من هـــذه النعمـــة الطبيعية ، وبهذا الحرمان من النوم الطبيعي تختل حياتهم وتنهار أعصابهم ويشعرون أن الدنيا قد تحولت إلى جحيم .

وقد انتهت حياة " ليدى ماكبث " بأن أصيبت بمرض " المشي أثناء النوم " وكانت فى مشيها وهى نائمة ، تحاول أن تدافع عن نفسها ، وكانت تحاول أيضاً أن تغسل يديها باستمرار دون جدوى ، فكلما غسلت يديها شعرت أنهما لا تزالان ملوثتين ، وكانت تنام وعيناهـــا مفتوحتان ، وكانت لا تنام إلا وفى جانبها مصباح شديد الـــضوء . لأنها كانت تعانى من " هستيريا " الخوف وكانت تخاطب أشـباحاً لا يراها أحد سواها ، وتدخل فى صراع مع هذه الأشباح . وظلت تعانى من مرض " المشي أثناء النوم " ومرض الإحساس المستمر بأن يـديها ملوثتان ، مع الحديث المستمر وهى نائمة عن أنها لم ترتكب جريمة ، وإنما سعت إلى أن تكون ملكة ، وأصبحت ملكة ، فلماذا ينكر الناس عليها حقها فى ذلك ؟!.

لقد وصلت " ليدى ماكبث " إلى حد الجنون وعندما استولى عليها مرض المشي أثناء النوم ، والاندفاع فى أحاديث مضطربة خلال المشي وهى نائمة ، قال الأطباء إن مرضها لا شفاء منه ، ولابـــد أن ينتهي بها هذا المرض الخطير إلى الموت وهو موت يشبه الانتحار ، لأنه تعبير عن رغبة دفينة فى التخلص من الحياة . وهذا ما حـــدث فقـــد سقطت " ليدى ماكبث " ميتة بعد فترة قليلة من حصولها على لقـــب "الملكة " الذي كانت تحلم به . ولقد قال بعض الباحثين : إن من بين

الأسباب التي أشعلت " الطموح الجنوني " في نفس " ليدى ماكبث " هو أنها لم تنجب أطفالاً و لم تشعر شعوراً حقيقاً بالأمومة ، فلو أنهـا كان لها أطفال فربما ساعدتها الأمومة على التخلص من جنونها بالسلطة وبأن تصبح ملكة بعيداً عن طريق الغدر والدم والخيانة .

ومسرحية " ماكبث " تقدم نموذجاً حياً باقياً في كل العـصور للعقاب الذي يحل بالنفس الآثمة من داخل هذه النفس ، قبل أن يحل بها العقاب من الخارج ، ويكفي ما تكشفه هذه المسرحية الرائعة من آلام الحرمان من النوم والوقوع تحت سيطرة كوابيس مرعبة تطارد الإنسان وتفقده أي إحساس بالأمان ، فالليدى ماكبث لم يعاقبها أحد ، وإنما عاقبت نفسها بنفسها ، وكانت تسيطر على تصرفاتها في ضوء النهار ، ولكنها كانت تفقد السيطرة على نفسها تماماً عندما يحل الليل ويحـين أوان النوم الهادئ الذي بدونه لا تستقيم حياة الإنسان . هنا كانـت "ليدى ماكبث" تجد نفسها فريسة للكوابيس والأشباح التي لا تستطيع معها أن تغمض عينيها لتنام . وهكذا فإن ارتكاب جريمة واحدة لابد أن يجر المجرم إلى جرائم كثيرة أخرى طلباً للحماية والأمان ، والشر لا يولد عنه إلا الشر . ولا يمكن إقامة السعادة في هـذه الـدنيا علـى ارتكاب الجرائم والآثام . والغايات النبيلة لابد لها من وسـائل نبيلـة أيضاً ، وبغير ذلك ، يخرج الإنسان من نعمة الهـدوء والطمأنينـة إلى جحيم الشك والقلق ، ولن يجدي في مثل هذا الجحـيم أي سـلطان يملكه الإنسان حتى لو كان أعلى سلطان في الأرض . فالسلطان الذي يوحى به الشيطان ويشارك فيه لابد أن ينتهي نهاية مؤلمة لا يحبها أحد لنفسه.

❖



عندما تسترجل النساء

الشخصيات الرئيسية فى هذا الفصل هي :
جان دارك ـــ الملكة إليزابيث الأولى ـــ الليدى ماكبث .



هل يمكن أن تنجح المرأة فى حياتها إذا " استرجلت " وخلعت ثوب أنوثتها ولبثت أثواب الرجال ؟ . إن ذلك يمكن أن ينجح إذا كانت المرأة مضطرة ولديها أسباب قوية تدفعها إلى " الاسترجال " . وأشهر امرأة " استرجلت " فى التاريخ هي " جان دارك " ١٤١٢ — ١٤٣٢ ". ولا شك أن "جان دارك" قد نجحت فى أداء دورها ، لأنها كانت مضطرة إلى " الاسترجال " وكان لها هدف كبير من وراء ذلك . فقد حررت فرنسا من الاحتلال الانجليزي ووضعت أساساً قوياً لتوحيد الأقاليم المتفرقة المتنافسة ، والتي أصبحت معروفة بعدم توحيدها باسم فرنسا فى شكلها الحالي وخريطتها الراهنة .

كان " استرجال " جان دارك له مظاهر عديدة منها أنها كانت تلبس ملابس الجنود المحاربين ، ومن كان يراها يحس انه أمام رجل محارب وقائد عسكري وليس أمام فتاة شابة أو امرأة جميلة . ومن ناحية أخرى فقد كانت " جان دارك" تعيش وسط جنودها وتتناول طعامها معهم وتنام بينهم . وقد بلغت من قوة الشخصية وعمق التأثير بحيث لم يجرؤ جندي أو ضابط على أن ينظر إليها نظرته إلى امرأة شابة مليئة بالحيوية والجاذبية الأنثوية . وكانت جان دارك تثير الرجال فعلاً ، ولكنها كانت تثيرهم لكي يندفعوا إلى القتال وحمل السلاح وخوض المعارك فى بسالة واستعداد للتضحية تحت قيادة هذه المرأة الساحرة

العجيبة . وهكذا لم يكن " استرجال " جان دارك أمرا يثير الغضب من جانب أحد أثناء كفاحها وقيادها للمعارك العسكرية ، فقد وثق الجميع بها وحاربوا تحت رايتها وآمنوا برسالتها التي أعلنتها وهي رسالة تحرير فرنسا وتوحيدها . وقد كان للقبول العام باسترجال " جان دارك " أسباب معقولة ، فقد أثبتت هذه البطلة أنها على كفاءة استثنائية في تخطيط المعارك الحربية ، ونجحت في قيادة الفرنسيين وتحقيق النصر لهم بعد أن كانوا قبل ظهورها لا يتوقعون شيئاً غير الهزيمة . والمنتصر دائماً حجته قوية وبرهانه قاطع وقد كانت جان دارك منتصرة ، ولذلك فقد كانت حجتها في الاسترجال مقبولة ، ولم يستطع أحد أن يجادل فيها أو ينظر إليها نظرة شك واستخفاف .

من ناحية أخرى كانت " جان دارك " تقول إنها تسمع صوتاً يلهمها ويدفعها إلى العمل، وهو صوت بعض القديسين والقديسات. أي أنها كانت تتلقى الوحي والإلهام من قوة خفية لا تراها العيون. ولم تكن " جان دارك " تدعى " النبوة " فقد كانت الدنيا كلها في عصرها تعتقد أن زمن الأنبياء قد انتهى ، ولم يعد العالم بحاجة إلى أنبياء . فالله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى الناس ما يكفى من الأنبياء لإصلاح أنفسهم ودنياهم ، ولم تعد المشكلة هي الحاجة إلى نبي جديد ولكن المشكلة هي أن يؤدى البشر واجبهم في الإيمان والسلوك الطيب الذي دعاهم إليه الأنبياء والمرسلون . بالإضافة إلى ذلك كله فإن تاريخ الأديان قد عرف "الأنبياء" ولم يعرف أبداً ظهور " نبية ".

على أن جان دارك كانت تملك من الاستقامة والتواضع والصدق والأمانة ما يمنعها من إدعاء " النبوة " ولذلك فهي لم تقل أبداً إن الأصوات التي تسمعها كانت توحي إليها بأنها صاحبة رسالة جديدة من الرسالات الإلهية ، بل كانت تقول إن هذه الأصوات إنما

إن الأصوات التي تسمعها كانت توحي إليها بأنها صاحبة رسالة جديدة من الرسالات الإلهية ، بل كانت تقول إن هذه الأصوات إنما توجهها إلى ما فيه الخير لوطنها وشعبها وتدعو إلى الجهاد من أجل وحدة فرنسا وحريتها .

والعلماء المعاصرون يؤكدون إمكانية حدوث ما كانت تقول به جان دارك ، أي إمكانية أن يكون هناك أشخاص يستمعون أصواتاً أو ما يشبه الأصوات ، مما يتردد فى عقولهم ونفوسهم وبعض العلماء يعتبرون أن هذه الظاهرة هي موهبة خاصة يتمتع بها عدد من الناس .

وهناك علماء آخرون يرون أن هذه الأصوات التي يسمعها البعض هي علامة على مرض " انفصام الشخصية " وهو مرض نفسي يتحول فيه الشخص الواحد إلى شخصين يتحدثان إلى بعضهما البعض، والاسم العلمي لهذا المرض هو"الشيزوفرينيا" وليس موضوعنا هنا هو سماع الأصوات ولكن الموضوع الأساسي هو " استرجال " بعض النساء وهل يمكن أن ينجح ذلك أم أنه يتحول إلى أمر شاذ ترفضه الطبيعة ويستنكره الناس ؟.

وبالنسبة لجان دارك فإنها قد نجحت فى استرجالها خلال قتالها من أجل وحدة بلادها وحريتها وكانت هناك ضرورة لهذا "الاسترجال" فلم يكن من السهل أن تقود جان دارك جيوش فرنسا بنفسها وهى لا تزال فى ثوب النساء .

ومع ذلك كله فقد انتهى " استرجال " جان دارك إلى مأساة ولم يكن الأمر راجعاً إلى استرجالها ولكنه كان راجعاً إلى الظروف المحيطة بها . فبعد أن انتهى القتال بين فرنسا وانجلترا دخلت العلاقات بين البلدين إلى ميدان السياسة .وفى السياسة مناورات ومصالح وتنازلات هنا وهناك ، بالإضافة إلى ما فيها من دهاء وحسد وغيرة .

وقد وقعت جان دارك لسوء حظها فى هذه المصيدة السياسية ، رغم أنها لم تكن بطبيعتها المستقيمة السامية تملك شيئاً من دهاء السياسيين وقدرتهم على الكذب والمناورة ، ولذلك فقد تعرضت جان دارك للمحاكمة بعد انتهاء القتال وتم إعدامها حرقاً نتيجة لمؤامرة انجليزية فرنسية مشتركة . فقد كان الانجليز يريدون الانتقام منها لما ألحقته بهم من هزيمة ، وكان السياسيون الفرنسيون يفضلون التخلص منها لأنها كانت أعلى وأرفع منهم ، ولو بقيت على قيد الحياة فإن الشعب سوف يلتف حولها وينسى غيرها ، وقد يؤدى هذا الأمر إلى الإطاحة بجميع السياسيين والقادة الآخرين وهو ما لا يريد أحد أن يسمح به .

كان على رأس الاتهامات التي تم إعدام جان دارك بسببها هو أنها " استرجلت " ولبست ملابس الرجال . وقد وجد أعداؤها فى هذا السلوك فرصة لاتهامها بأنها خرجت على الطبيعة وعاندت إرادة الخالق العظيم . كذلك كان من بين الاتهامات الموجهة إلى جان دارك اتهام آخر هو الكفر والإلحاد لقولها بأنها كانت تسمع أصواتاً تلهمها بما هو واجب وحق وصواب .

وهكذا نجحت جان دارك عندما " إسترجلت " فى معاركها العسكرية التي انتهت بالنصر ، ولكن " إسترجالها " لم ينجح عندما بدأت السياسة تلعب دورها المليء بالالتواء والدهاء والرغبة فى الانتقام من جانب الانجليز ، أما الفرنسيون فقد أرادوا أن يستريحوا من عبء هذه المرأة التي حققت ما كانوا يحتاجون إليه من انتصار ، و لم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون بها أو معها.

ومرت الأيام وتمت إعادة محاكمة جان دارك وتبرئتها من كل التهم الملصقة بها سنة ١٤٥٦ ، آي بعد إعدامها بخمس وعشرين سنة ثم مرت سنوات طويلة أخرى وقررت الكنيسة سنة ١٩٢٠ اعتبار

جان دارك قديسة من قديسات المسيحية ، وهكذا ينظر إليها العالم المسيحي الآن .

إذن فهناك فى التاريخ نساء " مسترجلات " وأشهرهن ولا شك هي جان دارك. على أن استرجال جان دارك كان استثنائياً وكانت له ظروفه الخاصة التي جعلته ناجحاً ومؤثراً وضروريا ونافعاً للوطن والشعب والإنسانية . وبصورة عامة فإن استرجال النساء إذا كان ضرورياً ، وغير مفتعل ، وظهر فى ظروفه المناسبة وكانت له أسباب قوية ، فإن هذا الإسترجال ينجح فى أداء دوره . وقد تتعرض المرأة بسببه للأذى الشديد كما حدث لجان دارك . ولكن هذا الأذى هو ثمن لا بديل له فى مقابل الأهداف الكبيرة التي حققتها تلك المرأة العظيمة المسترجلة : جان دارك . ولولا ألاعيب السياسة والغيرة من النجاح المذهل الذي حققته ، فإن جان دارك فى أغلب الظن كانت سوف تنجو من نهايتها المأساوية الحزينة ، وربما انتهى بها الأمر للعودة إلى قريتها لتعيش حياة طبيعية وتتزوج بعائلة بسيطة مستقرة ، فلم تكن جان دارك تحلم بسلطان أو نفوذ أو ثروة ولكنها كانت تؤدى رسالة آمنت بها إيمانا مطلقاً واسترجلت لأن ضرورات المعارك العسكرية كانت تفرض عليها ذلك ، ولم تسترجل من باب الشذوذ أو لفت الأنظار ، أو من أجل التعويض عن نقص فى أنوثتها .. فلم تكن جان دارك تشعر بأي نقص.

وسوف نجد فى صفحات التاريخ نساء أخريات استرجلن ونجحن فى ذلك ، ومنهن الملكة " اليزابيث الأولى " التي حكمت انجلترا من سنة ١٥٥٨ إلى سنة ١٦٠٣ ، أي لمدة خمس وأربعين سنة متصلة ، وقد استرجلت هذه الملكة بكل معاني الاسترجال ، وتولت الحكم وكانت انجلترا فى أسوأ حال ، فقد انتشر فيها صراع كبير بين

الطوائف الدينية المختلفة ، وخاصة بين الكاثوليك والبروتستانت، وكانت الخزانة البريطانية مفلسة ومثقلة بالديون وعندما بدأت اليزابيث حكم البلاد .. وبصورة عامة كانت بريطانيا فى الحضيض . ولكن "اليزابيث" قضت على الصراعات الدينية ووحدت بريطانيا تحت لواء المذهب " البروتستانتي " ثم تخلصت من كل الديون ، ودخلت معارك عسكرية كبرى انتصرت فيها جميعا ، وأصبحت انجلترا فى عصرها أقوى بلد فى أوروبا بل وفى العالم كله فى ذلك الوقت . وفى عصر "اليزابيث" نهضت انجلترا نهضة كبيرة فى كل المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية والفنية .

ويكفى أن نعرف أن عصر اليزابيث هو العصر الذي ظهر فيه شيكسبير وارتفع نجمه الساطع فى سماء الأدب الانجليزي والأدب العالمي ، ولا يزال نجمه ساطعاً إلى الآن . وعن الملكة اليزابيث الأولى يقول أحد المؤرخين إنها استطاعت أن تجمع حولها كل عباقرة انجلترا فى أزهى عصورها . وقد كانت النتيجة الأساسية لاسترجال هذه الملكة أنها رفضت الزواج تماماً ، رغم أن الذين تلهفوا على الزواج منها كانوا بالعشرات من بين عظماء انجلترا والقارة الأوروبية وكان بينهم الملوك والأمراء والنبلاء . وقد لعبت " اليزابيث " بمشاعر الجميع ومدت إليهم خيوطاً رفيعة من الأمل ، وفى النهاية لم تتزوج أحداً منهم، وماتت سنة ١٦٠٣ وهى عذراء فى السبعين من عمرها .

من خلال هذين النموذجين للمرأة المسترجلة، وهما جان دارك والملكة اليزابيث، يبدو لنا أن المرأة المسترجلة يمكن أن تنجح فى استرجالها إذا كان لها هدف كبير تريد أن تحققه ولو ضحت بنفسها وأنوثتها فى سبيل ذلك . ولابد لمثل هذه المرأة المسترجلة من أن تعتمد على نفسها فقط وتكون قادرة على ذلك، لأن استرجال المرأة يبدو

شذوذاً يثير النفور والاعتراض إذا كان قائماً على هدف صغير تافـه ، أو إذا كان تعويضاً لنقص تشعر به المرأة ، كما أن استرجال المرأة لابد أن يؤدى إلى نتائج مفجعة إذا حاولت المرأة المسترجلة أن تستخدم رجلا يلعب الدور الذي تريده ويحقق أهدافها هي ، على أن تنأى بنفسها عن الصورة وتحرك الأحداث من وراء ستار . وفى مثل هذه الحالات فإن استرجال المرأة لا يعود عليها أو على من حولها إلا بالشر والنهايات المأساوية الحزينة .

وهنا نصل إلى وقفة أخيرة مع بطلة مسرحية " ماكبث " لشيكسبير وهى "الليدى ماكبث " فهذه المرأة التي قدمها إلينا شيكسبير هي امرأة مسترجلة أيضاً ولكنها لم تنجح فى استرجالها لأنها كانت تفعل ذلك لأسباب شخصية صغيرة ، كما أنها كانت تعبر باسترجالها عن عقدة نقص فى شخصيتها النسائية الأصلية وأخيراً فإن هذه المرأة المسترجلة قد استخدمت زوجها القائد الناجح ماكبث لتحقيق أهدافها الخاصة وحرضته على ارتكاب جريمة كبيرة هي قتل الملك "دنكان " ليصبح ملكاً بدلاً منه ، وتصبح " الليدى ماكبث " ملكة أيضاً وبذلك يتحقق لها طموحها الجنوني الذي كانت تحلم به . وقد نفذ " ماكبث " الجريمة التي كان متردداً فى ارتكابها ، ولكن تحريض زوجته أعماه ودفعه دفعاً إلى ذبح الملك الذي كان يثق به ويحترمه ويحبه كأنه أحد أبنائه . وأصبح "ماكبث" ملكا بدلا من الملك القتيل . ولكن " ماكبث " انهار أمام أعدائه الذين اكتشفوا جريمته فحاربوه وقتلوه . أما " الليدى ماكبث " فقد سقطت ميتة بعد أن حققت طموحها وأصبحت ملكة . وقد انهارت بعد الجريمة التي ارتكبها زوجها بتحريض منها وأصيبت بما يشبه الجنون ، وطاردتها أحلام مزعجة وكوابيس ثقيلة بل لقد أصبحت هذه المرأة بعد الجريمة تعانى من أحلام اليقظة وترى أمامها أشباحاً فى كل مكان ، وأصيبت

بذلك المرض الخطير وهو المشي أثناء النوم ، ولم تتحمل ذلك فسقطت ميتة .

ومن المعروف أن مسرحية "ماكبث" تعتمد فى أحداثها الرئيسية على أصل تاريخي . وقد وردت هذه الأحداث فى كتاب المؤرخ الإنجليزي " رافائيل هولنشيد " المتوفى سنة ١٥٨٠ ، واسم الكتاب هو " أخبار انجلترا واسكوتلندا وايرلندا " . ولكن شيكسبير لا يتوقف عند سرد الأحداث التاريخية ، وإنما يقدم تفسيراً وتحليلاً للعواطف العميقة والدوافع الخفية التي تقف وراء الأحداث وتتحكم فى تصرف الشخصيات . وهذا هو سر الجمال والعبقرية عند شيكسبير . ولا شك أن شخصية " الليدى ماكبث " هي من أفضل الشخصيات التي رسمها شيكسبير فى أعماله المسرحية ، وهى نموذج حي للمرأة المسترجلة التي يقودها استرجالها إلى نهاية مأساوية .فقد تدخلت هذه المرأة فى أمور الدولة وهى لا تفهم شيئاً فى ذلك ، ولم يكن لديها هدف نبيل تسعى إلى تحقيقه ، وكانت فى الأصل تعيش مع زوجها القائد العسكري الناجح فى سعادة وأمان ولكنها طمعت فيما ليس لها حق فيه ، وهو أن تجعل زوجها ملكا وأن تكون هي نفسها ملكة ، ولم يكن هناك سبيل لتحقيق هذه الطموحات سوى الجريمة ، فحرضت " الليدى ماكبث " زوجها على الجريمة ، ودفعته دفعاً شديداً إلى ارتكابها ، ولم تفكر فيما وراء الجريمة ، أو فيما يمكن أن يترتب عليها من نتائج خطيرة تنشر الفوضى وتعصف بسعادة الجميع وفى مقدمتهم من يرتكب الجريمة ومن يحرض عليها. فكل مكسب يترتب على الجريمة هو مكسب زائف لا أمان ولا دوام له.

إن استرجال " الليدى ماكبث " لم تكن له دوافع قوية وعالية مثلما كان الحال فى استرجال جان دارك أو الملكة اليزابيث "، بل

كانت دوافعه شخصية وصغيرة وعاجزة تماماً عن رؤية ما يمكــن أن يأتي به المستقبل . وكان هناك جانب آخر دفع " الليدى ماكبث " فى مسرحية شيكسبير إلى الخطيئة التي وقعت فيها . هذا الجانب هو إنهــا كانت تعانى من شعور شديد بالنقص لأنها لم تنجب أطفالاً ولم تكن قادرة على الإنجاب ، أي أنها كانت محرومة من نعمة الأمومة ، وهناك نساء كثيرات فى هذه الدنيا لم يكتب لهن الله أن ينجبن أطفالاً ولكنهن لم يتجهن إلى الشر ، بل اتجهن بالعاطفة الكامنة فيهن إلى الخــير ، ولم يقتلن عاطفة الأمومة فى نفوسهن وارتفعن بها وامتلأن بالحنان نحو كل من يعيش حولهن من أزواج أو إخوة أو أطفال قريبين لهن أو بعيــدين عنهن . ولكن " الليدى ماكبث " عندما أدركت أنها محرومــة مــن الإنجاب انحرفت بعواطفها الطبيعية ، إسترجلت دون حاجة أو ضرورة تفرض عليها ذلك ، وامتلأت بالحقد والطمع والشهوة غــير العاديــة للسيطرة على ما ليس لها حق فيها ، أي أن فقدان الأمومة قد دفع بها إلى حب الانتقام ، وهذا ضعف فى شخــصيتها وانحــراف كــبير فى روحها ونفسيتها . وقد كان طريق السلامة والسعادة مفروشاً أمامها بالورد ، لو أنها رضيت بما هي فيه من مكانة عالية رفيعــة فى ظــل زوجها القائد الناجح ، وحولت عاطفة الأمومة فى داخلها إلى فــيض من الحنان والإنسانية ، ورضيت بأن تعيش أيامها فى سعادة تــشملها وتشمل معها كل من يتصل بها .

وهكذا يكون استرجال المرأة نافعاً ومفيداً ومثمــراً إذا كــان وراءه هدف قوى وكبير ، ولكنه يكون عيباً ومقدمة لشرور كثيرة إذا ما " استرجلت " المرأة لتحقيق أهداف شخصية صــغيرة . وبــصورة عامة فإن استرجال المرأة هو شذوذ وخروج على الطبيعة ، وقد تضطر إليه بعض النساء فى حالات استثنائية . وهذه الحالات دائماً تفــرض على المرأة " المسترجلة " تضحيات قاسية ، ولذلك فمــن الواجــب

مقاومة الميل للاسترجال عند النساء .. إلا إذا كانت المرأة ترى ضرورة لذلك من أجل إنقاذ وطن وشعب كما فعلت جان دارك ، أو من أجل تحرير بلادها من التدهور والانهيار والحروب الأهلية كما فعلت الملكة اليزابيث الأولى.

أما أن تسترجل المرأة كما فعلت " الليدى ماكبث " بدوافع شخصية صغيرة فإن ذلك لا يمكن أن يقود إلا إلى المهالك.

ولابد من الإشارة أخيراً إلى ما قد تضطر إليه بعض النساء العاديات من "الإسترجال " تحت ضغط ظروف خاصة تجعل من المرأة مسئولة عن نفسها وأولادها وعائلتها وتفرض عليها مواجهة الحياة وخوض معاركها الصعبة القاسية، وفى مثل هذه الحالات يكون "الاسترجال" مفهوماً وله تبريره وتفسيره، بل ويمكن الدفاع عنه والشعور نحوه بالتقدير والاحترام .



نساء ثائرات .. مبتسمات

الشخصيات الرئيسية فى هذا الفـــصل هي :
جولييت ـــ ديدمونة .
روميو ـــ عطيل .



المرأة فى الأدب الإنساني كله هي رمز للحياة ولا يوجد أديب حقيقي موهوب إلا كانت المرأة بالنسبة له موضوعاً أساسياً ، وهـى دائماً طرف قوى من أطراف الصراع الإنساني الذي يصوره الأدباء ويعبرون عنه .. والأدب الذي يخلو من دور المرأة هو أدب جاف يخلو مما ينبغي أن يتوافر للأدب الجميل من لطف وتأثير ونعومة وعاطفـة ، وهو أدب يخلو ــ فوق ذلك ــ من الفهم الصحيح للحياة والتعـبير عنها بصدق وعمق وأمانة وقد أحسن اليونانيون القدماء عندما قالوا فى أساطيرهم إن المرأة والرجل هما فى الأصل كائن واحـد انقـسم إلى قسمين وكل قسم من هذين القسمين يسعى للبحث عن قسمه الآخر أو نصفه الآخر كما نقول الآن ، وعندما يلتقي القسمان أو النـصفان يولد الحب وتتحقق السعادة وتستمر الحياة أما إذا خاب السعي ، ولم يلتق القسمان مع بعضهما البعض فالحب لا يكون والسعادة لا تكون . والحياة تصبح خريفاً دائماً أوراقه صفراء وآلامه كثيرة والربيع فيـه غائب بجماله وما فيه من قدرة كبيرة على أن يبعث الحياة فى الأوراق الذابلة .

الحياة بدون المرأة لا معنى لها . وكذلك الأدب الجميـل فـلا جمال فى الأدب دون أن تكون المرأة لها مكانة أساسية فيه ، لأن المرأة

فى الأدب هي مفتاح المفاتيح كلها فى فهم الإنسان والاقتـراب مـن أسرار الوجود .

والشاعر الانجليزي العالمي وليم شيكسبير "١٥٦٤- ١٦١٦" هو واحد من أكبر الأدباء الإنسانيين العظماء الذين حاولوا فى كل ما كتبوه أن يعالجوا المشكلات الكبرى للإنسان والحياة . والمـشكلات الكبرى هي تلك المشكلات الموجودة مع الإنسان منذ ظهوره علـى الأرض ، وسوف تظل باقية معه إلى النهاية، أي أنها مشكلات لا تتأثر بالزمان أو المكان ، فهي موجودة فى كل عصر، وموجودة فـوق أي جزء من الأرض فيه بشر يتعاملون مع بعضهم البعض، ويتعاونون على الحياة أو يتصارعون حولها من أجل البقاء ..

والمرأة فى أدب شيكسبير هي موضوع أساسي دائم ، وهى فى هذا الأدب تجسيد كامل للحياة نفسها بما فيها من خير وشر ، بحيث نستطيع أن نقول إن رؤية شيكسبير للمرأة هي نفسها رؤيته للحيـاة كلها . وشيكسبير كما يجمع الباحثون والنقاد ليس من الأدباء الذين يقدمون فى أدبهم آراء يتعصبون لها أو يدافعون عنها ، ولو حاول أحد أن يقدم دراسة عن آراء شيكسبير الخاصة به وحده لما وجد شيئاً من ذلك على الإطلاق ، لأن شيكسبير لا " يفتى " بشيء ولا ينصح أحداً بشيء ولكنه أديب وفنان يصور ما يراه وينقل فى أدبه ما يحس به من أمور الحياة وهو أشبه بالكاميرا الدقيقة التي تنقل صورة طبق الأصـل للواقع الإنساني ، ولكن هذه " الكاميرا " هي كاميرا موهوبة جداً وقد منحها الله قدرة على العمق والنفاذ ، وأعطاها " عينا سحرية " قادرة على رؤية ما لا تراه عيون الآخرين ، وقارئ شيكسبير يستمتع بعالمه الأدبي والفني بسبب ما فيه من جمال عجيب وتنوع غير محدود ، ولكن جوهر القيمة والأصالة فى أدب شيكسبير هو أنه أدب يكشف الستار

عن واقع الحياة وعواطف الإنسان الظاهرة والخفية وتلك هـي قيمـة شيكسبير الكبرى ، أما الذين يبحثون فى أدبه عن واعظ ينصحهم ، أو مذهب من مذاهب الحياة يؤمنون به أو يسيرون على هداه فلن يجدوا من ذلك شيئاً على الإطلاق ، لأن شيكسبير ليس واعظاً ولا خطيبـاً ولا ناصحاً لأحد ولا صاحب مذهب من المذاهب ولكنة فنان "يرى" ويقدم رؤيته للناس والحياة ، فتدهشنا هذه الرؤية بعمقهـا وجمالهـا وصدقها . وشيكسبير يقول لنا فى أدبه كله : هذه هي الدنيا وعليكم أن تأخذوها كما هي وأن تفهموها على وجهها الصحيح كما خلقها الله.

ولعلنا لو أغمضنا عيوننا بعد قراءة أعمال شيكسبير الرئيـسية وتساءلنا ما هو القول " المختصر " الذي يريد هذا الفنان العظـيم أن يقوله بأعماله الفنية البديعة؟!.. لو أننا طرحنا مثل هذا السؤال فأغلب الظن أن الإجابة الصحيحة سوف تكون هي أن شيكسبير يقـول إن الحياة كلها تقتضى من الإنسان أن يتواضع " فالكبـار والأقويـاء " والذين كانوا يظنون أنهم فوق كل الظروف والأقدار والمصادفات .. هؤلاء جميعاً قد سقطوا وتعرضوا للآلام والمتاعب وإن كانت الدنيا قد ابتسمت لهم يوماً فإنها قد تخلت عن ابتسامتها فى أيام أخرى كـثيرة وإذا كان هذا هو حال الأقوياء والكبار فأنه حال يتكرر مع النـاس العاديين، فالدنيا لا تبتسم ابتسامة دائمة بل إن ابتسامتها هي فـصل واحد من فصول الحياة وبعدها تأتى فـصول أخـرى لـيس فيهـا ابتسامات، هذا كله يفرض على الإنسان أن يتواضع وان يبتعد تمامـاً عن الغرور والتعالي مهما كانت مكانته ومهما كانت قوته.

وهكذا فإن رؤية شيكسبير الكبرى فى أعماله الأساسية هـي دعوة إلى التواضع الإنساني الصادق. إن شيكسبير يقول لنا : تواضعوا

فلن تكونوا أكبر من الملوك الذين سقطوا من عروشهم وهم فى عز قوتهم ولن تكونوا أقوى من أصحاب السلطان الذين كانوا فى القمة وظنوا أن الدنيا قد أصبحت خادمة لهم وتابعة لأهوائهم ولكنهم تدحرجوا من فوق القمة فجأة وأصبحوا لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً . ومع ذلك فإن شيكسبير لا يقول لنا هذا بطريقة مباشرة ولكنه يقدم إلينا فى أدبه وقائع و نماذج بشرية تؤكد صحة دعواه فى المناداة بضرورة التواضع عند كل إنسان يريد لنفسه النجاة من شرور الحياة المفاجئة . وشيكسبير لا يصاحبنا فى أدبه إلى فهم الحياة على حقيقتها إلا ومعه عدة مفاتيح أساسية والمرأة على رأس هذه المفاتيح جميعاً ومن يفهم المرأة عند شيكسبير يكون قد قطع شوطاً واسعاً فى فهم الحياة وفهم الإنسان.

فكيف كانت النساء الأساسيات عند شيكسبير ؟

إن فى استطاعتنا عند الإجابة أن نجد عند شيكسبير ألواناً من النساء وكل لون من هذه الألوان يمثل طريقة فى فهم الحياة والتعامل.

و أول وأجمل نموذج نسائي عند شيكسبير هو المرأة الثائرة ضد خطأ من أخطاء الواقع وثورة هؤلاء النساء تبدأ من وجود وضع غير سليم تصطدم به المرأة وترى فيه ما يقف فى وجهها ويمنعها من تحقيق السعادة التي تريدها وتسعى إليها وترى أن من العدل ألا يخيب سعيها فى سبيل هذا الهدف الطيب النبيل وهذا النموذج من النساء يبدأ رحلته الصعبة من البراءة والصدق مع النفس ، فالنفس البريئة ترفض الأخطاء وتعترض على القيود التي تقوم على أساس غير سليم والنفس البريئة تكون عامرة بالقوة التي تساعد على الرفض والاعتراض. والأبرياء كثيراً ما يتحولون إلى ما يمكن أن نصفه بأنه عناد وبسالة فى مواجهة الظروف. فالنفس البريئة تدافع عما تؤمن به دفاعاً لا تهاون فيه لأنها

تشعر بأن إيمانها صادق وأن رؤيتها حقيقية وان كل شيء يقف ضد الهدف ينبغي الاعتراض عليه والتحدي له مهما كان السمع ، فالبراءة إذن بها قوتها وإرادتها ولا يجوز لأحد أن يتصور الطيبين على أنهم ضعفاء أو فيهم سذاجة . فالبريء لا يتردد ولا يعرف ذلك الذي يقال له في أحاديثنا اليومية انه " عين في الجنة وعين في النار " فالبريء لا يرى أمامه جنته إلا في هدفه الذي آمن به وأعتقد في أنه هدف صحيح .

وهذا النموذج للبراءة وللإيمان العنيد تمثله " جولييت " في مسرحية " روميو وجولييت " فالفتاة الجميلة " جولييت " شعرت بالحب يملأ قلبها للشاب النبيل "روميو " وشعرت جولييت أيضاً بأن حبيبها يحبها بنفس الدرجة وأنه إنسان شريف يتطلع إلى هدف شريف أيضاً هو الزواج من حبيبته . أي أن " روميو " لم يكن شاباً لعوباً عابثاً يفكر في خداع حبيبته والاستيلاء على قلبها وعقلها وقضاء أيام ممتعة معها ثم الهروب بعد ذلك ونفض اليد من تحمل المسئولية . والحب الحقيقي هو مسئولية كبيرة يتحملها العاشق في سعادة مهما كانت هذه المسئولية صعبة وثقيلة . الحب بدون مسئولية هو حب زائف وكذاب .

و" جولييت " العاشقة الصادقة البريئة وجدت عقبة عسيرة جداً تقف في وجه حبها ، وهذه العقبة هي أن عائلتها كانت على خلاف طويل وثأر قديم مع عائلة حبيبها " روميو " .

وهنا جاءت ثورة " جولييت " فقد ثارت " جولييت " على هذا الوضع ورفضت أن تستسلم له ، وقررت أن تخوض معركة طويلة من أجل الدفاع عن حبها الجميل . ولكن الخلاف بين العائلتين ظل يطارد الحبيبين حتى انتهى بهما إلى الموت معاً وأصبح من حقهما أن

يكونا شهيدين للحب القوى العفيف الذي يفضل فقدان الحياة نفسها على الحياة... بلا قلب .

وهكذا انتهت ثورة " جولييت " على الأوضاع الخاطئة المحيطة بها إلى نهاية مأساوية ، فقدت جولييت فيها حياتها . ولكنها فقدتها جنباً إلى جنب مع حبيبها الذي سقط معها شهيداً فى نفس المعركة .

هل خسرت البريئة الجميلة جولييت حياتها من أجل لا شيء ؟ وهل كانت ثورتها على الأوضاع الخاطئة ثورة بلا جدوى ولا نتيجة ؟ الحقيقة أنه عندما نتأمل ثورة "جولييت" سوف نجد أنها كانت ثورة حققت أهدافاً كبرى لا شك فى قيمتها وأهميتها ، فعائلة جولييت وعائلة حبيبها روميو عندما عرفتا بتفاصيل المأساة فإن هاتين العائلتين تصالحتا وأنهيتا قصة الخلافات الطويلة بينهما وعاد إليهما سلام صادق أصيل .

فكأن جولييت قد دفعت ثمن السلام العائلي الذي كانت تحتاج إليه لتحقيق ما كانت تتمناه من السعادة فى ظل الحب الحقيقي الناجح.

وتلك هي طبيعة الحياة . فما من هدف كبير يتحقق إلا بعد كفاح طويل من أجل تحقيقه، وكثيراً ما يحتاج هذا الهدف إلى تضحية، فبدون التضحيات الغالية لا تتحقق الأهداف العالية.

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن جولييت قد خسرت حياتها وضحت بنفسها ، وهذه خسارة لا شك فيها ، وهى خسارة كبيرة وليست صغيرة .ولكن جولييت بتضحيتها نجحت فيما لم تنجح فيه أجيال متعاقبة من العائلتين المتحاربتين اللتين تعودتا على أن تكون العلاقة الوحيدة بينهما قائمة على إسالة أكبر قدر من الدماء على الجانبين ولكن بعد أن ماتت جولييت وحبيبها روميو شهيدين للحب

الذي قتلته العلاقة السيئة بين العائلتين. تعلم الجميع درساً لا يمكن نسيانه ، وهو أن السلام والتعاون والمحبة بين العائلتين ، هو طريق الأمن والهدوء والسعادة والمحافظة على الحياة فتخلصت العائلتان بفضل تضحية العاشقين من الأحقاد والرغبة المريرة فى الثأر وانطلق نهر الحياة يجرى من جديد بالخير والنعمة والصفاء.

على أن جولييت عندما ضحت بنفسها قد حققت هدفاً سامياً آخر هو إعادة الاعتبار والاحترام والإجلال لعاطفة الحب ، فقد أصبحت جولييت رمزاً للحب الجميل المخلص الصادق المستعد للقتال من أجل حماية هذه العاطفة الإنسانية العالية ، وجعلت جولييت من الحب قوة تساعد صاحبها على الاستشهاد فى رضا وابتسام وفى كل عصر ، وفى كل مكان على الأرض أصبحت جولييت رمزاً للحب ثابتاً وقوياً ومليئا بالإشعاع . وفى ذلك رد اعتبار كبير جداً للحب . لأن الحب كان عاطفة تنظر إليه المجتمعات الإنسانية فى كثير من الأحيان على أنها عاطفة تدل على الضعف ، وأنه مظهر من مظاهر اللهو والترف والعبث، وأنه أمر ينبغي على صاحبه أن يخجل منه ويخفيه وألا يعلنه ويجاهر به ولا تزال الثقافة الإنسانية تخضع لمثل هذه الفكرة عن عاطفة الحب وهذه الثقافة تضغط لكي تبقى من الحب سراً لا يتم إعلانه على الناس ، لأن فى إعلانه ما يجعل وجوه أصحابه حمراء من الحياء فكأنهم فى حبهم قد وقعوا فى خطأ شائن ينبغي عليهم أن يستروه بالصمت .

وفى هذا المناخ الإنساني أصبح الحب أمراً يتحدث عنه الأدباء والفنانون فى حرية، بينما يخشاه الناس العاديون ويبذلون أكبر الجهد للمداراة عليه ، وكأنهم لا يحبون وإنما يتآمرون . وفى مثل هذا المناخ تشرق شمس " جولييت" لتقول للإنسانية كلها توقفوا عن هذا الإشهاد

المعنوي للعشاق ، فالعشاق هم شهداء أو مشروع للشهداء .والحب الأصيل عاطفة كريمة قوية، وليست عاطفة تثير الخجل أو تدل على الضعف والانهيار.

وما فعلته جولييت فى مسرحية "روميو وجولييت" فعلته "ديدمونة" فى مسرحية "عطيل" فقد حاربت جولييت ضد العداء الموروث بين عائلتين كبيرتين، تتحاربان وتخوضان قتالاً مستمراً بدافع من الثأر لأحداث قديمة وقعت فى أجيال سابقة ، ولم يسقط أثر هذه الأحداث بالتقادم كما يقال فى القانون . ولم يسقط من ناحية أخرى لأن العقل والحكمة والعدالة ترفضها ، فما ذنب الأجيال الجديدة حتى تدفع ثمن أخطاء وقع فيها الآباء والأجداد بالرغم من أن هذه الأجيال الجديدة لم ترتكب خطأً من أي نوع ، ومع ذلك فهي تقع تحت ضغط العقاب بالوراثة ، أي أن الأجيال الجديدة قد ورثت التهمة حتى وهى فى بطون أمهاتهم . وذلك أمر تنكره العدالة وينكره المنطق وفيه إفساد كامل للحياة.

هذا ما كافحت ضده جولييت ونجحت فى كفاحها وإن كانت قد دفعت ثمناً غالياً هو حياتها وحياة حبيبها "روميو" ولكن عظمة التضحية هنا تتأكد لنا من أن جولييت قد قامت بهذه التضحية وهى راضية تماماً ، فرسالتها فى الدفاع عن الحب والعدالة تستحق ما بذلته من ذات نفسها فى قناعة كاملة ورضاء تام.

أما " ديدمونة" فإنها دافعت عن قضية أخرى هي قضية المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات حسب إمكانات كل إنسان ، وليس خضوعاً لذلك الانحراف الإنساني الذي أقام تفرقة بين الناس على أساس اللون . فالأبيض له حق كامل فى الحب والحياة أما الأسود والأصفر والأسمر ، فحقهم فى ذلك محدود، بل هو غير موجود فكيف

يقبل العقل الحر ذلك الأمر ؟ لقد كانت " ديدمونة" إنسانة صافية وصاحبة عقل حر لا يقبل الالتواء ولا يستوعب معاني الظلم ، ولذلك أحبت "ديدمونة" البيضاء رجلاً أسود اللون هو "عطيل " أحبته لأنه جدير بالحب ، فهو قائد عسكري نابغ ، وإنسان صاحب قلب كبير وثقافة واسعة ولسان عذب وسلوك نبيل. المجتمع يقول: إن عطيل إنسان ناقص لأنه أسود . أما ديدمونة فإنها لا تستوعب مثل هذه الأحكام ، لا بعقلها ولا بقلبها ، فهي على العكس من ذلك تحس بأن عطيل شخص عظيم وجميل ونبيل لأنه بالفعل شخص عظيم جميل ونبيل .فهو مثال للكمال الأخلاقي والحضاري كما أنه مثال للكمال الجسماني أيضاً فكيف تضيع هذه الكمالات كلها لمجرد أن عطيل .. أسود؟!.

والحقيقة أن الاضطهاد بسبب اللون الأسود بالتحديد ليس مقتصراً على أوربا والغرب. فهو موجود فى الشرق أيضاً وهذا النوع من الاضطهاد هو سقطة وقع فيها التاريخ الإنساني كله . ولا تزال هذه السقطة قائمة فى اللغة ، فلغات العالم كلها — بما فيها اللغة العربية — تصف الحقد بأنه أسود. وتصف بالسواد كل ما هو سيئ فى هذا الوجود ، والحق أن هذه السقطة فى لغات العالم كله ينبغي أن تزول ، فلا يليق بالإنسانية أن يبقى اللون الأسود فيها رمزاً لكل ما هو كريه. والانصراف هو أن يقال إن الناس والأشياء لا تختلف بالألوان، وإنما تختلف بالعقول والقلوب والقيمة الحقيقية، ولذلك فينبغي التخلص من استخدام اللون الأسود علامة على السوء والكراهية. فزهرة النرجس الرائعة سوداء ، وجمال الأفريقيات السوداوات هو من أروع ألوان الجمال فى هذا الوجود . وصاحب البشرة السوداء قد يكون صاحب قلب أروع ألف مرة من أصحاب الوجوه البيضاء.وتلك هي القضية التي ثارت من أجلها "ديدمونة" البيضاء الجميلة ، وماتت شهيدة فى

الدفاع عنها ، لأن أهلها أصحاب الوجوه البيضاء لم يتوقفوا عن التآمر ضد حبها الذي كانوا يعتبرونه خطأ وانحرافا ، أما هي فكانت تعتبره شرفاً ما بعده شرف.وكانت على حق عظيم ، أما أهلها فكانوا غارقين فى باطل غير محدود.

جولييت و ديدمونة امرأتان ثائرتان فى أدب شيكسبير ، وهما ثائرتان من أجل أهداف إنسانية رائعة، وقد ماتت " جولييت" وماتت "ديدمونة" وهما راضيتان بالتضحية الكبيرة من أجل أهدافهما النبيلة وأتصور أنهما معاً ماتتا وعلى ثغرهما ابتسامة تدل على الرضا ، "والتضحية المبتسمة" هي التضحية الحقيقية لأنها تتم بإرادة أصحابها ولا تتم بالرغم عنهم . أما التضحية الغاضبة فهي أقل فى قيمتها بكثير لأنها تضحية يقدمها أصحابها وهم مرغمون عليها.

جولييت وديدمونة هما نموذجان رائعان للثائرات المبتسمات .. فهن ثائرات من أجل أن تصبح الإنسانية أفضل وأجمل وأكثر عدالة.

❖

الحـب لايتكلم كثيرا

الشخصيات الرئيسية فى هذا الفصل هي:

١- **الملك لير**.

٢- **جوزيل** ــ ابنة الملك لير الكبرى.

٣- **ريجان** ــ الابنة الثانية .

٤- **كورديليا** ــ الابنة الصغرى .



هل يمكن للإنسان أن يتحمل النفاق وأن يجد فيه ما يسعده ويشرح صدره ؟ طبعاً ممكن وممكن جداً . ولكن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا تصور الإنسان أن "النفاق" ليس نفاقاً، ولكنه تعبير عن عواطف صادقة. أي أن الذي يتقبل النفاق لابد أن يخدع نفسه بإرادته أو من غير إرادته حتى يعتقد أن النفاق هو مشاعر طبيعية صحيحة ولا غبار عليها. ولاشك أن مما يساعد على إخفاء الوجه الحقيقي للنفاق، وهو وجه سيئ أن النفاق هو فن يعتمد على المكر والدهاء والقدرة العالية على إنطاق اللسان بالكلام الجميل ، والأكثر من ذلك أن النفاق هو فن صعب لأن المنافق بحاجة إلى قدرة كبيرة على الكذب فعليه أن يقول ما لا يؤمن وما لا يحسه فى قلبه وأن يقول ذلك بصورة جيدة وقادرة على الخداع والتأثير.

وهناك بعض علماء النفس المعاصرين يقولون رأياً غريباً ومدهشاً فى هذا المجال فهم يرون أن النفاق ليس له ضرر بل على العكس من ذلك فإنه يساعد على تسهيل الحياة ، فالمنافق بذكائه وحلاوة لسانه يصل إلى الهدف الذي يريده ، وهذا يسعده أما الذي يتقبل النفاق، ويتصور أنه تعبير صادق جميل ، فهو أيضا يشعر بالسعادة ، والشعور بالسعادة يعود على الإنسان بالنشاط والحيوية ويدفعه إلى الإقبال على الحياة فى همه وإرادة وتفاؤل. وعلى هذا

الأساس فإن النفاق لا يبدو ضاراً بل علاج نافع لمتاعب الحياة ،وهـــو "فيتامين" لتقوية الشعور بالرضا على النفس والإقبال على الدنيا والناس فى بشاشة وسرور.

ذلك رأى غريب ولاشك. ولا أظن أن علماء النفس الـــذي يقولون به يقصدون من ذلك الدعوة إلى النفاق ونقله من باب الرذائل البشرية إلى باب الفضائل. بل هم على الأغلب يقرون واقعاً ويسجلون ظاهرة حقيقية فى تاريخ الإنسانية فكثيراً ما ينجح المنافقون فى الوصول إلى ما يريدون ، وكثيراً ما يتقبل الناس النفاق ويرتاحون إليه ويسعدون به ويفضلون أصحابه على الذين يلتزمون بالــصراحة والنـــــزاهة فى القول والعمل. وما لم يترتب على النفاق من نتائج سيئة وخطيرة، فإن المنافقين يستطيعون النجاة بجائزة نفاقهم، أما الذين يتقبلون النفاق فهم يشعرون بأن هذا النفاق يقيم لهم نعيماً دائماً يعيشون فيه مـــا هـــي الحقيقة إذن؟!.

الحقيقة ليست مجرد كلام نظري، ولكنها تظهر أمامنـــا مـــن خلال الواقع والتجارب الإنسانية. وهذه الحقيقة تؤكد أن النفاق يضر ولا ينفع، وأنه مثل السراب له بريق وليس له وجود فعلى يروى ظمأ العطشان . والنفاق هو لون من ألوان الكذب. ولا يمكـــن أن يخـــرج الخير من معطف الكذب على الإطلاق.

وهذا ما يكشفه لنا "شيكسبير" فى مسرحيته الفريدة" الملــك لير" وهذه المسرحية تكشف بصورة قويـــة أن "النفـــاق" يقـــود إلى الكوارث والمآسي، وأن تصديق المنافقين والانقياد لهم هو خطأ جسيم لابد أن ينتهي بالخراب والدمار خاصة إذا كان هذا النفـــاق يتـــصل بأمور كبيرة مثل الحكم والسياسة وقيادة الجيوش وإدارة شئون الدولة والناس.

وخلاصة المسرحية فى كلمات قليلة هي أن الملك "لير" له بنات ثلاث وعندما تقدم به السن قرر أن يتنازل عن عرش بريطانيا لبناته وأختار أن يقوم بتقسيم المملكة إلى ثلاثة أقسام تتولى كل بنت من بناته قسماً منها ، ولكنه قرر أيضا قبل توزيع أقسام مملكته والتخلي عن سلطته بصورة نهائية أن يختبر بناته الثلاث فى مدى حبهن له.

قالت البنت الأولى وأسمها "جونريل" لأبيها الملك :-"إن حبى لك يعجز عن وصفه الكلام ،فأنت أغلى من نور عيوني وأعز من الحرية الكاملة ، وأكثر قيمة من كل ما هو نادر وثمين . حبى لك يفوق كل الحدود"

وقالت البنت الثانية واسمها "ريجان" لقد خلقني الله من نفس المعدن الذي خلق منه شقيقتي. وأحس فى قرارة نفسي بأنها وصفت حقيقة حبى لك. وإن كان فى كلامها بعض التقصير فى هذا الوصف. إننى لا أجد سعادتي إلا فى حبى لك أنت يا مولاي العزيز.

هكذا تكلمت البنتان الأولى والثانية. وكان كلام البنتين مثيراً لأعمق معاني السعادة والرضا عند الملك "لير" ثم جاء دور البنت الثالثة وهى "كورديليا" وقبل أن نقرأ ما قالته "كورديليا" يمكننا أن نلتفت إلى المعنى الذي يحمله اسمها فى الإنجليزية ، فالاسم مشتق من كلمة "كورديال" وتعنى الإخلاص والصدق وحرارة القلب.

فاسم "كورديليا" إذن معناه "المخلصة" أو "الصادقة" أو صاحبة "القلب الدافئ المليء بالحرارة والنزاهة والجمال" . واسم كورديليا في مسرحية الملك "لير" هو الاسم الوحيد من بين جميع شخصيات المسرحية الذي يحمل معنى لغوياً صريحاً واضحاً فى الإنجليزية وهو معنى

مشتق من الإخلاص وحرارة القلب . فكورديليا في المسرحية هي "إخلاص"

وكانت "كورديليا" اسما على مسمى كما يقال. فقد كانت مخلصة حقاً ودافئة القلب ورافضة للكذب بكل أنواعه وكل إغراءاته بالمكاسب القريبة أو البعيدة.

وعندما سألها أبوها عن مقدار حبها قائلاً:"والآن يا بهجة حياتي، وإن كنت آخر بناتي وأصغرهن ماذا تقولين لنا كي تحصلي على الثلث الباقي من مملكتي وهو أغنى مما نالته أختاك؟ قولي ما عندك"

كانت إجابة "كورديليا" صدمة للملك فقد قالت الابنة لا شيء عندي يا مولاي" ثم قالت ما معناه "أنا بائسة لا أستطيع أن أقول شيئاً مما قالته أختاي . فأنا أحبك يا صاحب الجلالة وفقاً لما يقضى به واجبي لا أكثر ولا أقل".

وهنا يحاول أبوها الملك أن يجعلها تنطق بكلام آخر،ونحن نعتمد هنا على الترجمة العربية الرائعة "للملك لير" والتي قدمها الدكتور محمد مصطفى بدوى يقول الملك لابنته الصغرى:- "ماذا تقولين يا كورديليا؟ ما هذا الذي تقولين يا بنت؟!. إصلحي من كلامك بعض الشيء حتى لا تفسدي نصيبك من الدنيا، وتفسدي معه مصيرك ومستقبلك."

ولكن " كورديليا" أصرت على موقفها وأضافت إلى ذلك نقداً صائباً ونافذا لما قالته أختاها ، فقالت للملك: "مولاي الكريم. لقد أنجبتني وشملتني برعايتك وحبك، ولذلك فأنا أتصرف بما يقتضيه واجبي، فأطيعك وأحبك وأشعر بعظيم الإجلال لك.ولكنني أسأل : لماذا تزوجت أختاي إن صح ما قالتاه من أنهما لا تحبان أحداً سواك؟

إن السيد الذي سيأخذ بيده عهد الزواج مني، وحين أتزوج، سيسعده أن يأخذ معه أيضاً نصف ما أحس به نحوك مـــن حـــب وواجـــب وعطف. لا لن أتزوج مثلما تزوجت أختاي بقلب لا أحب فيه أحداً سوى أبي"

ووقع كلام "كورديليا" على أبيها مثلما تقع الصاعقة فقال لها: "أتتكلمين بصدق من أعماق قلبك؟ "فقالت : نعم يا مولاي الكـــريم "فقال الملك الأب" أمن الممكن أن تكوني صغيرة السن وقاسية معاً إلى هذا الحد فقالت "كورديليا" بثبات :" إنني صغيرة السن وصادقة" .

وهنا اتخذ الملك "لير" قراره الذي فتح عليه باب جهنم بعـــد ذلك ، وأدخله هو وكل الذين يحيطون به فى مأساة كـــبيرة شملـــت الجميع حتى انتهت بالخراب والدمار.

قال الملك وهو فى قمة الثورة والغضب: "حسن إذن. لـــيكن صدقك هو مهرك.فلن أدفع لك شيئاً عندما تتزوجين، وأقسم بأشـــعة الشمس المقدسة وبأسرار الليل وبالكواكب التي فيها مصدر حياة البشر وموقمم. اقسم هنا بأن أتخلى عن رعايتي الأبوية لك.وأتبرأ من نـــسبي وقرابتي منك. ومن الآن فصاعداً سوف يكون شأنك هو شأن الغريب عني وعن قلبي ولن يكون البرابرة الذين يأكلون لحم أولادهم وآبائهم أبعد من قلبي وأقل إثارة لشفقتي وعوني منك أنت يا من كـــنت ذات يوم ابنة لي"

وهكذا حرم الملك ابنته الصغرى "كورديليا"مـــن نـــصيبها فى ميراث عرشه . وقرر تقسيم مملكته إلى قسمين فقط يكونان من نصيب ابنتيه الكبريين،أما ابنته الصغرى فقد أصبحت خالية اليدين من نصيبها المشروع.

ولم تتراجع الابنة الصغرى أمام هذا العقاب القاسي العنيف، وأصرت على أن قلبها يحب أباها بالقدر الذي تحب به الابنة الصادقة ، وأن هذا القلب فيه مكان لحب رجل آخر هو زوج المستقبل"

ودفعت "كورديليا" ثمناً إضافياً لصدقها وأمانتها فى التعبير عن حقيقة مشاعرها. فقد تخلى أحد الخاطبين لها وهو"دوق برجندى"عن فكرة الزواج منها ونفض يده تماماً من مشروع هذا الزواج ، فقد كان يريد أن يتزوجها أملاً فى الانتفاع بما سوف ترثه من أبيها.وهى الآن بدون ميراث ، فلماذا يتزوجها، وهو الرجل الإنتهازي الذي جاء إليها مدفوعاً بإغراء ميراثها وليس مدفوعاً بعواطف القلب الصادق الذي يحب المرأة لنفسها وقيمتها لا لما تملكه من ثروة وجاه وسلطان.

على أن "كورديليا" الجميلة لم تخسر فى معركة الحب والقلوب الطاهرة الشريفة، فقد تقدم للزواج منها ملك فرنسا قائلا:" إن كورديليا هي من نصيبنا وهى الآن ملكتنا وملكة كل ما نملك وملكه فرنسا الجميلة" وقال ملك فرنسا لكورديليا: " أيتها الأميرة الحسناء إنك بفقرك غنية كل الغنى. وإنني أعلن هنا أنني آخذك وآخذ معك فضائلك قولي لأهلك الوداع يا "كورديليا وإن كانوا قساة عليك . لقد فقدت هذا المكان ولكنك ستجدين مكاناً خيراً منه"

وتمضى الأحداث بعد ذلك فى هذه المسرحية الرهيبة ، وكل النتائج تتفق مع المقدمات. فالبنتان الكبريان هما منافقتان من الدرجة الأولى، وكل ما قالتاه لأبيهما وما سمعه أبوهما منهما كان كذباً فى كذب. فقد تخلت هاتان البنتان عن أبيهما ولم تظهرا له أي قدر من الحب وأصبح الأب بسرعة شديدة رجلاً ضائعاً تائهاً مشرداً لا يملك أي شيء بعد أن تخلى عن كل ما يملك لابنتيه المنافقتين الكاذبتين وحرم ابنته الصغرى الصادقة من كل شيء.

وفى المسرحية مشاهد بالغة العنف والفظاعة تمثل عذاب الإنسان ، ومنها مشهد العاصفة التي خرج فيها الملك لير وهو يكاد يكون عارياً من ملابسه، وكان الملك فى الثمانين من عمره . وقد طردته ابنتاه المنافقتان من قصورهما. واكتشف الملك حقيقة المأساة التي وقع فيها بتجريد نفسه بإرادته من كل سلطاته وممتلكاته، وتصديقه لنفاق ابنتيه الكاذبتين القاسيتين، وهو كلام لم يكن فيه أي نصيب من الحقيقة أو الصدق. فهما طامعتان محبتان لنفسيهما ولا يحملان أي حب لأبيهما أو لأي شخص آخر.

لقد أصبح الملك مجرد إنسان لا يملك شيئاً من الجاه أو السلطان. أي أنه أصبح إنساناً حقيقياً لا تحيط به أي مظاهر من أي نوع. فهو إنسان وإنسان فقط، وهو يواجه بجسده العاري البرد والمطر والعاصفة القاسية، أي أنه يصارع الطبيعة ، ومن ناحية أخرى فهو يصارع خيانة ابنتيه وطردهما له وتخليهما عنه، وهو يقف فى هذا الصراع بدون عون من منصب أو جاه أو ثروة.

وهنا يكتشف الملك المسكين أنه ارتكب خطأ فادحا آخر بحرمان ابنته الصغرى من ميراث مملكته، فقد أصبح واضحاً أن ابنته الصغرى هذه كانت صادقة معه وأن حبها له هو الحب الصحيح المخلص الذي لا نفاق فيه ولا أي نية للغدر والخيانة .

وتعلم "كورديليا" المخلصة بمحنة أبيها وكانت قد أصبحت ملكة لفرنسا ، وكان باستطاعتها أن تتجاهل محنة الأب وتواصل حياتها السعيدة المستقرة ، خاصة أن هذا الأب لم يكن منصفاً لها وأنه كان قد حرمها من نصيبها فى ميراث مملكته ومنحه للأختين الكبريين المنافقتين، ولكنها على العكس من ذلك قررت أن تقود جيشا إلى بريطانيا للدفاع عن أبيها وإعادته إلى العرش و لم تكن تطمع فى شيء

ولكنها كانت تتحرك بدافع قوى من حبها الصادق لأبيهـــا.فالحـــب الصادق يبقى دائماً على حاله ولا يتغير، وهذا الحب من ناحية أخرى ليس مجرد عاطفة سلبية خاملة، بل هو عاطفة إيجابية مستعدة للعمـــل والقتال من أجل الوقوف إلى جانب المحبوب والدفاع عنه.

وتستمر الأحداث المفزعة فى هذه المسرحية العجيبة. فتمـــوت الأختان المنافقتان فى حربهما ضد أبيهما. ولكن كورديليا المخلـــصة لا تحقق انتصارا كاملاً فى هذه الحرب . فتقع أسيرة فى المعركة . ويـــتم قتلها فى سجنها. أما الملك لير نفسه فيصاب بما يشبه الجنون من هول اكتشافاته المتلاحقة وخاصة ذلك الاكتشاف المذهل بـــصدق ابنتـــه الصغرى وبأنه قد ارتكب فى حقها خطأً يرقى إلى درجـــة الجريمـــة ، فهذه الابنة التي حرمها من كل شيء هي التي وقفت إلى جانبه حـــتى فقدت حياتها وهى تدافع عنه وتحت ضربات الأحداث الساحقة يسقط الملك ميتا هو الآخر.

ما الذي نخرج به من هذا كله؟ إن أهم ما يعنينا هنا هـــو أن "كورديليا" الابنة تمثل الإخلاص النبيل الذي يقـــوم علـــى الـــصدق والأمانة، وهو إخلاص لا يقبل أبداً أي كذب أو نفاق ،حتى لو أدى ذلك إلى خسائر فادحة،فكورديليا المخلصة هي زهرة هذه المـــسرحية المليئة بالدم والدموع وهى شعاع الضوء.بل هي نور الشمس الـــذي يشرق من بين الغيوم والضباب الكثيف.

وقد يقال ما الذي كسبته "كورديليا"من تصلبها وإصـــرارها على التعبير عن نفسها بكلمات صادقة ومحـــدودة؟ ولمـــاذا لم تكـــن "كورديليا" أكثر مرونة ومهارة فتقدم إلى أبيها بعض الكلمات الـــتي كان متشوقاً إلى الاستماع إليها ، بذلك تمتلك ما كان حقاً لها مـــن ميراث هذا الأب؟.إن "كورديليا" تمثل قيمة فى الحياة الإنسانية لا ينبغي

إغفالها أو محاسبتها بحساب الربح والخسارة. وحتى بمثل هذه المقاييس فإن كورديليا لم تخسر وأن أول ما كسبته هو متعه الصدق مع النفس ومع العالم كله . الصدق متعه روحية كبرى لا يعرفها إلا الصادقون المخلصون ولذلك فهم يحرصون على هذه السعادة التي يحققها الشعور الذي لا تزييف فيه. فالدنيا في نظر المحب الصادق لا تساوى شيئاً إلى جانب ما يمتلئ به القلب من عواطف دافئة ،والمحبون على هذا المستوى الرفيع لا يخافون من الاستشهاد في سبيل حبهم الناصع الكريم.وقد دفعت "كورديليا" حياتها ثمناً لإخلاصها وصدقها.ولكنها ماتت وهي محبوبة،وماتت بعد أن استعادت كل حب أبيها المخدوع وماتت وكل الطيبين يودعونها بالدموع الغزيرة وذلك على عكس أختيها المنافقتين اللتين ماتتا ملعونتين من الجميع، وماتتا مغضوباً عليهما أشد الغضب من أبيهما الذي وقع في مصيدة نفاقهما فقاد نفسه إلى الهلاك.

إن "كورديليا" هي من أجمل الشخصيات النسائية في أدب شيكسبير وهى الشخصية الأساسية التي تحرك أحداث مسرحية "الملك لير" ورغم ذلك فهي أقل الشخصيات ظهوراً في المسرحية وهى أقل الشخصيات حديثاً واشتراكا في الحوار. فكلماتها قليلة ، وآراؤها محددة وموجزة، وتصرفاتها معدودة ولكنها حاسمة.ويمكن وصفها على الإجمال بأنها "شخصية محبة" أي شخصية "قادرة على الحب"والحب عندها له معنى واسع ، فهو لا يتوقف عند حدود الحب الذي يقوم بين الرجل والمرأة،فهذا وجه واحد من وجوه الحب،ولكن الحب عند "كورديليا" أوسع من هذا وأعمق، والأساس فيه هو حبها لأبيها، وهو حب طبيعي أصيل وبرئ تماماً من أي أغراض أو مصالح، وهذا الحب الطبيعي هو حب صادق لا تزييف فيه ولا تزويق ولا مبالغات، ولذلك فقد وقف هذا الحب ثابتاً دون أي تغيير عندما غضب عليها أبوها لأنها لم تنطق بما كان يحبه من الكلمات المزخرفة والعبارات الناعمة التي لا

تكشف عن أي عاطفة صادقة ، وعندما اتضحت الحقيقة لأبيها وأصبح هذا الأب وحيداً فى العراء تقدمت "كورديليا" بعواطفها القوية لتدافع عن أبيها وتقف إلى جانبه دون أي تردد.فالحب الحقيقي لا يتكلم كثيراً، ولكنه يفعل الكثير ولا يعرف التردد عندما تكون هناك ضرورة للعمل والتصرف واقتحام معارك الحياة.

إن الحياة فى مسرحية "الملك لير" تعمها "الفوضى" وقد لاحظ كثير من الباحثين أن كلمة"لا شيء" تتكرر كثيراً فى المسرحية، وهي كلمة تكشف عن الانهيار الذي تصاب به النفوس ويتعرض له المجتمع وفى وصف هذه الفوضى يقول"جلوستر" أحد أشخاص المسرحية : "إن كسوف الشمس والقمر الذي نراه هذه الأيام لا ينبئ عن خير .والنتائج التي يسفر عنها ذلك ليست سوى المصائب والكوارث. فالحب يتعرض للفتور. والأخ يحارب أخاه ، وفى المدن نجد العصيان ، ويقوم النزاع بين الدول وتمتلئ القصور بالخيانات، وتنقطع خيوط المحبة بين الابن وأبيه ، ولن نشاهد بعد اليوم سوى المؤامرات والخيانات وألوان التزييف وفوضى التخريب".

هذا هو الوصف الدقيق للعالم الذي تدور فيه أحداث مسرحية "الملك لير" وفى هذه الفوضى الكبيرة والانهيار الشامل لا يوجد أي شعاع من الأمل والنور سوى ذلك الإشعاع الذي تمثله "كورديليا" وهو شعاع الحب الصادق والثابت رغم جميع الظروف القاسية المحيطة به إنها تظهر على مسرح الكوارث والمآسي التي لحقت بأبيها لتعيد إليه الثقة فى نبل القلب الإنساني وسمو الحب الصادق الصحيح ولم يكن ذلك قادراً على أن يمد فى حياة الأب العجوز كان قادرا على شيء آخر غير قليل وهو أن يموت أبوها بعد أن عرف أن فى الدنيا من يقول "لا" للشر، وقد جاءت "لا" هذه من ابنته الصغيرة الرائعة التي لم تنتفع

بشيء من جاهه وسلطانه وثرائه العريض . وبذلك يموت الأب وعينه قريرة وقلبه راض ومسرور،لأنه رأى فى محنته أن الحب لم يمـت، وأن هذا الحب إن كان صادقاً فهو قادر على خوض المعارك والدخول فى شجاعة إلى ساحة القتال.

إن مسرحية الملك لير هي مسرحية العذاب الإنساني فى قمتـه وهى مسرحية الفوضى الشاملة التي تعم الحياة عندما يقـوم الأشـرار والمنافقون والكذابون بإفساد كل شيء دفاعاً عن مصالحهم ونـزواتهم وانحرافات نفوسهم الصغيرة ولكن المسرحية فوق ذلك هي مـسرحية النور الذي يضئ الظلام من خلال شمس الحب الساطعة ،فالحب قـوة قادرة على المقاومة والتضحية.

وقد تصدت "كورديليا" للفوضى الرهيبة التي دبت فى مملكـة أبيها وضحت بحياتها فى سبيل إعادة النظام والاستقامة والعدالة فى هذه المملكة وعندما تبلغ الفوضى أقصاها يكون "الاستشهاد" مطلوبـاً فى سبيل إعادة الأمور إلى طبيعتها ، وقد ماتـت "كورديليـا" شـهيدة وكانت دماؤها هي التطهير الذي غسل الأرض والناس من الفوضـى والانهيار . وبعد موت الشهيدة "كورديليا" وتضحيتها بحياتها بـدأت العواطف تهدأ وأخذت الدنيا تتطلع إلى صباح مشرق جديـد ملـئ بالحب الذي من أجله عاشت "كورديليا" وفى سبيله ماتت وضـحت بحياتها.

❖



المنتحـرات الفاتنـــات

الشخصيات الرئيسية فى هذا الفصل:

جولييت ــ كليوبطره .

أوفيليا ــ ليدى ماكبث .



لماذا تنتحر امرأة جميلة فاتنة وتلقى بنفسها إلى عالم الموت الذي يخشاه الجميع ؟!. إن جمال المرأة هو واحد من اكبر أسباب السعادة والسرور فى هذه الحياة وهى سعادة تحس بها المرأة الجميلة نفسها لأنها تشعر أن جمالها إنما هو قوة لها تستطيع من خلاله أن تحقق أحلامها فى سهولة ويسر ، وجمال المرأة هو من ناحية أخرى سعادة لكل من يعيشون فى ظلال هذا الجمال وما اسعد المرأة نفسها عندما تجد أمامها من يملأ عينيها وقلبها فتقول له : أنا أحبك . وما أسعدها أيضاً عندما تستمع إلى كلمة الحب ينطق بها رجل يمكن للقلب أن يهواه . فتلك هي موسيقى السعادة التي تعزف للمحظوظين والمحظوظات بنعمة الحب فى هذا الوجود .

وهكذا يكون جمال المرأة فى الأصل منبعاً من أكبر ينابيع السعادة فى الحياة.والمنطق يقول إن السعداء لا ينتحرون بل هم على العكس يحلمون بالمزيد من أيام العمر لتمتد بهم لحظات المتعة والبهجة التي هم فيها غارقون. وفى هذه اللحظات التي يتمنى أصحابها أن تطول فإنهم يشعرون بأن فى حياتهم المعنوية عصافير ملونة جميلة تغرد فى الأغصان ، وتنقر بمنقارها الصغير زجاج الشبابيك المغلقة لتوقظ النائمين فينطلقون فى حدائق الحياة المليئة بالأزهار وأشعة الشمس الدافئة والأحلام غير المحدودة بأيام أخرى سعيدة وهانئة.

هذا كله كلام يقال على الورق فيبدو معقولاً ومنطقياً من الناحية النظرية لأن المقدمات فيه تتفق مع النتائج والمقدمة هنا هي جمال المرأة والنتيجة هي السعادة ولكن الحياة لها منطق آخر يظهر عندما تبدأ المرأة الجميلة رحلتها فى الواقع وفى منطق الحياة ، فإن الجمال مهما كان رائعاً فأنه لا يضمن للجميلات حياة سعيدة فقد تظهر صعوبات هنا أو هناك تؤدى بالمرأة الجميلة إلى رفض الحياة وتفضيل الانتحار وهنا نتساءل فى دهشة : لماذا أيتها الجميلة الفاتنة تفعلين ذلك وفى يدك مفتاح مفاتيح السعادة وهو الجمال ؟!. انه سؤال حائر ومؤلم وليس له إلا إجابة حائرة ومؤلمة أيضاً .

فى مسرحيات "شيكسبير" يواجهنا عالم كامل يبدو "الانتحار" فيه أمراً شائعاً يتكرر ، وهو أمر تفرضه الأزمات القاسية التي يمر بها أبطال " شيكسبير " الكثيرون ومعظم مسرحيات شيكسبير تدور فى القصور ولا تدور فى الأكواخ الفقيرة أو البيوت العادية ، وهذه القصور هي التي يعيش فيها الملوك والأباطرة والأمراء والقادة العسكريون والنبلاء وهى نفسها القصور التي تتحكم فى مصائر الناس والمجتمعات . وهى التي يتخذ فيها أهلها قرارات الحرب والسلام فهم من الحكام الذين ورثوا العروش عن آبائهم وأجدادهم أو انتزعوه لأنفسهم بقوة السلاح ، وحول هؤلاء يعيش أنصارهم والمساعدون لهم من القادة العسكريين والوزراء والمستشارين ، والصورة العامة التي يقدمها لنا شيكسبير هي صورة الحياة المليئة بالصراعات والمنافسات ومشاعر الحسد والغيرة والحب والكراهية والوفاء والغدر والانتقام والثأر.. فلا يوجد فى مسرحيات شيكسبير " قصر هادى" تسوده المحبة والسعادة والسلام فكلها قصور تشتعل فيها نيران من داخلها تمنع تحقيق السعادة التي تحتاج إلى كثير من الهدوء والرضا والاستقرار .

وليس فى أي قصر من قصور شيكسبير شيء من ذلك . فالدنيا مضطربة والنفوس مليئة بالقلق والتوتر ، وهناك دائماً " خطأ كبير" من نوع ما يسيطر على حياة هذه القصور فيقلب الأمور رأساً على عقب ، وهذه الصورة المشتعلة بالنيران والتي يقدمها لنا شيكسبير فى مسرحياته تدلنا فى وضوح تام على أن شيكسبير لم يكن " يثق" بأنظمة الحكم القائمة فى عصوره ، فهو يراها ويقدمها إلينا على أنها أنظمة مضطربة يسودها الفساد والطموحات الشخصية الدموية . وفى مسرحية هاملت يقول شيكسبير على لسان الأمير " هاملت" بطل المسرحية: " إن هناك شيئاً عفناً فى الدانيمرك . والدانيمرك هي بلد "هاملت" وبلد " القصر" الذي تدور فى داخله معظم أحداث المسرحية. والحقيقة إن ما يشير إليه الأمير " هاملت" عن " العفن " الموجود فى بلاده " الدانيمرك " هو ما يكاد شيكسبير يقوله لنا عن الدنيا كلها فى مسرحياته التي تدور فى القصور ، فالدنيا التي يصورها لنا شيكسبير فيها شيء من العفن وهذا " العفن " هو السبب في المآسي التي تقع وهو السبب في الصراعات والاضطرابات التي تعصف بالإنسان وتحرمه من أن يكون سعيداً حتى لو كانت كل أسباب السعادة بين يديه من مال وجمال وسلطان، فالإنسان فى " قصور شيكسبير" يطمع دائماً فى المزيد ويحلم بأن يختطف من الآخرين ما وصلوا إليه لأنه يظن أنه هو وحده الذي يستحق أن يمتلك ناصية الأمور . وأن يكون سيداً للناس أجمعين . وأنه مهما كان وضعه عظيماً فإنه يريد أن يكون أعظم مما هو فيه وأعظم من كل الآخرين .

وجميع المآسي فى مسرحيات شيكسبير " تنفجر" عندما تبدو الأمور مستقرة واقرب ما تكون إلى الكمال وفجأة تظهر فكرة تقضى على الهدوء والصمت وتفتح باباً جديداً للصراع والقتال وإشاعة الفوضى فى الحياة . ففي مسرحية "يوليوس قيصر" تبدأ المأساة بعد أن

حقق " قيصر" انتصاراته الواسعة الكبرى وعاد إلى " روما" محاطاً بهالات من الإجلال والإكبار والثقة الكاملة فى النفس ، وكان "قيصر" يظن أنه بذلك قد أصبح موضع الإجماع على حبه والولاء له من جانب الجميع وخاصة من جانب أصدقائه والمقربين إليه . وكان قيصر يظن أيضا بعد أن وصل إلى قمة مجده إنه يستطيع أن يحقق السعادة لنفسه ولكل الذين حوله ولشعبه وبلاده ، وكانت أحلامه تدور فى تلك اللحظة حول خطة واسعة للنهوض بالمجتمع وتحسين أحوال الناس فيه لأنه لم يعد له أعداء يحاربهم بعد أن انتصر عليهم جميعاً ، أو هكذا كانت أحلامه وظنونه .. أي أن قيصر قد وصل بعد رحلة طويلة شاقة إلى نقطة هادئة مطمئنة تتيح السعادة له والجميع من حوله .

وهنا يحدث " شرخ" بسيط يتسع لحظة بعد أخرى حتى يؤدى إلى انفجار المأساة وانهيار البناء القوى المتماسك ، وهذا الشرخ يتمثل فى الهواجس التي بدأت تسيطر على المحيطين بقيصر . فقد بدأوا يشعرون أن قيصر أصبح مغروراً وواثقاً بنفسه أكثر من اللازم . وان مثل هذه المشاعر سوف تؤدى بقيصر إلى الاستبداد والانفراد بالسلطان وإعلان نفسه ملكاً وسيداً على البلاد والعباد . وأخذ المحيطون بقيصر يفكرون ويتصرفون على أساس أن هواجسهم صحيحة وأن قيصر قد أصبح مستبداً وأعلن نفسه إمبراطورا لا يشاركه أحد فى السلطان برغم أن هذا كله لم يكن قد حدث منه شيء واضح ، ولذلك قرر المحيطون بقيصر وعلى رأسهم صديقه وحبيبه " بروتس" أن يواجهوا الخطر قبل أن يصبح واقعاً لا يستطيعون تغييره فتآمروا فيما بينهم وقرروا اغتيال " قيصر" ومفاجأته بهذا الاغتيال فى المكان الوحيد الذي كان ينبغي أن يكون فيه أكثر الناس أمنا واطمئنانا ، أي فى " مجلس الشيوخ" الذي كان المفروض أن يجلس فيه قيصر ليتشاور مع أعضائه ويعلن لهم آراءه ويستمع إلى ما يقولون ومجلس الشيوخ لم يكن ساحة

حرب وقتال بحيث يذهب قيصر إليه مسلحاً ومستعداً لخوض معركة من معاركه الكبرى ، التي كان يبدى فيها الذكاء والتخطيط والشجاعة والتي كان فيها لا يفوته أبداً تحقيق الانتصار على أعدائه .

لقد ذهب قيصر إلى مجلس الشيوخ آمنا مطمئنا محاطاً بهيبته وغير مسلح بسلاح المقاتلين ، فحتى الذين يعارضون " قيصر" فى المجلس كانوا يستطيعون أن يعلنوا معارضتهم له فى اطمئنان لأن المجلس موجود من أجل التعبير عن الآراء المختلفة والتشاور حولها ولكن المحيطين بقيصر كانوا خائفين من القوة الكامنة فيه وكانوا يظنون أنهم غير قادرين على هذه القوة ، وأن الحل الوحيد هو أن يقتلوا قيصر ويغتالوه وهو فى قمة شعوره بالاطمئنان والأمان وبعيد كل البعد عن الحذر والاستعداد لمثل هذا الموقف الدموي المفاجئ.

وسارع المحيطون بقيصر إلى قتله وطعنه بخناجرهم التي أخفوها وراء ملابسهم الفضفاضة الواسعة .وفوجئ قيصر بذلك فلم يقاوم ، لم يتخيل أن يقع الحادث فى هذا المكان .

وعندما رأى قيصر أن حبيبه وصديقه وتلميذه " بروتس" يحمل خنجره ويشارك الطاعنين لقيصر فى جريمتهم قال كلمته التي أصبحت مثلاً يتردد على لسان الناس فى كل عصر ومكان وهى .. (حتى أنت يا بروتس).

كانت كلمة قيصر هي عتاب يقطر بالدماء فلم يخطر على باله أبداً أنه يمكن أن يهون على " بروتس" فيشارك فى القضاء على حياته ويخونه خيانة نكراء بل لعله كان يتصور أن بروتس سوف يكون فى مقدمة المدافعين عنه بأرواحهم ، ولكن قيصر فوجئ فقال عبارته التي فيها عتاب ودهشة وبعدها سكت عن الكلام ومات .

هذا هو ما يتكرر كثيراً فى مسرحيات شيكسبير التي تدور فى القصور وبين الطبقات العليا الحاكمة وصاحبة القرار والسلطان.

وعندما يبدأ الهدوء قادما والاستقرار ممكنا والكمال بين أصبع اليدين يتقدم الإنسان ليفسر الأمور ، ويجعل مياه الحياة الهادئة أمواجا صاخبة متلاطمة .

الأفكار والهواجس والشكوك تسيطر على الدنيا وتقبض على رقاب الناس وتكدر النفوس وتدفع الإنسان إلى فتح الأبواب للعواصف والأعاصير.وتتوالى الأحداث فى مسرحيات شيكسبير بهذه الطريقة فتمتلئ المسرحيات بالصراع والقتال والمؤامرات ويسقط الناس بأيدي غيرهم أو يسقطون منتحرين.وفى مسرحيات شيكسبير عن القصور والطبقات العليا فى المجتمع يكثر المقتولون ويكثر المنتحرون الذين يشعرون بأن الحياة لم تعد تطاق فيقتلون أنفسهم بأيديهم لأن كل شيء عندهم يبدو أهون وأفضل من أن يواصلوا حياتهم فى الاضطراب والعفن وكل ما يحيط بهم من فوضى وأخطاء .

من هذا كله نستطيع أن نستنتج بعض النتائج التي تقودنا إليها مسرحيات " القصور " عند شيكسبير ولكن هذه النتائج تقوم على اجتهادنا نحن لأن شيكسبير لا يقول أبداً رأيه فى شيء فهو يقدم الواقع الذي يحس به ولا يقدم أي رأى فيه . فمن الثابت أن شيكسبير هو من كبار الفنانين والعباقرة الذين يرسمون الصورة ولا يعلقون عليها بشيء ، ولعله كان من الذين يدركون أن صورة الحياة هي أكبر وأكثر استعصاء من أي تعليق عليها فمثل هذا التعليق هو جهد ضائع لا جدوى منه لأن الحياة لا تنتظر رأى أحد وهى تمضى فى طريقها المرسوم دون أن تعبأ بالمصفقين أو المصفرين أو الذين يعترضون أو يوافقون .

نستطيع نحن باجتهادنا الذي قد يخطئ أو يصيب أن نستنتج بعض ما كان شيكسبير يخفيه في داخل نفسه ولا يكشف عنه أبدا بطريقة مباشرة . ومن هذه النتائج الاجتهادية التي يمكننا أن نخرج بها من أعمال شيكسبير أن الأنظمة السياسية الأرستقراطية القائمة على القوة العسكرية هي أنظمة فاسدة تحمل في داخلها عناصر سقوطها ولا يمكن أن تحقق السعادة لأهلها أو للشعوب والمجتمعات . ومن هذه النتائج أن أسوار القصور العالية لا تخفى في داخلها إلا الفوضى والعفن والانحراف لأنه في داخل هذه القصور يدور الصراع حول السلطة والإنفراد بالقوة ، وفي هذا الصراع تولد الانحرافات ولا تقوم المبادئ الأخلاقية بأي دور رادع للشرور ، لأن الهدف الوحيد المشروع داخل هذه القصور هو تحقيق أعلى درجة من القوة والسلطة دون مراعاة لأي اعتبارات إنسانية من أي نوع .

ولعل ذلك يوحى إلينا بأن شيكسبير لم تكن لديه أدنى ثقة بالنظام السياسي الأرستقراطي في عصره أو في العصور السابقة عليه، ولعل شيكسبير كان يحلم بعالم آخر أكثر إنسانية وعدالة وهو عالم متحرر من الكابوس الثقيل الذي عانت منه الإنسانية طويلاً ، أي كابوس السلطة الاستبدادية المطلقة التي تؤدى دائماً إلى المآسي التي تحل بالجميع حتى بأصحابها أنفسهم .

في هذا العالم المليء بالفوضى والذي يصوره لنا شيكسبير في "مسرحيات القصور" والطبقات الأرستقراطية العالية تكثر ظاهرة "الانتحار" فهذه المسرحيات مليئة بالمنتحرين والمنتحرات . لأن الصراع عندما ينتهي إلى اليأس من تحقيق الآمال والطموحات لا يبقى أمام اليائسين الذين تعرضوا للإحباط غير الانتحار.

على أن " الانتحار" فى مسرحيات " شيكسبير " لا يتم إلا بين الطبقات العليا من المجتمع وسكان القصور فلا يوجد منتحرون بين الناس العاديين أو الخدم والحراس وغيرهم من البسطاء فهؤلاء لا يفكرون أبداً فى الانتحار ، لأنهم يعيشون بغير طموحات كبيرة تؤدى إلى ضياع الحياة إذا لم تتحقق . فالناس العاديون يعيشون حياة قاسية، وهم لا يحلمون بشيء غير لقمة الخبز وبعض السكينة والرضا بمجرد البقاء ، وشاكرون لنعمة الله عليهم بمنحهم هذه الحياة البسيطة المتواضعة التي لم يرتكبوا فيها شيئا من الأخطاء ، ولذلك فليس لديهم ما يندمون عليه ويندفعون عند خسارته إلى الانتحار . فهم لا يملكون من حياتهم سوى الهواء الذي يتنفسونه . والخبز الذي يأكلونه والجهد الذي يبذلونه فى خدمة غيرهم من السادة فلا هم يطمعون فى شيء ولا يوجد لديهم شيء يطمع فيه الآخرون .

فالمنتحرون عند شيكسبير هم من السادة والسيدات من أبناء وبنات الطبقات العليا ، أما الناس العاديون فليس لديهم ما يدفعهم إلى الانتحار وكفاحهم الدائم والمستمر ليس من أجل سلطة أو مال أو نفوذ ، بل هو لمجرد المحافظة على الحياة حتى تصل إلى نهايتها الطبيعية.

عندما تصبح الدنيا فوضى ، وحل المشكلات عسير أو غير واضح يصبح المناخ العام مناسباً للانتحار وهذا ما تتعرض له بعض "فاتنات" شيكسبير فهن يملكن مفتاح السعادة فى نعمة الجمال ، ولكنهن يعشن فى سفينة تقذف بها الأمواج العنيفة هنا وهناك وتضربها من كل الاتجاهات وفى لحظة من اللحظات تتعرض فاتنات شيكسبير لفقدان السيطرة عل كل شيء فى حياتهن فلا يجدن خلاصاً لهن إلا الانتحار، وأشهر الفاتنات المنتحرات عند شيكسبير هن "جولييت" و"كليوبطره" و" أوفيليا" و"ليدى ماكبث" والانتحار واضح فى حالتين

هما : حالة جولييت التي انتحرت عندما عرفت أن حبيب قلبها قد مات وكانت جولييت تعيش في ظل شعار واحد هو أنه لا حياة بدون حبيبها ، فالحب عندها هو الحياة والحياة عندها هي الحب.

أما " كليوبطره " الجميلة فقد انتحرت هي أيضاً لأن طموحها قد أوصلها وأوصل معها حبيبها أنطونيو إلى طريق مسدود لا يوجد معه أي أمل في السعادة أو الكرامة أو حتى مجرد الحياة الهادئة المستقرة فقد انتصر عليها وعلى حبيبها عدو قوى شديد الشراسة وهو " اكتافيوس" و لم يكن في خطة المنتصر أن يحفظ على كليوبطره كرامتها أو سلامتها من الأذى والهوان فلم تجد أمامها خلاصاً إلا الانتحار بقرار منها وإرادة واعية ، أما " اوفيليا " في مسرحية "هاملت" فكان انتحارها أقرب إلى أن يكون بغير إرادة منها فقد اضطرب عقل هذه الفتاة الجميلة البريئة التي لا تعرف شيئا عن تجارب الحياة .وذلك عندما انصرف عنها حبيبها هاملت لأنه مشغول بالانتقام من أمه وعمه بعد أن ثبت لديه أنهما شريكان في قتل أبيه ليحلا محله على العرش ، وكان هذا التصور للأمور قوياً جداً في عقل هاملت فشغله عن قلبه وحبه وفقدت حبيبته " اوفيليا " عقلها لأنها لم تفهم ما يدور حولها وأصابها نوع من الغيبوبة فغرقت في الماء وهى لا تدرى أنها تنتحر وتفقد حياتها.

أما " ليدى ماكبث" وهى امرأة قوية وجميلة فإنها سقطت في طموح جنوني فحرضت زوجها على أن يقتل الملك ويحل محله على العرش ليكون ملكاً بدلاً منه. وتكون هي أيضا ملكة معه وبعد أن تمت الجريمة وصعدت ليدى ماكبث إلى العرش هي وزوجها انفتحت أبواب الجحيم عليهما ، وانطلقت في حياتهما أشباح الجريمة تطاردهما بالليل والنهار وبخاصة في النوم والأحلام وفقدت ليدى ماكبث قوتها وانهار

سلطان جمالها وفتنتها وأصبحت فريسة للكوابيس المخيفة، وأصابها شيء يشبه الجنون فانهارت ميتة فى انتحار غير إرادي لم يسبقه تخطيط وإنما انساقت إليه بعد أن أصبحت ريشة فى مهب الريح .

وهكذا وقع هؤلاء الفاتنات فى محنة الانتحار والخلاص من الحياة بسبب الفوضى المحيطة بهن ومظاهر الاستبداد والطموح والغدر والخيانة وانعدام العدالة فقد كان عالم الفاتنات المنتحرات عالماً سيئاً ، وكان عالماً لم يشعر شيكسبير بالحب نحوه أو السعادة فيه ولم تجد الفاتنات الجميلات فى هذا العالم المضطرب من المصير لهن غير أن يصبحن منتحرات .

❖

أنا أحب فأنا أتحدى

أهم الشخصيات فى هذا الفصل هي :

١- **بورشيا** .

٢- التاجر **شيلوك** اليهودي .

٣- **أنطونيو**- التاجر الايطالي وصديق بسانيو .

٤- **بسانيو** ــ حبيب بورشيا وزوجها فيما بعد وصديق انطونيو .



من الثابت والشائع فى عقول الناس جميعاً أن المرأة ضعيفة أمـــا الثابت الآخر بصورة أقوى فهو ما نعرفه جميعاً من أن المرأة فى معظـــم مراحل التاريخ الإنساني كانت تتعرض للنظر إليها على أنهـــا كـــائن ثانوي بعد الرجل ، وأنها تعرضت لكثير من الظلم فى المعاملـــة وقـــد انعكس هذا على سلوك أغلبية الناس ، فلا يزال الكثيرون يـــشعرون بالحزن عندما تولد لهم بنت وهو ما يشير إليه القرآن الكريم فى سورة "النحل" ، حيث يقول سبحانه وتعالى : (وإذا بشر أحدهم بـــالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) .. و"الكظيم" هو الذي يشعر بالغيظ الشديد ويكتمه، فأغلبية الناس يفضلون أن يكون المولود ولداً.

ومما هو معروف أن عرب الجاهلية كانوا يقومون بدفن البنت عند ميلادها وهى حية وهى العملية المعروفة باســـم " وأد البنـــات " ،وكلمة الوأد معناها الدفن فى التراب أي القيام بحفر حفـــرة وإلقـــاء المولودة وهى حية فيها ثم إهالة التراب عليها لقتلها وكتم أنفاســـها ، وهذه العملية هي جريمة مفزعة حرمها الإسلام وأبطلها وندد بها تنديداً قوياً حيث يقول القرآن الكريم فى استنكار شديد " سورة التكـــوير" (وإذا الموءودة " سئلت" بأي ذنب قتلت) وفى هذه الآية الكريمة لفتة إنسانية رائعة فالآية تقول إن المؤودة سئلت و لم يقل إنها سألت . فمن

الطبيعي أن الطفلة المولودة لا تعرف شيئاً ولا يمكنها أن تجيب على شيء ولذلك فإن الأقرب إلى الفهم الصحيح هو أن الآية الكريمة تشير إلى أن السؤال إنما هو موجه من حالة البنت الموءودة وليس من البنت نفسها ، أي أن حالة هذه البنت هي التي توجه السؤال عن السبب فى هذه الجريمة غير الإنسانية والآية تسأل سؤالاً فيه استنكار .. كما أن السؤال يحمل إجابته الضمنية التي ندركها بسهولة وهذه الإجابة هي أن هذه الجريمة تتم بلا سبب ولا ذنب ولذلك فهي جريمة نكراء.

هذه الجريمة القديمة التي كانت تقع فى الجاهلية هي نموذج أو رمز واحد من رموز كثيرة تكشف عن سوء المعاملة للمرأة فى فترات كثيرة من عصور التاريخ المتصلة ، والأمر ليس مقتصراً على العرب ، فوضع المرأة كان سيئاً باستمرار فى مختلف الشعوب والحضارات ، ومن المعروف أن بعض العقائد الهندية القديمة كانت تفرض على المرأة التي يموت زوجها أن يتم دفنها وهى حية مع زوجها الراحل ، إذ لا مبرر فى هذه العقائد لحياة الزوجة بعد موت زوجها ، كما أن هناك عقائد إنسانية متخلفة أخرى كانت تعتقد أن الشيطان يسكن فى جسد المرأة وبذلك تكون المرأة هي شر شيطاني خالص لا دور له إلا إغراء الرجال بالوقوع فى الخطيئة.

ولا يقتصر هذا التصور للمرأة ودورها فى الحياة على الناس العاديين بل كانت هناك شخصيات تاريخية وفكرية مهمة تؤمن بأفكار مشابهة ومنهم الفيلسوف الألماني الكبير " شوبنهور " " ١٧٨٨- ١٨٦٠" الذي كان يرى أن المرأة كائن لا قيمة له وليس جديراً بأي احترام أو محبة ، وكان شوبنهور يسخر حتى من التركيب العضوي للمرأة ويقول (إن الطبيعة قد خلقت المرأة بقفص صدري ضيق

وسيقان قصيرة فكيف يمكن تسمية هذا الكائن باسم الجنس اللطيف)

وكان نابليون " ١٧٦٩ – ١٨٢١ " يرى أن المكان الوحيد للمرأة فى البيت وأن الوظيفة الوحيدة لها هي الإنجاب وتربية الأطفال وأن تعليم المرأة ينبغي أن يكون تعليماً بسيطاً وأولياً حتى تتمكن من أداء وظيفتها داخل العائلة ، أما التوسع فى التعليم المتقدم والثقافة العائلية فهو أمر لا ضرورة له ولا جدوى منه .

وهناك فيلسوف ألماني كبير آخر هو " نيتشه " " ١٨٤٤– ١٩٠٠ " كانت له فى المرأة آراء سلبية يمكن وصفها بأنها آراء فاضحة ومن أقواله (أن على الرجل أن يتدرب على الحرب أما المرأة فعليها أن تتدرب على الإنجاب) ، كما أن نيتشه هو صاحب العبارة الشهيرة التي تقول " إذا ذهبت إلى المرأة فلا تنسى أن تأخذ سوطك معك " .

تلك هي لمحات سريعة تكشف عن أن وضع المرأة فى معظم مراحل التاريخ كان وضعاً سيئاً ، وكانت القيود المفروضة عليها كثيرة وكان هناك حكم شامل عليها بضرورة بقائها فى خلفية المسرح وليس فى المقدمة ، فهذه المقدمة محجوزة للرجال ، أما المكان الوحيد المقبول والمناسب لها فهو المطبخ والمترل بصورة عامة، أبعد من ذلك فليس لها مكان آخر .

على أن هذا الوضع التاريخي السلبي للمرأة لا ينفى أن هذا التاريخ نفسه ملئ بنماذج النساء القويات أصحاب الإرادات اللواتي استطعن أن يقمن بادوار مهمة إلى أبعد الحدود ونتوقف قليلاً إلى أن نتذكر بعض القصص الدينية المعروفة ومنها قصة " حواء" التي شاركت سيدنا آدم بإرادتها الكاملة فى خطيئة العصيان لله فى أمره لهما بألا

يأكلا من التفاحة المحرمة عليهما، ثم إن هناك قصة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم فقد قامت هذه المرأة القوية برعاية ابنها إسماعيل فى ظروف بالغة الصعوبة قبل أن يتفجر بئر زمزم تحت أقدامها وأقدام إبنها لينقذهما من الموت ، وفى حياة سيدنا موسى نساء كثيرات قويات كان لهن دور كبير فى إنقاذه من الموت منذ طفولته ، ومنهن أمه وأخته وزوجة فرعون ثم زوجته التي تزوجها بعد خروجه من مصر .

هؤلاء النساء جميعهن كن نساء قويات ومؤثرات فى حماية سيدنا موسى ومنع الأذى عنه ، أما فى قصة السيد المسيح فإن السيدة مريم كان لها دور كبير فى حماية حياة المسيح وإنقاذه من القتل ، وخاصة فى فترة طفولته حيث هاجرت به إلى مصر ثم عادت به بعد أن اطمأنت عليه إلى فلسطين .

أما فى حياة سيدنا " محمد" فيكفى أن نشير إلى شخصية السيدة "خديجة" التي وقفت إلى جانب النبي الكريم وقفة قوية متصلة ، وكانت من أهم أسباب نجاح دعوته ورسالته .

هؤلاء النساء جميعهن كن نساء قويات مؤثرات إلى أبعد الحدود فى الأحداث الكبرى التي ارتبطن بها ، وهذه النماذج فيها بعض الرد القوى على ما يقال من أن المرأة ضعيفة بطبيعتها ولا يمكنها أن تتخلص من هذا الضعف ، فضعف المرأة على ضوء هذه النماذج هو أمر فيه نظر وهو قول قابل للمراجعة والتصحيح فهذا الضعف يرجع إلى الظروف المفروضة على المرأة ولا يعود إلى إمكانياتها المولودة معها ، وهكذا فإن ضعف المرأة هو أمر لا يصح التسليم به فى صورة مطلقة .

بعد هذا العرض السريع نتوقف أمام تصور الأديب الانجليزي العالمي "شيكسبير " للمرأة فمعظم نساء " شيكسبير " هن نساء قويات ، وهن من أصحاب الإرادات العالية والقدرات الواضحة على اتخاذ القرارات المستقلة دون ضعف أو تردد أو اعتماد على الآخرين .

وهذا الأمر يبدو غريباً فقد كان شيكسبير يعيش منذ حوالي خمسمائة سنة مضت ، أي أنه كان يعيش فى عصر كانت فيه الفكرة عن ضعف المرأة فكرة شائعة وسائدة بين الناس ،ولم تكن قد ظهرت تلك الحركة الواسعة للاعتراض على هذه الفكرة الراسخة كما نجد فى العصر الحديث ، حيث تجرى محاولات كبرى منذ أكثر من مائة سنة لتغيير كافة القوانين والأفكار التي تقوم على أساس أن المرأة ضعيفة بطبيعتها وأنه لذلك يجب وضعها فى موضع ثانوي بعد الرجل .

وهكذا فإن شيكسبير يكون أحد الرواد السابقين فى الإيمان بأن المرأة تملك من عناصر القوة ما يملكه الرجل ، وأحياناً فألها تملك أكثر. ومن بين نساء شيكسبير اللواتي يتميزن بالقوة العجيبة والإرادة العالية والاستعداد للتحدي إذا ما اقتضت الضرورة ذلك شخصية " بورشيا" بطلة مسرحية " تاجر البندقية " وقبل أن نتحدث عن بورشيا القوية والقادرة على التحدي لابد من الإشارة إلى شيكسبير . ولو أن الشاعر الانجليزي العالمي كان يعيش فى عصرنا الحاضر فربما أنه لم يكن ينجو من المحاكمة بالتهمة التي روجت لها الصهيونية فى أمريكا وكثير من الدول الأوروبية وهذه التهمة هي " العداء للسامية" ومعناها " العداء لليهود". وقد جعلت الصهيونية من هذه التهمة جريمة يعاقب عليها القانون ، وذلك لأول مرة فى القرن العشرين ، أما قبل ذلك فقد كان اليهود مكروهين علناً فى أوربا بصورة ظاهرة، وقد انعكست ظاهرة كراهية الأوروبيين لليهود على الأدب الأوروبي ، وكان شيكسبير من

أكبر الأدباء الذين عبروا عن هذه الكراهية فى مسرحيته" تاجر البندقية" التي ظهرت حوالي سنة ١٦٥٦ وقد أصبحت هذه المسرحية مشهورة فى العالم كله منذ ظهورها إلى اليوم، ولكن الحركة الصهيونية استطاعت أن تفرض عليها نوعاً من الحصار فابتعدت المسارح الأوروبية بما فيها المسرح الانجليزي عن تقديمها ، وفى حدود علمي فإنها من المسرحيات القليلة التي كتبها شيكسبير و لم يفكر السينمائيون بتقديمها فى أحد الأفلام ، رغم أن معظم مسرحيات شيكسبير الكبرى قد ظهرت فى السينما ، إلا هذه المسرحية والسبب هو أن المسرحية تشن هجوماً قوياً عنيفاً على الجوانب السلبية فى الشخصية اليهودية التي يمثلها بطل المسرحية " شيلوك" ، فهو شخصية ممتلئة بالأحقاد القاسية ضد الإنسانية كلها ، بما فى ذلك ابنته الوحيدة . الحركة الصهيونية فى إسرائيل وخارجها تكره شيكسبير وتعاديه، ولو استطاعت الصهيونية أن تمحو اسم شيكسبير من الوجود لفعلت ذلك دون تردد .. وجريمة شيكسبير عند الصهيونية تتمثل فى مسرحيته الكاشفة للجانب السلبي فى الشخصية اليهودية ، وما فى هذا الجانب السلبي من صفات قديمة راسخة حرمتها من أن تكون محبوبة أو قادرة على الحب .

خلاصة مسرحية " تاجر البندقية" أن "انطونيو" التاجر الايطالي يستدين من المرابي اليهودي " شيلوك" ثلاثة آلاف قطعة ذهبية لتقديمها إلى صديقه الوفى "بسانيو" حتى يتمكن هذا الصديق من إتمام زواجه من حبيبته " بورشيا" الجميلة الثرية ،ورغم أن " شيلوك" قد جمع ثروته أساساً من الربا فإنه وافق على إقراض التاجر " أنطونيو" بما طلبه منه دون أن يجني أي فائدة من هذا القرض ، أي بدون " ربا " ولكنه اشترط شرطاً فى منتهى الغرابة هو أن يقوم "انطونيو" بتوقيع عقد يتعهد فيه أن يرد القرض فى موعد محدد ، فان لم يدفعه فى الموعد

المحدد يكون من حق اليهودي " شيلوك" أن يقطع رطلاً كاملاً من لحم التاجر "انطونيو" ، من أي مكان يختاره " شيلوك" من جسم "انطونيو" ووافق انطونيو على توقيع هذا العقد الغريب ثقة منه بأن سفنه التي أبحرت للتجارة سوف تعود بربحها الوفير قبل الموعد المحدد للعقد ، ولعل أنطونيو كان يظن أن العقد الذي وقع عليه ليس إلا عقد هزلي ساخر ، وأن " شيلوك" لن يجرؤ على المطالبة بتنفيذ هذا العقد الغريب إذا وقعت مصادفة سيئة غير منتظرة فعجز انطونيو عن تسديد الدين في موعده .

ولكن المصادفة التعيسة وقعت لسوء الحظ وتأخر وصول سفن " انطونيو" عن موعدها المنتظر بل قد وصلت إشاعات قوية تقول " إن هذه السفن قد تحطمت وأن انطونيو خسر كل ما يملك " وهنا تقدم " شيلوك" إلى المحكمة طالباً تنفيذ العقد بما فيه من نص على أن يقطع رطلاً من جسم انطونيو ومن أي مكان يختاره في هذا الجسم ، ويحاول القاضي الذي ينظر القضية أن يثني "شيلوك" على المطالبة بتنفيذ هذا العقد ويحاول أن يثنيه عن المطالبة بقطع رطل من جسم " انطونيو" ، ولكن القانون يقف في صف تطبيق أي عقد ما دام هذا العقد صحيحاً ، لقد وجد القاضي نفسه حائراً جداً إذ لا مفر أمامه من أن يصدر حكماً بتنفيذ العقد حسب النصوص الواردة منه .

ولكن ضمير القاضي لم يكن مستريحاً للحكم بتنفيذ العقاب غير المعهود الوارد في العقد وهو اقتطاع رطل من جسم " انطونيو" كعقاب له على عدم تسديد القرض في موعده ، وهنا تظهر الفتاة الجميلة الثرية " بورشيا" على مسرح الأحداث ، فهذه المرأة تحب "بسانيو" وتريد أن تتزوج منه، وهذا الحب القوى هو السبب الأول للمشكلة ، فالقرض الذي قدمه المرابي "شيلوك" كان هو المهر الذي

سوف يقدمه الحبيب " بسانيو" إلى حبيبته " بورشيا" حتى يتمكن من إتمام زواجه منها ، فقد اقترض التاجر " انطونيو" المال من المرابي "شيلوك" ليقدم هذا المال إلى صديقه الوفى " بسانيو" الذي يحب بورشيا ويريد أن يتزوجها، ويجب أن يظهر أمامها بالمظهر الذي يليق به وبحبيبته الجميلة ، وهنا يندفع "انطونيو" حباً فى صديقه ورغبة فى إسعاده ، إلى الاقتراض من المرابي "شيلوك" بضمان سفنه التجارية ، مع تعريض نفسه للتضحية بحياته إذا لم يتمكن من السداد فى الموعد المحدد لأن قطع رطل من لحم جسمه لابد أن يؤدى إلى نزيف حاد ينتهي بموته ، ولكن أنطونيو النبيل رضى بهذه التضحية إذا ما أصبحت ضرورية من أجل إسعاد صديقه " بسانيو" وقد عرفت "بورشيا" بالقصة ودفعها حبها القوى إلى التحدي ودخول المعركة بكل عزم وقوة ، وهى لم تقبل أن تقف موقفاً سلبياً وتكتفي بالتحسر والبكاء ، وقررت أن تقاوم مقاومة جدية دفاعاً عن قلبها العاشق ، فالحب المخلص الصادق هو قضية عادلة تستحق الدفاع عنها ، ولو كانت "بورشيا" ضعيفة قليلة الحيلة لاكتفت بالدموع التي تذرفها وتجنبت أي اشتباك جدي عنيف مع المحنة التي يتعرض لها التاجر "انطونيو" بسبب مساندته لصديقه" بسانيو" .

إنها امرأة قوية جداً وهى حجة عالية تدل على أن المرأة ليست ضعيفة بطبعها ، ولكنها إذا أرادت أو استطاعت فإنها تتعامل مع الحياة بقوة وإرادة لا تلين .

ونواصل تلخيص بقية أحداث مسرحية "تاجر البندقية" اعتماداً على كتاب " روائع شيكسبير " وهو كتاب بديع ألفه الناقد الانجليزي الكبير المبدع تشارلز لام " ١٧٧٥-١٨٣٤" مع زوجته "ماري" وفيه تلخيص مدهش وفى غاية العذوبة والسلاسة لأعمال شيكسبير الكبرى

ومن هذا الكتاب نتوقف أمام الأحداث المتتالية فى المسرحية حيث جاء فيه :

" كان للفتاة الثرية الجميلة "بورشيا" قريب من رجال القانون المعروفين بصواب الرأي وسعة الحيلة والتجربة ، فكتبت إلى ذلك السيد واسمه " بلاريو " تعرض عليه وقائع القضية ، وتسأله عن رأيه وتطلب منه أن يرسل إليها الزى الخاص الذي يرتديه المحامون فى المحاكم ، ولما عاد الرسول الذي بعثت به " بورشيا" إلى قريبها القانوني كان هذا الرسول يحمل تقريراً مفصلاً عن الخطوات التي يجب إتباعها للسير فى هذه القضية إلى شاطئ النجاة ، ثم حمل الرسول معه كل ما يلزم لمظهر المحامى فى المحكمة ، وارتدت "بورشيا" ملابس الرجال ، وانطلقت على الفور إلى مدينة البندقية فى نفس اليوم المحدد لنظر القضية . ثم بدأ عرض القضية ونادي الحاجب على المتهم والمدعى ، فنظرت "بورشيا" حولها ورأت المرابي اليهودي "شيلوك" الذي لا يعرف الرحمة ، وأدركت "بورشيا" خطورة المهمة التي ندبت نفسها لها ، فبعث الشعور بجسامة المسئولية فى تلك السيدة الرقيقة قوة وشجاعة .وبدأت كلامها بتوجيه الخطاب إلى المرابي اليهودي "شيلوك" معترفة له أن من حقه بمقتضى قوانين البندقية أن يحصل على الجزاء المنصوص عليه فى العقد ، وهو اقتطاع رطل من جسم "أنطونيو" ثم توجهت إليه بحديث لين عذب عن فضيلة " الرحمة" السامية بأسلوب كفيل بأن يذيب أي قلب إلا قلب المرابي اليهودي ، ويعتبر هذا النص عن مزايا الرحمة من أبلغ وأجمل النصوص فى الآداب العالمية قالت " بورشيا : " إن الرحمة تنزل كما ينزل المطر من السماوات على الأرض الموات فتحيا به هذه الأرض كل نبات حسن.. إن الرحمة من البركات المزدوجة فهي بركة لمن يسدى بها وبركة لمن يتلقاها . إنها الفضيلة التي تزين الملوك خيراً مما تزينهم

التيجان لأن الرحمة هي نعمة من عند الله، ، أما السلطة الدنيوية فلا تقترب من عرش الله إلا بمقدار ما يمتزج عدل أصحاب السلطة بالرحمة فينبغي أيها السيد "شيلوك" أن تضع نصب عينيك أنه إن كنا نطلب الرحمة من الله الذي يملك أمرنا في يده فلن يستجاب لنا إلا إذا رحمنا الذين نملك أمرهم في أيدينا . وأمام هذا الكلام الرقيق الذي تحدثت به "بورشيا" لم يتراجع اليهودي "شيلوك" عن إصراره على اقتضاء الجزاء المنصوص عليه في العقد وهو اقتطاع رطل من لحم أنطونيو .

ثم تتواصل أحداث المحاكمة في المسرحية فقد طلبت " بورشيا"من "شيلوك" ما دام مصمماً على ذلك – أن يأخذ رطل اللحم من جسم "انطونيو" دون أن يريق قطرة من دمه ولكن "شيلوك" قال إن هذا ليس منصوصاً عليه في العقد فقالت "بورشيا" صحيح ولكن يجب أن تصنع ذلك بدافع الرحمة فقال " شيلوك":لا أجد ذكراً للرحمة في العقد والعقد شريعة المتعاقدين ". وهنا أثارت "بورشيا" نقطة دقيقة وقالت: " إن العقد وهو شريعة المتعاقدين ينص على اللحم ولكنه لا يمنحك قطرة واحدة من الدماء ، وانظر إلى عقدك جيداً فلن تجد فيه الرحمة ولكنك لن تجد فيه أي ذكر للدم أيضا ، وأنت تعلم أن هناك قانوناً يحكم على اليهودي الذي يريق نقطة من دم المسيحي بغير حق فأراضيك وأموالك وكل ما تملك تصادر كلها نظير تلك النقطة الواحدة من دم المسيحي ، وتصبح هذه الممتلكات ملكاً لدولة البندقية بنص القانون ، ولما كان من المستحيل أن يقطع "شيلوك" رطلاً من لحم انطونيو من غير أن يريق نقطة واحدة من دمه فقد امتنعت عليه وسيلة التنفيذ ونجا انطونيو من المصير الرهيب.

وواصلت بورشيا إطلاق حججها القوية فعلى "شيلوك" ألا يريق نقطة دم وعليه أن يقطع رطلاً واحداً من جسم "انطونيو" على

ألا يزيد هذا الرطل خردلة ولا ينقص شعرة ثم أطلقت " بورشيا" اتهامها الكبير و الأخير وهو أن "شيلوك" إنما يتآمر بصورة واضحة على حياة أحد رعايا البندقية المسيحيين، ولذلك فالقانون يقضى بالحكم عليه بالإعدام ومصادرة كل أملاكه لصالح الدولة . وهنا أصدر القاضي حكمه فقال موجهاً كلامه إلى "شيلوك" :كان القانون يجيز لنا إعدامك ومصادرة ثروتك ولكنني أهبك حياتك وأما ثروتك فان نصفها حكمنا به لأنطونيو والنصف الآخر سوف يعود إلى الدولة . وصرخ"شيلوك" من الصدمة قائلاً :"لقد جئت شاكياً فخرجت مفلساً ".

وهكذا تكشف هذه المسرحية عن قوة المرأة فى أفضل صورة ذلك أن بورشيا لم تستسلم عند الأزمة بل قاومت وقاتلت حتى انتصرت وكأن "بورشيا" تقول للدنيا كلها فى هذه المسرحية الجميلة :

أنا أحب ..فأنا أتحدى وأقاوم.

تلك هي بورشيا القوية الذكية النبيلة .. أما عدوها وعدو الإنسانية المرابي "شيلوك" فيقول عنه "بسانيو" حبيب"بورشيا" : "ما عرفت.قط مخلوقاً على صورة إنسان له مثل هذه الرغبة الحادة الشرسة فى إلحاق أفظع ضروب الأذى ببنى الإنسان " ، ويقول شخص آخر من أشخاص المسرحية عن "شيلوك" أيضا: "لعنك الله أيها الكلب الذي لا يلين ، ولتكن حياتك سبة فى جبين العدالة. إنك لا تكاد تزعزع إيماني وتدفعني إلى اعتناق رأى الفيلسوف اليوناني فيثاغورث القائل بأن أرواح الحيوانات تتقمص أجسام البشر ولا شك أن روحك الشريرة هي روح ذئب فكل رغباتك "ذئبية " تجعلك ظامئاً على الدوام للنهش والافتراس .

وهكذا تكون " بورشيا" هي امرأة قوية ترمز إلى الخير والجمال والذكاء وسمو العواطف الإنسانية وفى المقابل فإن "شيلوك"" يمثل الشر والحقد والعداء العميق للإنسانية .

❖

شخصية نسائية عجيبة

أهم الشخصيات فى هذا الفصل هي:

الملكة اليزابيث الأولى .

آن بولين ـــ أم إليزابيث التي تم إعدامها بتهمة الخيانة الزوجية .



كيف يرسم الفنان صورة المرأة فى رواية أو مسرحية أو قصيدة أو لوحة؟ إن المرأة هي صورة فى خيال الفنان، ولكن هـذه الـصورة تكون مستمدة دائماً من تجربه واقعية. وقد حدثني كاتبنا الكبير نجيب محفوظ كثيراً عن أمه السيدة "فاطمة" وعرفت من حديثه أنـه كـان شديد الارتباط بهذه الأم الكريمة، وأنها كانت صاحبة تأثير واسع على شخصيته. وليس من الصعب بعد ذلك أن نقول أن "السيدة فاطمـة" كانت هي المثل الأعلى للمرأة التي ظل نجيب محفوظ يبحث عنـها فى أدبه وحياته معاً. وقد تكون المرأة فى حياة الفنان هي أمه أو أختـه أو حبيبته أو زوجته أو أي امرأة مشهورة وذات تأثير فى العـصر الـذي يعيش فيه الفنان.

وفى مجال الفنون التشكيلية توجد بمتحف "اللوفر" فى بـاريس لوحة لها شهرة عالمية واسعة هي لوحة"مونـاليزا" للفنـان الإيطـالي ليوناردو دافنشى "١٤٥٢ – ١٥١١" وهذه اللوحة لم يرسمها الفنـان من خياله بل اعتمد فيها على الواقع،فاللوحة هـي صـورة لامـرأة معروفة فى عصر دافنشى، وهذه المرأة كانت زوجة لتاجر إيطالي كبير من مدينة "فلورنسا" اسمه "دل جوكندو" ولذلك فإن لوحة "الموناليزا" لها اسم مشهور آخر هو "لاجوكندا" وهذا الاسم هو اسم الزوجـة منسوبة إلى زوجها. ولوحة دافنشى معروفة بين النقاد والجمهور بأنها

تتميز بوجه فيه ابتسامة ساحرة وفيه أيضا نوع من الغموض الذي يدفع من يقف أمامها إلى الشعور بقدر كبير من الحيرة في تفسير ما تحمله من أسرار عجيبة. ويقال إن دافنشي رسم هذه اللوحة الخالدة في ثلاث سنوات تمتد من سنة ١٥٠٣ إلى سنة ١٥٠٦ . والمهم هنا هو أن هذه اللوحة التي يعتبرها البعض أجمل لوحة لأي وجه نسائي في تاريخ الفن التشكيلي كانت مستوحاة من شخصية امرأة معروفة، وقد تأثر دافنشي بهذا الوجه الساحر الغامض وهو وجه السيدة "جوكندا".

وهناك شخصيات نسائية كثيرة صورها الفنان الإنجليزي العالمي شيكسبير في مسرحياته . وأهم ما يمكن أن نلاحظه على شخصيات شيكسبير النسائية هو أنها في معظمها تبدو شخصيات قوية جداً فالنساء عند شيكسبير صاحبات إرادة ولديهن قدرة على اتخاذ قرارات صعبة وخطيرة . ولهن رأى مستقل غير تابع لآراء غيرهن، وهن قادرات على التحدي والدفاع عن أنفسهن حتى الموت. وهنا نتساءل : من أين جاء شيكسبير بهذه الصورة القوية للمرأة ، خاصة في عصر قديم هو أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، وهى الفترة التي عاش فيها شيكسبير والتي تمتد من تاريخ ميلاده في ٢٣ إبريل سنة ١٥٦٤ وحتى تاريخ وفاته في نفس يوم ميلاده. أي في ٢٣ إبريل سنة ١٦١٦ . كيف استطاعت المرأة أن تفتح قلب شيكسبير وعقله بأنها تمتلك كل هذه القوة الكبيرة التي نجدها عنده في شخصيات"جولييت"و"ديدمونة" "وكليوبطرة" "وليدى مكبث" و"كورديليا" وغيرهن من النساء القويات اللواتي خضن معارك الحياة كأنهن فارسات ، ولم يترددن في احتمال أصعب المواقف والتجارب الإنسانية؟

هناك شخصيات نسائية كثيرة فى حياة شيكسبير منــهن أمــه وزوجته وابنته. وهناك ما يقال أيضاً عن حبيبة سمراء ملكت عليه قلبه. ولاشك أن هؤلاء النساء جميعاً كان لهن تأثير كبير على تفكير شيكسبير وفنه. ولكن الدراسة المتأنية لعصر شيكسبير لابد أن تثبت أن الشخصية النسائية العجيبة التي سيطرت على هذا العــصر وحــددت صورة المرأة فيه هي شخصية الملكة إليزابيث "١٥٣٣-١٦٠٣"

وقد حكمت هذه الملكة بريطانيا – بلد شيكسبير – خمساً وأربعين سنة متواصلة تمتد من سنة ١٥٥٨ وحتى سنة ١٦٠٣ وماتت هذه الملكة الجبارة قبل وفاة شيكسبير نفسه بثلاث عشرة سنة.

هذه المرأة كانت أهم شخصية نسائية فى عــصر شيكــسبير .وعند المقارنة بين صفات النساء الشهيرات فى أدب شيكسبير وبــين شخصية الملكة "إليزابيث" فلعلنا لا نخطئ فى القول بــأن شخــصية "اليزابيث" كانت هي مصدر الإلهام الكــبير لشيكــسبير فى رســم شخصياته النسائية القوية فى مسرحياته العظيمة.

ونتوقف هنا أمام شخصية الملكة "اليزابيث" فنجــد أن هــذه الملكة عاشت حياتها فى محنة كبير منذ ميلادها ســنة ١٥٣٣ وحــتى اعتلائها للعرش ١٥٥٨ وهى فى الخامسة والعشرين . فالملكة إليزابيث" هي ابنة "أن بولين" وأبوها هو الملك "هنرى الثامن" وقد تعرضت أمها للاتهام بالخيانة الزوجية من جانب أبيها..وتم إعدام الأم بعد محاكمــة قاسية جداً. وقد صمدت الأم "أن بــولين" فى المحكمــة ورفــضت الاعتراف بأن ابنتها "إليزابيث" ليست ابنة شرعية لأبيها الملك، وإنمــا هي ابنة غير شرعية . و أن أباها الحقيقي هو شخص اتهموا الملكة بأنه كان عشيقاً لها يلتقي بها فى السر.

ماتت الأم "أن بولين" بعد أن قطعوا رأسها في"بـرج لنـدن" الذي كان أشهر وأفظع سجون إنجلترا في ذلك العصر وتركـت الأم ابنتها "إليزابيث" في مهب رياح عاصفة كانت كفيلة بالقضاء عليهـا وحرمانها من أن يكون لها مستقبل من أي نوع. ولكن الحظ الـذي كان بالغ السوء في بداية حياة إليزابيث" انقلب فجأة لصالحها وأصبح لوناً من ألوان الحظ السعيد ، فقد ماتت أختها غير الـشقيقة الملكـة "مارى" فجأة،أصبحت "إليزابيث" التي ظلت مهددة بالإعدام ملكـة على إنجلترا .. وبعد أن تولت "إليزابيث" عرش البلاد لم يعد للحظ في حياتها دور آخر يؤديه. أصبح مستقبلها مرهوناً بإرادتها الجبارة الـتي كشفت عنها بعد أن تولت أمور المملكة البريطانية.. وقد ظل عنـصر الإرادة القوية والعزيمة النادرة هو العنصر الذي يقود حياة "إليزابيـث" طيلة فترة حكمها الطويلة ،فأثبتت بذلك أنها امرأة استثنائية ونادرة في قومها العجيبة.

في اليوم الثاني لجلوس"إليزابيث" على العـرش ، وهـو يـوم العشرين من نوفمبر سنة ١٥٥٨ خطبت "إليزابيث" في حشد كبير من اللوردات والسيدات وأعضاء مجلس العموم في أنحاء المملكة .

ونعتمد هنا على المرجع الأساسي في هذا الفصل وهو كتـاب "قصة الحضارة" .للمؤرخ الأمريكي الكبير ويل ديورانت الجزء الأول من المجلد السابع – ترجمة محمد على أبو درة ، وفي خطبة "إليزابيـث" قالت الملكة التي لم يمض عليها سوى يوم واحد فوق العرش :

" أيها اللوردات: إن قوانين الطبيعة لتثير في نفـسي الأسـى والحزن على أختي الراحلة "الملكة مارى" كما أن العبء الذي ألقتـه الأقدار على كاهلي إنما يثير ذهولي .. ولكني بوصفي من عباد الله فإن من واجبي الامتثال لاختياره إياي لهذا المنصب . إنني سوف أخـضع

لمشيئة الله. تحدوني الرغبة من أعماق قلبي فى أن يهبني العون بفضله وكرمه على تنفيذ إرادته سبحانه وتعالى فى المهمة الملقاة اليوم على كتفي .. وما أنا من الناحية المادية إلا الإنسان ولكنى- بإذنه تعالى – إنسان سياسي ، عليه أن يتولى الحكم فهل لي أيها اللوردات،وخاصة النبلاء منكم،على قدر مكانة كل واحد وسلطته..هل لي أن أطمع فى أن تكونوا عوناً لي،حتى أستطيع أنا بحكمي وأنتم بخدماتكم أن نقدم لله سبحانه وتعالى عملاً مقبولا، ونترك لأبنائنا فوق هذه الأرض شيئاً من الرفاهية والراحة ؟ "

ثم يقول المؤرخ الأمريكي الكبير "ويل ديورانت" بعد ذلك فى قصة الحضارة:

بعد هذا الخطاب بثمانية أيام اخترقت "إليزابيث" وهى تلبث ثوباً من القطيفة القرمزية "الحمراء " شوارع لندن فى موكب عام إلى نفس "برج لندن" الذي كانت سجينة فيه منذ أربعة أيام تنتظر الموت بإعدامها.وفى طريقها أخذ الأهالي يهللون ويهتفون لها ، وأخذ المنشدون يتغنون بمجدها وعظمتها، وأطفال يتلون عليها وهم يرددون ما حفظوه من عبارات الولاء والإجلاء ورحبت طلقات المدافع والبنادق التي لم يسمع أحد لها نظير من قبل بحكم ملكة شاءت الأقدار أن يكون عصرها أزهى وأحفل عصر بالعقول والرجال من أي عصر سبقه فى إنجلترا.

ولكن...

كيف اجتازت "إليزابيث" كل الظروف العسيرة الصعبة التي كانت تواجهها عند توليها للعرش؟

لقد كانت ظروف إنجلترا فى تلك اللحظة التاريخية بالغة السوء ، ونعود إلى المؤرخ " ويل ديورانت " وكتابه " قصة الحضارة " لنقرأ فيه صورة مخيفة للظروف التي واجهت الملكة الشابة فى أول لحظة من لحظات توليها للحكم حيث يقول :

" إن إليزابيث الآن فى سن الخامسة والعشرين وفيها كل الفتنة التي تقترن بنضج الأنوثة ."

وكانت إليزابيث متوسطة الطول ، حسنة المظهر ، مليحة القسمات ، ذات بشرة تميل إلى السمرة ، وكان لها عينان وضاءتان ، وشعر أسمر مائل إلى الحمرة ، كما كان لها يدان جميلتان عرفت كيف تظهرهما دائماً لكل العيون .

وقد بدا أنه من المستحيل أن تتمكن مثل هذه الفتاة من أن تواجه بنجاح تلك الفوضى التي تحيط بها ، فقد مزقت المذاهب الدينية المتصارعة ، وخاصة بين الكاثوليك والبروتستانت أوصال إنجلترا ، وكانت هذه الصراعات الدينية تخفى وراءها الرغبة فى هذه الصراعات الدينية .

وكان الفقر الشديد داء متوطناً فى إنجلترا ، وكان المتشردون يملأون شوارع المدن والقرى .

ووقفت العملة الزائفة عقبة فى سبيل رواج التجارة الداخلية ، وانتشرت هذه العملة الزائفة لمدة نصف قرن ، وكان لهذه العملة أثرها فى هبوط رصيد الخزانة العامة ، واستغرقت العقيدة الدينية حياة الملكة ماري ، الأخت غير الشقيقة لإليزابيث والتي سبقتها على عرش إنجلترا ، ولذلك لم تهتم " ماري بشئون الدفاع الوطني " وأهملت الحصون وبقيت شواطئ إنجلترا دون أي حماية ، ولم تعد البحرية صالحة ،

وساءت رواتب الجيش وساء طعامه ، وأصبحت وظائف كثيرة فيه شاغرة لا يشغلها أحد، وأصبحت إنجلترا بلداً كسيحاً مشلولاً من الناحية السياسية ، فتحول هذا البلد إلى لعبة تتقاذفها أسبانيا وفرنسا .

هذا هو حال إنجلترا عندما تولت "إليزابيث" العرش . أما الملكة نفسها فقد كانت مهددة من جانب البابا فى روما بالحرمان ، لأنها كانت تميل إلى البروتستانتية التي كانت كنيسة روما تعتبرها كفراً وخروجاً على المسيحية ، كما كان الخوف من القتل والاغتيال يسيطر على الملكة الشابة بسبب كثرة المؤامرات الداخلية والخارجية حولها .

ولكن "إليزابيث" صمدت فى وجه هذه العواصف الرهيبة ، وواجهت الأمور بشجاعة روحية منقطعة النظير ، وظهرت لديها فى عصر حكمها صفات قوية ساعدتها على مواجهة الفوضى المحيطة بها حتى استطاعت فى النهاية أن تنهض بإنجلترا التي تسلمت الحكم فيها وهى بلد فقير ممزق ، وعند وفاة الملكة بعد خمسة وأربعين عاماً قضتها على العرش كانت إنجلترا هي سيدة البحار وكانت دولة بالغة الثراء والازدهار وكان لها سيادة داخل أوروبا فى مجال العقل والفكر والفنون . والخلاصة أن إنجلترا فى عصر الملكة "إليزابيث" أصبحت أغنى مما كانت عليه فى أي وقت مضى مادياً وفكرياً، بحيث أصبح عصر إليزابيث هو عصر النهضة الكبرى فى إنجلترا، وهو العصر الذي ظهر فيه شيكسبير وأنتج مسرحياته العبقرية الغزيرة.

والحقيقة أن شخصية "إليزابيث" العجيبة هي شخصية تستحق دراسات كثيرة واسعة ، وقد حظيت فعلاً بمثل هذه الدراسات التي تملأ المكتبة الإنجليزية بل والمكتبة العالمية كلها .

وسوف نكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الملامح المثيرة لهذه الشخصية اعتمادا على المصدر الرئيسي وهو " قصة الحضارة " للمؤرخ الأمريكي " ويل ديورانت " ومن هذه الملامح ما كان لهذه الملكة من القدرة على التمييز وحدة الذهن ، مما انعكس على اختيارها لمعاونيها ، فقد اختارتهم رجالاً من ذوى التجربة والكفاءة والثقافة والخبرة ولكنهم " ليسوا من أصل عريق أو محتد كريم " وذلك حتى يسهل عليها قيادتهم ، وكان على رأس من اختارتهم سياسي أسمه " وليم سيسيل" فجعلته سكرتيرا لها ومستشارا أساسياً فى بلاطها ، وعندما اختارته لهذه الوظيفة وجهت إليه حديثاً مليئاً بالفطنة والذكاء قائلة : " لقد عهدت إليك بهذه المهمة ، وهى أن تكون مستشاراً للملكة ، وترتضى أن تبذل أقصى الجهد من أجلي ومن أجل مملكتي ، وإني أرى فيك أنك لن تفسدك أية منحة أو هدية مهما يكن نوعها ، وأنك ستكون مخلصاً للدولة ، وأنك سوف تقدم لي ما ترى أنه أفضل الرأي والنصيحة ، دون أي اعتبار لإرادتي الخاصة ، وأنك إذا رأيت أن هناك شيئاً ضرورياً يجب إبلاغي به فى السر فسوف تقوم بالإفضاء به لي وحدي، وتأكد أنني لن أعجز عن التزام الصمت فى مثل هذه الحالة ، ومن هنا فإني أعهد إليك بهذه المهمة ."

وعندما نقرأ الكلمات السابقة والتي وجهتها الملكة إلى مستشارها الأول سوف نجد فيها حرصاً شديداً من جانب هذه المرأة العجيبة على أن يلتزم مستشارها بقول " الحقيقة " لها ، حتى لو كانت هذه " الحقيقة " على عكس ما ترغب فيه أو تريده ، وهذا الحرص على الاستماع إلى الحقيقة ومعرفتها حتى لو كانت مزعجة ومثيرة للقلق هو دليل على قوة هذه المرأة ، وشاهد على معرفتها بأن الحكم لا يستقيم إذا اعتمد على النفاق وتقديم الصورة الزاهية وحدها حتى لو كانت هذه الصورة مزيفة ومخالفة للواقع .

ثم ننظر بعد ذلك فى ملامح شخصية أخرى لهذه الملكة الجبارة حيث يقول المؤرخ" ديورانت" :

" دفعت تصرفات إليزابيث فى شئون الدولة الأصدقاء والأعداء على السواء إلى البكاء . "

فقد كانت متأنية مترددة إلى حد مثير عند البت فى الأمور ، ولكن ترددها عاد بالفائدة فى أحوال كثيرة ، فقد عرفت كيف تتحالف مع الزمن الذي يقدم من الحلول للمشكلات أكثر مما يقدمه البشر . وقد أتاح لها تسويفها أن تستقر الأمور وتتركز وتتضح بالنسبة للتعقيدات التي تتصل ببعض المواقف الصعبة .

لقد كانت الملكة معجبة بالفيلسوف الأسطوري الخيالي الذي ألحوا عليه فى طلب الجواب ، فتلا كل حروف الهجاء فى صمت قبل أن يقدم إجابته ، وقد اتخذت الملكة شعاراً لها هو :

" إني أرى وأنا صامتة " واكتشفت أنه فى السياسة كما فى الحب ، فإن من لا "يتردد" يتعرض للهلاك والضياع.

تفوقت إليزابيث فى الفطنة السياسية والبراعة الدبلوماسية . وقد تعلمت هذه الملكة تعليماً واسعاً قبل أن تجلس على العرش ، فقد كانت تتقن الفرنسية والإيطالية بنفس درجة إتقانها للإنجليزية ، وكانت كثيراً ما تتحدث فى يسر وسهولة وطلاقة باللاتينية ، وإلى حد ما باليونانية ولذلك فقد تمتعت بميزة القدرة على التباحث مباشرة مع السفراء بالفرنسية أو الإيطالية أو اللاتينية ، وكانت فى غنى عن الاعتماد على المترجمين والوسطاء ، وقال عنها سفير أسبانيا فى لندن : إن هذه المرأة يتملكها مائة ألف شيطان ولكنها مع ذلك تزعم لي أنها

تحب أن تكون راهبة تعيش فى صومعة تتلو تسابيحها وصلواتها من الصباح إلى الليل .

كانت إليزابيث تخلط بين الرقة والعنف ، وكثيراً ما ثارت وفقدت أعصابها ، ولكنها سرعان ما كانت تعود إلى ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب ، وكانت تنفجر ضاحكة إذا كانت تتسلى ، وما أكثر ما حدث لها ذلك ، وكانت ترقص على قدم واحدة حتى بلغت التاسعة والستين ، كما أحبت المسرحيات والحفلات التنكرية واحتفظت دائما بروح معنوية عالية.

وكانت معتدلة فى طعامها وشرابها، وكانت غاية فى الشجاعة والذكاء عند مواجهة الخطر، ولكنها كانت شرهة فى المال والمجوهرات ، وكانت تجد متعة كبيرة فى مصادرة ممتلكات العصاة الأثرياء ، وكانت تحتفظ بثروة كبيرة من الجواهر والأحجار الكريمة أهداها إليها اللوردات الذين ينتظرون منها النفع أو المرشحين للمناصب و لم تشتهر بعرفان الجميل ولا بالسخاء ، وحاولت فى بعض الأحيان أن تدفع أجور العاملين لديها كلمات حلوة بدلاً من النقود ورغم كل ما يقال عن أخطائها فان هذه الملكة قد اتخذت الخطوات وشقت الطرق وابتكرت الوسائل من أجل تفجير الطاقات الكامنة فى رجال انجلترا الأفذاذ ، وقد استثارت همم الجميع وشجاعتهم للقيام بالمشروعات الضخمة وحركت عقولهم إلى التفكير الجريء وقادت سلوكهم نحو التهذيب والفطنة وألهمتهم نظم الشعر وكتابة المسرح وإبداع الفن .

وفى بلاطها وحول هذه المرأة تكاد تكون قد تجمعت كل عبقرية انجلترا فى أزهى عصورها . ومن الغريب أن هذه الملكة الجبارة لم تتزوج برغم جمالها ومالها وسلطانها ، ويقال إنها كانت عاقراً ، كما يقال إنها كانت تعانى من وجود غشاء يمنعها من معاشرة الرجال وقد

تعهد احد الجراحين الفرنسيين بإجراء جراحة لها تخلصها مما تعانيه ، ولكن شدة خوفها منعها فى آخر لحظة من إجراء هذه الجراحة فبقيت عذراء حتى نهاية حياتها ، وقامت بتركيز كل نشاطها وحيويتها وإرادتها وذكائها فى أمور السياسة والملك .

فى هذا العصر ظهر شيكسبير وعاش الجزء الأكبر من حياته فاستفاد فائدة كبرى من الاستقرار الكبير والطويل الذي حققته الملكة " اليزابيث" لإنجلترا فى عصرها واستفاد كذلك من أجواء الرخاء والرفاهية التي سادت البلاد ، وأتاحت للناس أن يقبلوا على فن المسرح ويستمتعوا به، واستفاد شيكسبير بعد ذلك كله من حب الملكة للفنون وتشجيعها للشعراء وفناني المسرح .

والأهم من ذلك أن شيكسبير قد وجد فى شخصية الملكة اليزابيث القوية الجبارة الكثير من الإلهام فى رسم الشخصيات النسائية الكبرى فى مسرحياته المختلفة فجاءت هذه الشخصيات نساء من صاحبات الإرادات والقدرة العالية على التحدي ومواجهة الأزمات واتخاذ القرارات والالتزام بمواقف وآراء مستقلة خاصة بهن، فنساء شيكسبير الشهيرات كلهن قويات فيهن الكثير من الجرأة والاستقلال والتحدي وعدم الخضوع لآراء مفروضة عليهن فهن نساء اخترن الإرادة الحرة حتى لو أدى ذلك بهن إلى الموت نتيجة لما يقتنعن به من آراء وما يندفعن إليه من مواقف وتصرفات .

❖

الفهرست

غلاف طارق علي

هذا الكتاب رحلة عند أدب شكسبير هدفها التفكير و التأمل في النماذج المختلفة التي قدمها للمرأة حيث تحتل مكانة "عالية في أدب شكسبير" و في مسرحياته صور متعددة للمرأة منها المرأة المحبة العاشقة، وهناك المرأة المتمردة، والمرأة الملاك، والمرأة الشيطان، وغير ذلك من النماذج الإنسانية المتعددة للمرأة، قدمها شكسبير في عمق وجمال وصدق وكأنها كائنات حية و ننسى أننا نعيش في عالم فني خيالي.

إن المرأة عند شكسبير هي الحياة، وهي الطبيعة ، ولا يمكن فهم شيء عن الحياة و الطبيعة دون محاولة فهم المرأة و معرفة أسرارها.

رجاء النقاش

